رواية

الحياة رواية

غيوم ميسو

نوفل

الحياة رواية

رواية

الحياة رواية

غيوم ميسو

نقلته من الفرنسية سمر معتوق

نوفل

صدرت عام 2021 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Mathieu Persan** ©
الرسوم: **Matthieu Forichon** ©
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **المطبعة العربية**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-905-8
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-906-5

Original title:
La vie est un roman by Guillaume Musso

إلى ناتان

السبت 3 يونيو، الساعة العاشرة والنصف صباحًا

توتّر جنوني. أتهيّأ للبدء في كتابة روايتي بعد ظهر اليوم. أستعدّ لذلك منذ أسبوعين. الأيـام العشرة الأخيرة عشت مع شخصياتي وتشبّعت من أجوائها. برَيتُ توًّا أربع دزّينات من أقلامي الجديدة، يدي ترتجف إلى درجة أنّني تناولت نصف قرص من البيلادينال[1]. تراني أفلح؟ [...] حتى اللحظة، يلفّني الخوف وتغمرني رغبة، كالعادة، في تأجيل الكتابة، لا بل في الامتناع عنها كلّيًّا.

جورج سيمنون،
حين كنتُ عجوزًا

[1] دواء مسكّن ومهدّئ.

الروائية الويلزية فلورا كونواي
الفائزة بجائزة فرانز كافكا الأدبية

وكالة فرانس برس، 20 تشرين الأول/أكتوبر 2009

حصدت الروائية المتحفّظة للغاية والبالغة من العمر تسعة وثلاثين عامًا الجائزة المرموقة التي تُمنح كلّ عام لمؤلّف عن مجموع أعماله.

لم تحضر فلورا كونواي، التي تعاني الرّهاب الاجتماعي وتمقت علنًا الحشود والتنقّل والصحافيين، مساء ذلك الثلاثاء إلى مدينة براغ للمشاركة في الحفل الذي أقيم في قاعة مجلس المدينة القديمة.

استلمت محرّرتها فانتين دو فيلات الجائزة مكانها وهي عبارة عن تمثال صغير من البرونز لفرانز كافكا مع مكافأة قدرها 10 آلاف دولار أميركي. وقد صرّحت فانتين في خطابها قائلة: «هاتفتُ توًّا فلورا وهي ترسل إليكم شكرها الحارّ على هذه الجائزة التي تسعدها بشكل خاصّ إذ لطالما شكّلت أعمال كافكا لها مصدر إعجاب وفكر وإلهام لا ينضب».

تُمنح الجائزة منذ العام 2001 من جمعية فرانز كافكا بالتعاون مع بلدية براغ ومن خلال لجنة تحكيم دولية. ومن بين الفائزين نذكر فيليب روث، وفاتسلاف هافيل، وبيتر هاندكه وأيضًا هاروكي موراكامي.

تصدّرت فلورا كونواي المشهد الأدبي بفضل روايتها الأولى المشوّقة، «فتاة في لابيرينت[1]» الصادرة في العام 2004 والمترجمة إلى أكثر من عشرين لغة، والتي أجمع النقّاد على أنّها عمل كلاسيكي آنيّ يصوّر تحرّكات عدد من سكّان نيويورك في اليوم السابق للهجوم على مركز التجارة العالمي. ويلتقون جميعًا في حانة لابيرينت في شارع بويري حيث كانت فلورا كونواي تعمل نادلة قبل نشر روايتها التي تبعتها روايتان أخريان، هما «توازن ناش» و«نهاية المشاعر»، وطّدتا مكانتها كروائية بارزة في مطلع القرن الحادي والعشرين.

في خطاب الشكر، لم تستطع فانتين دو فيلات إخفاء سعادتها عند إعلانها قربَ صدور رواية جديدة لفلورا، فانتشر الخبر بسرعة البرق في عالم الأدب حيث تُعتبر كلّ رواية جديدة لكونواي حدثًا بارزًا في حدّ ذاته.

هي هالة لا يزال يكتنفها الغموض. لم تخفِ فلورا كونواي هويّتها قَطّ لكنّها لم تظهر يومًا في شاشة التلفزيون ولم تشارك في أيّ برنامج إذاعي كما أنّ دار النشر التي تصدر كتبها تنشر دائمًا صورة وحيدة لها.

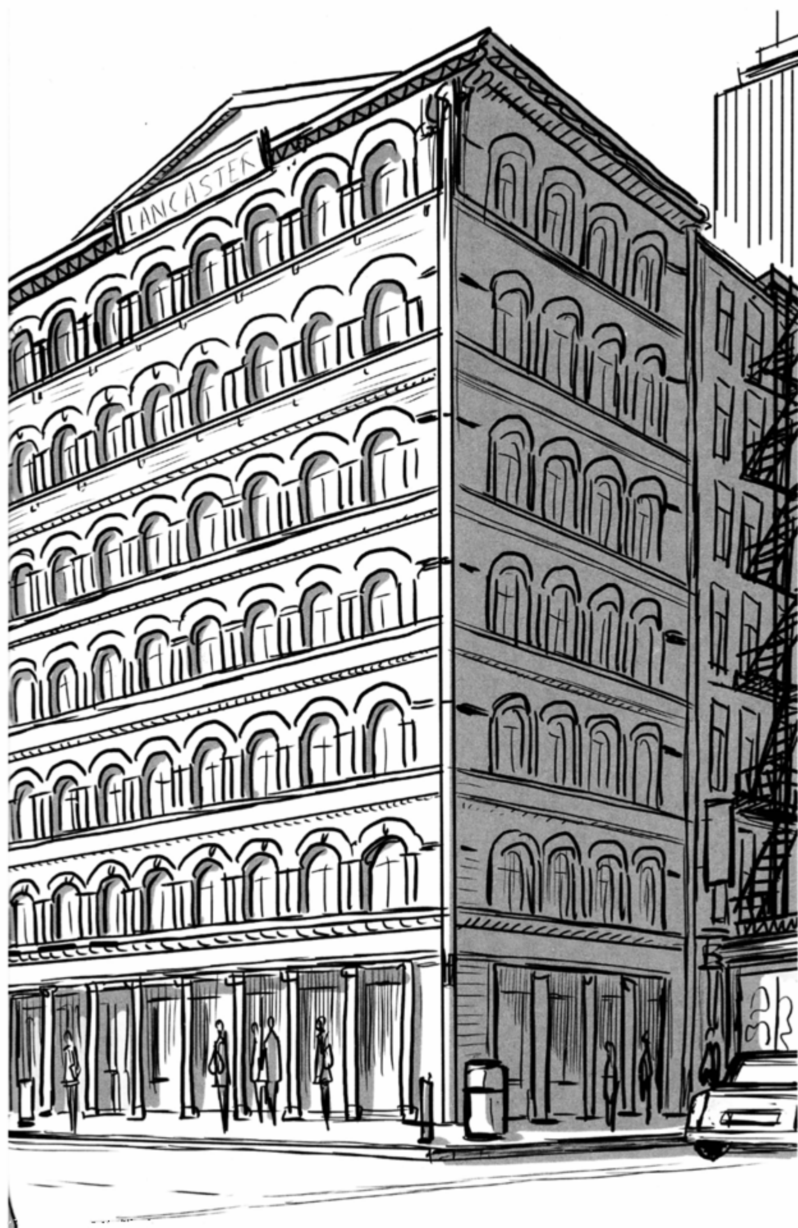
تكتفي الروائية، مع كلّ إصدارٍ جديد لها، ببعض المقابلات الخجول عبر البريد الإلكتروني. كما عبّرت السيّدة كونواي مرارًا وتكرارًا عن رغبتها في التحرّر من قيود الشهرة ونفاقها، وكانت قد برّرت أخيرًا في صحيفة الغارديان رفضها المشاركة في السيرك الإعلامي الذي تبغضه قائلة أنّها تكتب الروايات فقط «للهروب من عالم مشبّع بالشاشات، ولكن خالٍ من الذكاء».

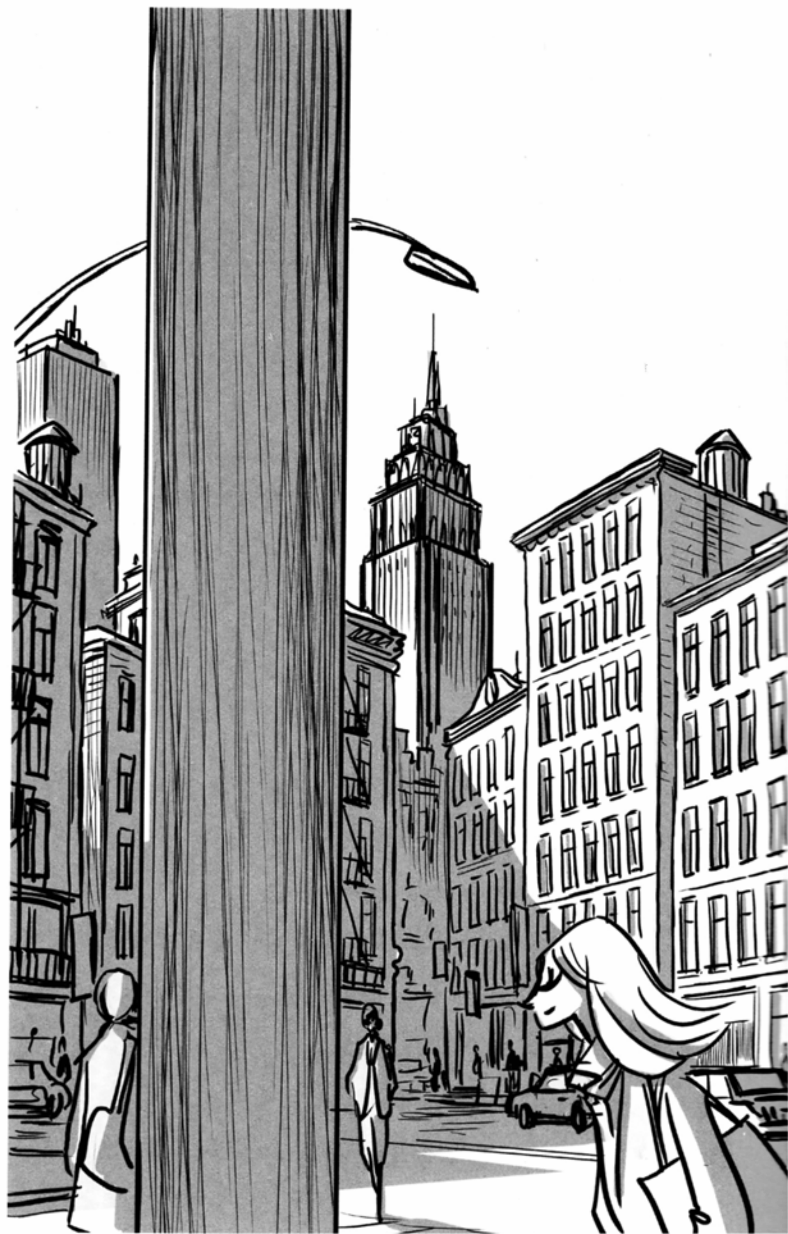
قرار يتماشى أيضًا مع مسار فنّانين معاصرين آخرين منهم بانكسي، وإنفيدر، وفرقة دافت بانك أو حتى الروائية الإيطالية إيلينا فيرانتي، الذين يرون في عدم الكشف عن الهويّة وسيلة لوضع العمل – وليس الفنان – في مركز الصدارة. تمامًا كما عبّرت فلورا كونواي بقولها: «بمجرّد نشره، يكتفي كتابي بذاته». لا شكّ في أنّ بعض المراقبين كانوا يأملون بأن يحثّ الفوز بجائزة كافكا الكاتبة على الخروج من ملاذها في نيويورك. لكن ولسوء الحظّ، هذه المرّة أيضًا، لم تتحقّق الأماني.

بلاندين سمسون

[1] عبارة فرنسية تعني المتاهة.

فتاة المتاهة


LANCASTER



1

مختبئة

من المفترض أن تكون القصّة التي تدور تحت
أنظارنا هي الأوضح. إلّا أنّها الأكثر تشوّشًا.

جوليان بارنز

.1

بروكلين، خريف 2010

قبل ستّة أشهر، في الثاني عشر من شهر أبريل 2010، كنّا أنا وابنتي كاري كونواي ذات السنوات الثلاث نلعب الغمّيضة في شقّتنا في ويليامسبورغ عندما انتُزِعَت منّي.

كان الوقت عصرًا وكانت شمس الربيع تغدق أشعّتها الصافية على مدينة نيويورك. انطلقتُ كعادتي سيرًا على الأقـدام لأحضر كاري من مدرستها، مدرسة مونتيسوري في حديقة ماك كارين. في طريق العودة، توقّفنا عند مارتشيلوز لشراء كومبوت الفاكهة وكانولي الليمون اللذين التهمتهما كـاري وهـي تثب ابتهاجًا على مقربة من عربتها.

لمّا وصلنا إلى مدخل مبنى لانكستر في شارع بيري 396 حيث نقطن، قدّم حارس المبنى الجديد، تريفور فولر جونز – الذي لم يمضِ على تعيينه ثلاثة أسابيع – الحلوى بالعسل والسمسم لكاري بعدما انتزع منها وعدًا بأنّها لن تأكلها على الفور. ثمّ أخبرها كم هي محظوظة بأن تكون أمّها روائية فتقرأ لها كلّ مساء قصصًا جميلة قبل النوم. ضحكتُ ولمّحتُ إلى أنّه، وبقوله هذا، لم يفتح صفحة واحدة من رواياتي، فثبّت ذلك قائلًا: «هذا صحيح، سيّدة كونواي، لا وقت لديّ للقراءة». أجبته والمصعد يغلق أبوابه: «بل أنت لا تخصّص وقتًا للقراءة، تريفور، وهذا مختلف».

حملتُ كاري كالعادة لكي تضغط زرّ الطابق السادس والأخير. منذ زمن لم يعد صرير المقصورة المعدني وهي تتحرّك، يخيف أيًّا منا. فلانكستر بناء قديم مصفّح بالحديد، وهو قيد الترميم. بناءٌ شُبّه به كقصر تطوّقه نوافذ ضخمة مؤطّرة بعواميد كورنثية. كان قد استُخدِم في ما مضى مستودعًا لصناعة الألعاب وما لبث أن انطفأ كلّ نشاط فيه في أوائل السبعينيّات. ولمّا تراجع التصنيع، هُجر البناء فترة تقارب الثلاثين عامًا ليُعاد تأهيله للسكن بعدما أصبح العيش في بروكلين رائجًا.

ما كادت أقدامنا تطأ عتبة الشقّة حتى خلعت كاري حذاءها الرياضي الصغير وانتعلت الخفّين الزهريين الفاتحين المزيّنين بكريات من القطن. لحقت بي نحو الآلة الصوتية وعيناها تحدّقان فيّ فيما أشغّل أسطوانة الفينيل، ثمّ شرعت تصفّق للموسيقى المنتظرة – لحن كونشيرتو البيانو الثاني لموريس رافيل. أمضت دقائق تحوم حولي كظلّي حتى أنهيت تعليقَ الملابس ثمّ طالبتني بلعب الغمّيضة.

هي لعبتها المفضّلة إلى حدّ بعيد، لعبة لطالما أسرت عقلها الصغير.

في عامها الأوّل، كانت لعبة الـ«بقّوسة» بالنسبة إليها أن تحجب عينيها بيديها الصغيرتين وأصابعها متباعدة فأغيب عن نظرها بضعَ ثوان قبل أن يتراءى لها وجهي من جديد، بسحر ساحر، فتطلق ضحكة مدويّة. ثمّ بدأت مع مرور الوقت تستوعب مبدأ اللعبة أكثر فصارت تجري لتتوارى خلف الستار أو تختبئ تحت المنضدة الصغيرة غافلة أنّ طرفًا من قدمها أو كوعها أو ساقها الممدودة يشي دومًا بمخبئها؛ وعندما تطول اللعبة كثيرًا، كانت تُحرّك يدها في اتّجاهي لأجدها بسرعة.

كلّما كانت تكبر، كانت العملية تزداد تعقيدًا. فقد ألفت كاري الغرف الأخرى في المنزل وضاعفت بذلك فرص الاختباء: جالسة القرفصاء وراء الأبواب، متكوّرة على نفسها في حوض الاستحمام، غارقة تحت الأغطية أو ممدّدة تحت سريرها.

قوانين اللعبة أيضًا تغيّرت وباتت اللعبة أكثر جدّية.

أصبح عليّ قبل الانطلاق للبحث عنها أن أستدير بوجهي نحو الحائط وأغمض عينيّ فيما أعدّ إلى العشرين.

وهذا ما فعلته بالضبط، بعد ظهر يوم 12 أبريل، والشمس تتلألأ وراء ناطحات السّحاب غامرة الشقّة بنور دافئ لا يكاد يكون حقيقيًّا.

– لا تغشّي ماما! صرخت كأنّها توبّخني بالرغم من أنّني كنت أتبع قوانين اللعبة بحذافيرها.

كنت في غرفتي ويداي تحجبان عينيّ حين بدأتُ العدّ بصوت عالٍ وإيقاع لا هو سريع ولا هو بطيء.

– واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...

ما زلت أسمع وقع قدميها الصغيرتين على الأرضية الخشبية. كانت كاري قد غادرت الغرفة. سمعتها وهي تعبر الصالون مزحزحة معها كرسيّ إيمز الذي كان يقبع إزاء الجدار الزجاجي العملاق.

– ستّة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة...

كان الطقس جميلًا. وكان تفكيري يشرد، هنا وهناك، تحملني النوتات العذبة الصادحة من الصالون. كان مقطعي المفضّل في المقطوعة. محاورة بين آلتي الكورنو الإنكليزي والبيانو.

– أحد عشر، اثنا عشر، ثلاثة عشر، أربعة عشر، خمسة عشر...

جملة موسيقية طويلة، في غاية النقاء، تنساب ولا تكاد تنتهي حتى أنّ البعض أبدع في تشبيهها بقطرات مطر دافئة وهادئة تبعث على الاطمئنان.

– ستّة عشر، سبعة عشر، ثمانية عشر، تسعة عشر، عشرون. هيّا، افتحي عينيك!

.2

فتحتُ عينيّ وهممتُ بمغادرة الغرفة.

– انتبهي! ماما آتية!

لقد دخلتُ في اللعبة. قمت، والضحكة على وجهي، وصرت أتنقّل بالإيقاع الذي تتوقّعه طفلتي منّي. طفت غرف البيت فيما تعليقاتي الممازحة ترافق كلّ محاولة أقوم بها:

– كاري ليست تحت الأغطية... كاري ليست وراء الأريكة...

يزعم المعالجون النفسيون أنّ للعبة الغمّيضة فوائد تربوية جلية: فهي وسيلة يختبر من خلالها الطفل الانفصال بشكل إيجابي. فهو يشعر، عبر تكرار هذا التباعد الموقّت والمختلق، بقوّة الرابط الذي يوحّده بوالديه. ولمضاعفة تأثيرات اللعبة، ينبغي أن تتحوّل دراما حقيقية تدغدغ في وقت قصير جدًّا مختلف المشاعر من إثارة وترقّب إلى ملمح خوف، قبل أن تطلق العنان لفرحة التلاقي من جديد.

ولكي تتكشّف كلّ تلك المشاعر، يجب تمديد المتعة والحرص على إطالة التشويق ما أمكن. كنت في طبيعة الحال، في معظم الأوقات، أعرف أين كانت كاري تختبئ حتى قبل أن أفتح عينيّ. لكن ليس هذه المرّة. بعد دقيقتين أو ثلاث من الأداء المسرحي، قرّرت التوقّف عن التظاهر وشرعت في البحث عنها. فعليًا.

رغم أنّ شقّتي شاسعة – عبارة عن مكعّب زجاجي كبير في مساحة مئتي متر مربّع يقع في الركن الغربي من البناء – إلّا أنّ احتمالات الاختباء فيها محدودة. كنت قد اشتريتها قبل بضعة أشهر وأنفقت عليها كلّ عائداتي كمؤلّفة. كان برنامج التجديد العقاري قد بدأ في مبنى لانكستر ولم يكن إنهاء الأعمال يلوح في الأفق غير أنّني رصدت الشقّة التي أريد والتي كانت الشقّة الأخيرة المتاحة. سلب المكان عقلي منذ الزيارة الأولى ولكي يصبح ملكي وأنتقل بسرعة للسّكن فيه لم يكن أمامي سوى القبول بدفع رشوة للسمسار. ما كدت أسكن في الشقّة حتى هدمت ما استطعت من جدرانها وقلبتها إلى لوفت بأرضيّة خشبية شقراء عسليّة فيما صمّمت الديكور واخترت الأثاث بروحٍ مينيماليّة. بسبب كلّ المرّات السابقة التي لعبنا فيها، تمرّست كاري في العثور على مخابئ فمرّة تكوّرت بحنكة خلف آلة تجفيف الملابس ومرّة تسلّلت إلى قلب الخزانة التي تحوي المكانس.

متسلّحة بالصبر بالرغم من انزعاجي، ظللت أبحث عنها في كلّ زاوية وكلّ ركن، وراء كلّ قطعة من الفرش، مرّة تلو مرّة كنت مستعجلة إلى درجة أنّني طوّحت المنضدة المصنوعة من خشب البلّوط والتي كنت أحفظ فيها أسطوانات الفينيل وجهاز التسجيل. على وقع الاصطدام، قُذِفَت ذراع المشغّل عن الأسطوانة فانقطعت الموسيقى وساد الصّمت في الغرفة.

في تلك اللحظة بالذات، شعرت بانكماش في معدتي.

– حسنًا يا صغيرتي، لقد ربحتِ. اخرجي من مخبئك الآن!

هرعتُ نحو قاعة الدخول. كان الباب المصفّح موصد بإحكام. المفتاح أُدخل في القفل العلوي وعُلّق في حلقة للمفاتيح، بعيدًا عن متناول أيّ طفل.

– كاري! اخرجي من مخبئك، قلت لكِ، لقد ربحتِ!

كنت أحاول بكلّ ما أوتيت من منطق أن أكبح موجات الذعر التي بدأت تتدفّق في جسدي. كانت كاري حتمًا في المنزل. وكان وجود المفاتيح في الباب، والتي تعمل كحاجز لأسطوانة القفل، تحول دون إمكان فتحه من الخارج ولو كان لدى الشخص نسخة مزدوجة. أمّا النوافذ، ومنذ إعادة تجديد البناء، فكانت قطعًا محكمة الإغلاق. كاري ليست وحدها من لا يستطيع مغادرة المنزل بل من المستحيل لأحد أن يدخله أيضًا.

– كاري! قولي لي أين أنتِ.

كنت ألهث كما لو أنّني عبرت توًّا نصف سنترال بارك ركضًا. بالرغم من أنّني كنت أفتح فمي لأتنفّس، لم يعد الهواء يبلغ رئتيّ. إنّه لأمر مستحيل. من غير الممكن أن يختفي المرء في شقّة وهو يلعب الغمّيضة. هي لعبة ذات نهاية مبهجة على الدوام. والاختفاء يمثّل مشهدًا رمزيًّا موقّتًا. لا يمكن أن يكون غير ذلك. هذا من صلب اللعبة: لم نكن لنلعب لو لم نكن متيقّنين من إيجاد الآخر.

– كاري، هذا يكفي! ماما ليست مسرورة!

ماما لم تكن مسرورة، لكنّها، قبل أيّ شيء، مرتعبة. كنت مرّة ثالثة أو رابعة أدقّق في أماكن الاختباء المعتادة، ثمّ أتّجه نحو الأماكن المستبعدة: حوض الغسّالة، مجرى المدخنة – المسدود منذ فترة طويلة. أزيح البرّاد الضخم، حتى أنّني فصلت القاطع الكهربائي وفتحت صندوق السقف المزدوج الذي يحوي أنابيب المكيّف.

– كاريييي!

دوّى صراخي في أرجاء الشقّة حتى اهتزّت النوافذ. لكنّ الصدى ضاع وخيّم الصمت من جديد. في الخارج، اختفت الشمس. الجوّ أصبح باردًا. كما لو أنّ الشتاء قد هجم من دون سابق إنذار.

تسمّرتُ مكاني هنيهة، يتصبّب منّي العرق والدمع ينهمر على خدّي. وبينما أنا أحاول استعادة أنفاسي، لمحت أحد الخفّين الزهريين في رواق المدخل. التقطتُ الخفّ المخملي الصغير ذا اللون الزهري الفاتح. كان للقدم اليسرى. بحثتُ عن الخفّ الآخر، لكن يبدو أنّه قد اختفى أيضًا. عند ذاك قرّرت الاتّصال بالشرطة.

.3

الشرطي الأوّل الذي ظهر أمامي كان المحقّق مارك روتيللي من مخفر الشرطة الرقم 90، مركز الخدمة للمنطقة الشمالية لويليامسبورغ. كان يبدو على مشارف سنّ التقاعد. وبالرغم من هيئته المتعبة والجيوب التي تجمّعت تحت عينيه، أدرك فورًا خطورة الموقف وراح يبذل قصارى جهده. بعد معاينة جديدة ودقيقة للشقّة، طلب إرسال وحدات إضافية لتفتيش المبنى، واستدعى فرقة من الشرطة العلمية، ثمّ أوفد رجلين للتحقيق مع القاطنين في لانكستر وعاين بنفسه كاميرات المراقبة مع فريق الحراسة.

كان قد اقتنع لحظة وصوله وتأكّده من فقدان الخفّ بمحاولة تفعيل نظام «إنذار اختطاف»، بيد أنّ شرطة المقاطعة رغبت في جمع أدلّة إضافية ملموسة قبل الموافقة على ذلك.

كان الوقت ينفد والوسواس ينهشني. كنت تائهة تمامًا، عاجزة عن تقديم المساعدة رغم أنّني كدت أُجنّ لأفعل ذلك. تركت رسالة صوتية لمحرّرتي في جهاز الردّ الآلي: «فانتين، أحتاج إلى مساعدتك،

لقد اختفت كاري، الشرطة هنا، لا أعلم ما أفعل، سأموت من القلق، اتّصلي بي الآن».

ها قد خيّم الليل على بروكلين. كاري لم تظهر بعد والتحقيقات التي أجرتها شرطة نيويورك لم تفضِ إلى أيّ نتيجة حتى الآن. كأنّ طفلتي قد تبخّرت، كأنّ ملك العفاريت[1] السفّاح قد اختطفها في ليل حالك، في لحظة لم أكن متيقّظة.

في الثامنة مساء، حضرت رئيسة روتيللي، الملازم فرانسيس ريشارد، إلى فناء مبنى لانكستر حيث دُعيت إلى النزول بينما كانت فرقة تفتّش غرفة التخزين التابعة للشقّة.

– لقد وضعنا خطّك الهاتفي تحت المراقبة، أعلمتني وهي ترفع ياقة معطفها.

كان الشارع مطوّقًا وهواءٌ جليديٌ يسري في شارع بيري.

– ليس من المستبعد أن يسعى من اختطف ابنتك إلى التواصل معك طلبًا لفدية أو لأيّ سبب آخر. لكن في الوقت الحالي عليك مرافقتنا إلى مركز الشرطة.

– لماذا؟ لمَ تعتقدون أنّها اختُطفت؟ كان الباب...

– هذا ما نرمي إلى اكتشافه، سيّدتي.

رفعت رأسي نحو ظلّ الكتلة الضخمة للبناء. ظلٌّ ثقيل يتكسّر في أجزاء الأسود المضيئة. شيء ما يهمس لي بأنّ كاري لا تزال في قلب العمارة وبأنّني أرتكب خطأً فادحًا بالابتعاد. بحثًا عن بعض الدّعم، رمقت روتيللي بنظرة غير أنّه تحيّز لرئيسته:

– اتبعينا، سيّدتي. عليك الإجابة عن بعض الأسئلة بشكل أدقّ.

[1] عنوان قصيدة للشاعر الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته يصوّر فيها وفاة صبي على يد كائن خارق للطبيعة.

مقتطف من استجواب السيّدة فلورا كونواي

أجري الاستجواب نهار الإثنين 12 أبريل 2010 بإشراف كلّ من المحقّق مارك روتيللي والملازم فرانسيس ريشارد، في مكاتب مخفر الشرطة الرقم 90، جادّة يونيون 211، بروكلين، نيويورك 11211.

الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة عشرة مساء

الملازم ريشارد (وهي تعيد قراءة ملاحظاتها): قلتِ لنا أنّ والد كاري يُدعى روميو فيليبو بيرغومي ويعمل راقصًا في أوبرا باريس، أليس كذلك؟

فلورا كونواي: راقص coryphée.

المحقّق روتيللي: أوضحي من فضلك.

فلورا كونواي: في التسلسل الهرمي للأوبرا، يأتي بالتراتب الـ Danseur étoile، ثمّ الـ Premier danseur، فالـ sujet وبعده الـ coryphée.

الملازم ريشارد: تقصدين أنّه فاشل؟

فلورا كونواي: كلّا، كنت أجيب فقط عن السؤال.

الملازم ريشارد: عمر السيّد بيرغومي ستّة وعشرون عامًا، صحيح؟

فلورا كونواي: أتصوّر أنّكم تحقّقتم من الأمر.
المحقّق روتيللي: بالفعل، اتّصلنا به، الأمر الذي كان يجب عليكِ أنت فعله. بدا قلقًا للغاية. ركب طائرة بشكل طارئ وسوف يحطّ في نيويورك صبيحة غد.
فلورا كونواي: هذه سابقة فعلًا. فهو لم يبد اهتمامًا حقيقيًّا بابنته من قبل.
المحقّق روتيللي: هل أنت مستاءة منه؟
فلورا كونواي: أبدًا، يناسبني الأمر تمامًا.
المحقّق روتيللي: هل تعتقدين أنّ السيّد بيرغومي أو مقربّين منه قد يتعرّضون لكاري؟
فلورا كونواي: لا أظنّ ذلك، لكن لا يمكن أن أجزم. فأنا لا أعرفه حقّ المعرفة.
الملازم ريشارد: لا تعرفين والد طفلتك؟

الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرون مساء
المحقّق روتيللي: هل لديكِ أعداء، سيّدة كونواي؟
فلورا كونواي: ليس على حدّ علمي.
المحقّق روتيللي: من المحتمل أن يكون لك خصوم إذًا. مَن قد يكنّ الضغينة لروائية شهيرة كحضرتك؟ قد يكون بعض الزملاء الأقلّ حظًّا؟
فلورا كونواي: ليس لديّ «زملاء». أنا لا أعمل في مصنع أو في مكتب.
المحقّق روتيللي: حسنًا، تفهمين ما قصدت. فقد قلّت نسبة الأشخاص الذين يقرأون، لا؟ إذًا، لا بدّ للمنافسة أن تحتدم، ما قد يخلق بعض التوتّر بينكم، بعض الغيرة...
فلورا كونواي: ربّما، لكن ليس إلى حدّ يصل إلى اختطاف طفل.
الملازم ريشارد: أيّ نوع من الروايات تكتبين؟

فلورا كونواي: ليست من النوع الذي تقرأينه حضرتك.

المحقّق روتيللي: ومن جانب القرّاء؟ أرصدتِ أيّ معجب غريب الأطوار على غرار رواية الرعب «بؤس» للكاتب ستيفن كينغ؟ هل تلقّيتِ رسائل بريدية أو إلكترونية من أحد القرّاء المتطفّلين؟

فلورا كونواي: لا أقرأ مراسلات القرّاء، ولكن أظنّ أنّ محرّرتي تفعل ذلك، اسألوها.

المحقّق روتيللي: لمَ لا تقرأين رسائلهم؟ ألا يهمّك معرفة آرائهم في كتبك؟

فلورا كونواي: كلّا.

الملازم ريشارد: لماذا؟

فلورا كونواي: لأنّ القراء يقرأون الكتاب الذي يريدون قراءته، لا الكتاب الذي نكتبه.

الساعة الثامنة والدقيقة التاسعة والعشرون مساء

المحقّق روتيللي: هل الكتابة عمل مربح؟

فلورا كونواي: بنسبٍ متفاوتة.

المحقّق روتيللي: لأنّنا تحقّقنا من حساباتك المصرفية ولا يمكن القول أنّك تسبحين في الأموال...

فلورا كونواي: استثمرت أرباحي كافّة كمؤلّفة لشراء الشقّة التي أعيش فيها وتجديدها.

المحقّق روتيللي: وشقّة كهذه لا بدّ أنّها كلّفت الكثير من المال.

فلورا كونواي: كان الأمر في غاية الأهمّيّة بالنسبة إليّ.

الملازم ريشارد: أيّ أمر؟

فلورا كونواي: أن يكون لي جدران تحميني.

المحقّق روتيللي: تحميكِ ممّن؟

الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة والثلاثون مساء

الملازم ريشارد (وهي تلوّح ببرقية لوكالة فرانس برس أمام عينيها): أرى أنّ الصحافة كتبت عنك. ليس الوقت المناسب أعرف ولكن تهانيّ على جائزة كافكا.

فلورا كونواي: بالفعل ليس الوقت مناسبًا...

الملازم ريشارد: إذًا لم تذهبي إلى براغ لتلقّي الجائزة لأنّك، وبحسب البرقية، تعانين «الرهاب الاجتماعي»، صحيح؟

فلورا كونواي: ...

المحقّق روتيللي: هل هذا صحيح، سيّدة كونواي؟

فلورا كونواي: حبّذا لو أعرف ما يدور في رؤوسكم كي تضيعوا الوقت في أسئلة كهذه بدلًا من...

الملازم ريشارد: أين كنتِ ليلة البارحة؟ هل كنتِ في الشقّة مع ابنتك؟

فلورا كونواي: لقد خرجت البارحة مساء.

الملازم ريشارد: إلى أين؟

فلورا كونواي: إلى بوشويك.

المحقّق روتيللي: بوشويك حيّ شاسع.

فلورا كونواي: إلى حانة «بومرنغ» في شارع فريديريك.

الملازم ريشارد: أليس من الغريب أن يرتاد من يعاني الرهاب الاجتماعي حانة؟

فلورا كونواي: حسنًا، إنّ مهزلة الرهاب الاجتماعي هذه هي قصّة اخترعتها فانتين، محرّرتي، لتوفّر عليّ مقابلة الصحافيين والقرّاء.

المحقّق روتيللي: لمَ ترفضين مقابلتهم؟

فلورا كونواي: لأنّ هذا ليس عملي.

المحقّق روتيللي: ما عملك؟

فلورا كونواي: تأليف الكتب، لا بيعها.

الملازم ريشارد: جيّد، لنعد إلى الحانة. من يرعى كاري في العادة عندما تتغيّبين عن المنزل؟

فلورا كونواي: حاضنة في أغلب الأوقات. أو فانتين، إذا تعذّر عليّ إيجاد واحدة.

المحقّق روتيللي: والبارحة مساء عندما قصدتِ «بومرنغ»؟

فلورا كونواي: حاضنة.

المحقّق روتيللي: ما اسمها؟

فلورا كونواي: لا أدري. أتّصل بوكالة تأمين جليسات الأطفال غير أنّها لا ترسل أبدًا الشخص ذاته مرّتين.

الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثون مساء

المحقّق روتيللي: وفي تلك الحانة، «بومرنغ»، ماذا فعلتِ؟

فلورا كونواي: ما يُفعَل عادة في الحانات.

المحقّق روتيللي: هل عاقرتِ الخمر؟

الملازم ريشارد: هل غازلتِ رجالًا؟

فلورا كونواي: هذا جزء من عملي.

المحقّق روتيللي: عملك هو معاقرة الخمر؟

الملازم ريشارد: ومغازلة الرّجال؟

فلورا كونواي: وظيفتي أن أقصد الأماكن لمراقبة الناس، والتحدّث معهم، محاولة الدخول إلى حميميّتهم وتصوّر أسرارهم. فهُم الوقود لكتاباتي.

الملازم ريشارد: هل قابلت أناسًا جددًا مساء البارحة؟

فلورا كونواي: لا أفهم فعلًا كيف أنّ هذا قد...

الملازم ريشارد: هل غادرتِ الحانة مع رجل، سيّدة كونواي؟

فلورا كونواي: نعم.
المحقّق روتيللي: ما كان اسمه؟
فلورا كونواي: حسن.
المحقّق روتيللي: حسن ماذا؟
فلورا كونواي: لا أعرف.
المحقّق روتيللي: أين ذهبتما؟
فلورا كونواي: إلى منزلي.
الملازم ريشارد: هل أقمتما علاقة؟
فلورا كونواي: ...
الملازم ريشارد: سيّدة كونواي، هل أقمت علاقة مع رجل غريب التقيته منذ بضع ساعات، وفي شقّتك حيث تنام ابنتك؟

الساعة الثامنة والدقيقة السادسة والأربعون مساء
المحقّق روتيللي: أريدكِ أن تشاهدي هذا الفيديو بانتباه: هي صور التقطتها بعد ظهر اليوم كاميرا المراقبة المثبّتة في ردهة الطابق السادس من المبنى الذي تقطنينه.
فلورا كونواي: لم أكن أعرف بوجود كاميرا هناك.
الملازم ريشارد: صُوِّتَ على القرار من الجمعية العامّة منذ ستّة أشهر. لقد تعزّز جهاز الأمن في لانكستر منذ أن اشترى أشخاص ميسورون شققًا لإعادة تأهيلها.
فلورا كونواي: أرى أنّكم توجّهون إليّ النقد.
المحقّق روتيللي: تظهر الكاميرا بوضوح مدخل شقّتك. نراكِ هنا وأنت تعودين من المدرسة مع كاري. انظري أسفل الشاشة: إنّها الساعة الثالثة والدقيقة الثالثة والخمسون من بعد الظهر. ثمّ لا شيء. لقد

سرَّعْتُ شريط الفيديو. لم يقترب أحد من باب الشقّة إلى حين وصولي عند الساعة الرابعة والدقيقة الثامنة والخمسين.

فلورا كونواي: هذا ما قلته لكم!

الملازم ريشارد: القصّة ليست منطقية. أظنّ أنّك لا تقولين الحقيقة، سيّدة كونواي. إذا لم يدخل أحد أو يخرج من شقّتك فهذا يعني أنّ ابنتك ما زالت في الداخل.

فلورا كونواي: إن كان الأمر كذلك، فاعثروا عليها!

[نهضتُ من على الكرسيّ. ها أنا أشاهد انعكاسي في المرآة أمامي: وجهًا شاحبًا، شعرًا أشقر مسرّحًا بشكل كعكة، قميصًا أبيض، بنطالًا من الجينز، سترة جلدية. كنت واقفة، وأردّد لنفسي بأنّ عليّ أن أبقى كذلك].

الملازم ريشارد: تفضّلي بالجلوس، سيّدة كونواي! لم ننته بعد. ما زال لدينا بعض الأسئلة.

[أردّد في ذهني بأنّني سوف أواجه. بأنّني مررت بمحنة من قبل. وبأنّني تخطّيتها. وبأنّني سأستيقظ من هذا الكابوس ذات يوم، ذات نهاية. وبأنّني...].

المحقّق روتيللي: من فضلك، اجلسي، سيّدة كونواي.

الملازم ريشارد: تبًّا، لقد أغمي عليها. لا تقف هكذا، روتيللي! اطلب النجدة. سوف يرتدّ الأمر علينا مرّة أخرى. اللعنة!

2

سلسلة أكاذيب

عندما تخاطبون كتّابًا، لا تنسوا لحظة أنّهم
ليسوا أشخاصًا عاديين.

جوناثان كو

.1

قبل ستّة أشهر، في الثاني عشر من شهر أبريل 2010، كنّا أنا وابنتي كاري كونواي ذات السنوات الثلاث نلعب الغمّيضة في شقّتنا في ويليامسبورغ عندما انتُزِعَت منّي.

بعد أن أغمي عليّ خلال جلسة الاستجواب في مركز الشرطة، استفقت في غرفة في مركز بروكلين الاستشفائي حيث بقيت تحت مراقبة عميلين من المباحث الفدرالية بضع ساعات. كان المكتب الفرعي في نيويورك قد وضع يده على القضيّة. أخبرني أحد العميلين بأنّ فريقًا «يمشّط» الشقّة وبأنّ كاري، إذا كانت لا تزال فيها، فسوف يجدها في النهاية. عانيت استجوابًا ثانيًا وشعرت بهجوم آخر وبوابل

من الأسئلة كما لو كنت أنا السبب. كما لو كنت أملك الجواب عن هذا اللغز: ما الذي أصاب كاري؟

ما كدت أسترجع قواي حتى طلبت مغادرة المستشفى ووجدت ملاذًا عند محرّرتي، فانتين دو فيلات. مكثت عندها أسبوعًا كاملًا إلى أن سُمح لي بالعودة إلى لانكستر.

.2

لم تتقدّم التحقيقات قيد أنملة منذ ذلك اليوم. كنت أمضي أيّامي، شهرًا بعد شهر، في ظلمة العقاقير. أترقّب بيأسٍ ما قد يحدث: دليلًا من هنا، توقيف مشتبه به من هناك، أو حتى طلب فدية. لا بل كنت أتوقّع أيضًا زيارة شرطي يخبرني بأنّ جثّة طفلتي قد وُجدت. أيّ شيء عوضًا عن هذا الانتظار العقيم. أيّ شيء عوضًا عن هذا الفراغ.

في أسفل لانكستر، أيًّا كان الوقت من ليلًا أو نهارًا، هناك كاميرا، ومصوّر فوتوغرافي، ومراسل أو أكثر يمسكون الميكروفونات أمام وجهي. لم تعد تلك الجلبة نفسها في الأيّام الأولى حيث يتربّص العشرات، لكنّها كانت كافية لردعي عن الخروج.

«قضيّة كاري كانواي»، كما أُطلِقَ عليها، تحوّلت خبرًا من فقرة الأخبار المتفرّقة «تستهوي أميركا» إثر التضخيم الإعلامي للقنوات الإخبارية. كانت قد نُشرت العناوين كافّة: «اللغز الجديد للغرفة الصفراء»، «مأساة تليق بهيتشكوك»، «أغاثا كريستي النسخة الثانية»، من دون تلميحات إلى ستيفن كينغ بسبب اسم ابنتي أو النظريات الغبية التي تجتاح موقع ريديت.

بين ليلة وضحاها، نبش أشخاص لم يسمعوا عنّي من قبل، ولم يقرأوا رواية من رواياتي، ولم يفتحوا حتى كتابًا طوال حياتهم، عبارات مبهمة داخل رواياتي السابقة وتحريفها بتركيب فرضيات رعناء.

لقد سلخ الانتهازيون حياتي وحياة مَعارفي بحثًا عن أدلّـة. لأنّني أخيرًا فهمت أنّهم دائمًا ما يتوصّلون إلى النتيجة نفسها: أنا المذنبة الوحيدة في اختفاء ابنتي.

كان هـذا الضجيج الإعلامي من أسوأ الحكّام. فهو لا يراعي دليلًا، ولا اعتبارًا، ولا شبهة. يمضي من دون تقصّي الحقائق بحثًا عن الاستعراض، سالكًا طريقًا مختصرًا، مرتكزًا على القصص، متغذّيًا على إغواء الصور المتاحة وعلى تقاعس الصحافة وقرّائها الهاجعين المستعبدين لنقرة زرّ. ليس اختفاء ابنتي والكارثة التي تتأكّلني سوى عرض ترفيهي لهم وأداة للتهكّم والاستهزاء. وبصراحة، تبيّن لي أنّ هذا السلوك هو أبعد ما يكون حكرًا على الأوساط الهابطة أو الشعبية. فوسائل إعلامية أخرى، بجدّيتها المفترضة، تسترسل لتلك اللذة ويروقها بقدر ما يروق لآخرين التمرّغ في الطين، من دون اعترافها بذلك فعلًا. من دون خجل، تتلحّف شهوتها بالتلصّص بثوب «التحقيق»، الكلمة السحر التي تسوّغ افتتانها المرضي ومضايقاتها.

تأسرني مطارداتهم فأغور طيلة النهار في صندوقي الزجاجي في الطابق السادس. كانت فانتين قد عرضت عليّ مرّات عدّة الانتقال إلى منزلها لكنّني كنت دائمًا أقنع نفسي بأنّه إذا عادت كاري فستأتي إلى هنا، إلى بيتنا، إلى شقّتنا.

كان الترّاس على سطح البناية منفذي الوحيد، وهو ملعب بادمنتون سابق يطوّقه قصب الخيزران ويطلّ على مناظر بانورامية لأفق مانهاتن وبروكلين بزاوية 360 درجـة. كانت المدينة تبدو نائية وقريبة في آن بتفاصيلها كافّة: قنوات الصرف الصحّي التي تقذف بخارها من كلّ صوب، الانعكاسات المتموّجة على زجاج البنايات، سلالم الطوارئ الحديدية التي تتشبّث بواجهات الحجر الرّملي الأحمر.

كنت أصعد إلى هناك مرّات عدّة في اليوم بهدف أن أتنفّس. وأحيانًا أتسلّق السلّم الحديدي في اتّجاه خزّان المياه الذي يغذّي بناء لانكستر. المنظر من هنا يسبّب الدوار. السماء والفراغ يتنازعان للفت الانتباه. أخفض عينيّ فأحسّ بإغراء تلك القفزة التي تذكّرني بأنّني طوال فترة وجودي لم أقدر يومًا على نسج روابط عائلية أو ودّية مع أحد.

كانت كاري صلة الوصل الوحيدة لي مع العالم. وفي حال لم يُعثر عليها، أعرف أنّني سأقفز يومًا في هذا الفراغ. هذا مكتوب في صفحة ما من كتاب الأزمنة. وكلّ يوم، أصعد إلى القصر المائي لمعرفة ما إذا جاء ذلك الموعد. حتى هذه اللحظة، ما زال خيط الأمل الرفيع يردعني عن ذلك، لكنّ الغياب يطول وأخاف ألّا أصمد وقتًا أطول. كانت أكثر الأفكار تطرّفًا تتخبّط في رأسي. لم تكد تمرّ ليلة واحدة من دون أن أستيقظ فجأة والعرق يتصبّب منّي، كنت كأنّني أختنق، يرتجف قلبي وينزلق كدرّاجة هوائية انحرفت عن مسارها. في ذاكرتي، بدأت صور كاري تتلاشى. أشعر بأنّها تفلت منّي. بات وجهها أقلّ وضوحًا، وبتّ أعجز عن استرجاع تقاسيمه بدقّة ونظرتها الحادّة ونبرات صوتها. ما السبب؟ أهو الكحول؟ أهو المهدّئات؟ أهو مضادّات الاكتئاب؟ لا يهمّ. كنت كأنّني أضيعها مرّة ثانية.

أمّا أن يكون مارك روتيللي الشخص الوحيد الذي يقلق عليّ فهذا ما يدعو إلى الدهشة. لقد تقاعد منذ ثلاثة أشهر لكنّه ما زال يزورني أقلّه مرّة في الأسبوع ليطلعني على آخر مستجدّات التحقيق الذي وصل إلى نقطة الجمود.

ثمّ هناك، محرّرتي، فانتين.

.3

– إنّني أصرّ، فلورا. عليكِ مغادرة هذا المكان مهما كلّف الأمر.

إنّها الرابعة من بعد الظهر. تجلس فانتين دو فيلات على أحد مقاعد التابوريه العالية في المطبخ وبيدها كوب من الشاي، تحاول في المرّة الألف إقناعي بالانتقال من هنا.

– لن تتمكّني من إعادة ترميم نفسك إلّا في مكان آخر.

كانت تلبس فستانًا متقاطعًا عند الصدر طُبعت عليه نقشات الزهور مع سترة جلدية سوداء وتنتعل جزمة من الجلد البنّي المحمرّ كعبها عالٍ. أمّا شعرها الذي يبدو متلألئًا بلون الماهوغني فقد سرحّته على شكل كعكة بواسطة مشبك كبير مزخرف باللؤلؤ فعكس توهّج أشعّة الشمس الخريفية.

كنت كلّما نظرت إليها شعرت بأنّني أشاهد نفسي في المرآة. في سنوات قليلة، أدّى نجاح دار النشر بتغيير فانتين. فبعد أن كانت في الماضي ذات شخصية خجول ومنطوية، باتت تتمتّع بثقة عالية في النفس وجاذبيّة ملحوظة. أصبحت الآن تدير المحادثات فتتكلّم أكثر ممّا تنصت ولا تكاد تتحمّل أن يعارضها أحد. لمسات بسيطة كانت كافية لأن تحوّلها نسخةً منّي. كانت تلبس مثلي، وتعتمد حركاتي ودعاباتي وتعابيري وحتى طريقتي في رفع خصلة شعر عن وجهي. حصلت أيضًا على وشم رصين لشريط موبيوس في الجانب الأيمن من عنقها، في مكان وشمي نفسه. كانت كلّما ذبلت تفتّحت، وكلّما انطفأت توهّجت.

كنت قد التقيت فانتين أوّل مرّة في باريس قبل سبع سنوات في حدائق فندق سالومون دي روتشيلد خلال حفل إطلاق رواية جديدة في فرنسا لإحدى نجمات الأدب الأميركي.

في ذلك الوقت، غادرت نيويورك بضعة أشهر كي أتسكّع في أوروبا وكنت أدفع مصاريف الرحلة من خلال العمل في مهمّات مختلفة. في ذلك المساء، كنت أقدّم كؤوس الشامبانيا للمدعوّين. كانت فانتين وقتذاك مساعدة لمساعدة المحرّرة الأدبية في دار نشر مرموقة. بمعنى آخر، لا أحد. لم تكن تلفت النظر إلى درجة أنّ الناس كانوا يصطدمون بها من دون رؤيتها. كانت شفّافة كالسيلوفان، تعتذر لأنّها تعيش ولا تدري ما تفعل بجسدها ونظراتها.

كنت أنا الوحيدة التي تراها. لأنّني كنت روائية بالفطرة. لأنّ مهارتي تكمن هنا، موهبتي الوحيدة ربّما، أو بالأحرى ما أتقن فعله أكثر من الآخرين: التقاط الأشياء التي يجهلها الأشخاص في شخصياتهم. ونظرًا إلى كونها تتكلّم لغتين، فقد تبادلنا بعض الكلمات. تفاجأتُ بتضارب المشاعر لديها: كانت تتقزّز من المجال الذي تتطوّر فيه فيما تشعر بغضب شديد لأنّها جزء منه. أعترف بأنّها رصدت أيضًا شيئًا ما في داخلي، وكان يساورني شعور جيّد برفقتها. شعور كان كافيًا لأخبرها بأنّني أنهي كتابة روايتي، «فتاة المتاهة»، التي تصوّر تحرّكات عدد من سكّان نيويورك يتلاقون جميعًا في حانة في شارع بويري في 10 أيلول/سبتمبر 2011.

– لابيرينت (المتاهة)، هو اسم الحانة، شرحتُ لها.

– عديني بأنّني سوف أكون أوّل من يحصل على الرواية!

لم تمرّ أسابيع قليلة حتى بعثت لها بواسطة البريد الرواية في شكل مخطوط والتي كنت قد أنجزتها مع عودتي من نيويورك. انقضت عشرة أيّام ولم أتلقَّ أيّ خبر أو إشعار بالاستلام. وفجأة، ذات يومٍ من أيلول/سبتمبر، بعد الظهر، قرعت فانتين باب شقّتي. كنت حينذاك أسكن في استوديو صغير في هيلز كيتشن، في بناء متخلخل في الجادّة 11 لكن يحفل بمطلّ فاتن على مدينة هدسن وشواطئ

نيو جيرسي. مظهر فانتين ذلك اليوم لا يفارق خيالي: كانت ترتدي معطفًا باللون البيج، وتضع نظّارة تبدو فيها فتاة صغيرة لطيفة فيما تحمل حقيبة كأنّها موظّفة في بنك. أخبرتني من دون مقدّمات بأنّ روايتي أعجبتها وبأنّها ترغب في نشرها، لا في دار النشر التي تعمل فيها بل أرادت إنشاء دار نشر خاصّة بها خصّيصًا للكشف عن روايتي. ما إن أعلمتُها بشكوكي حتى أخرجت من حقيبتها ملفًّا لطلب قرض مصرفي مصدّق وقالت لي: «لديّ المال لإطلاق مشروعي الخاصّ، فلورا، ونصّك هو ما أعطاني القوّة»، ثمّ أضافت والبريق يملأ عينيها: «ثقي فيّ وسوف أحارب إلى آخر رمق من أجل روايتك». ولأنّني كنت أشعر بأنّ روايتي هي أنا، فقد سمعت: «سوف أحارب إلى آخر رمق من أجلكِ أنتِ». كانت المرّة الأولى التي يقول لي أحد ذلك ولمّا أحسست بصدقها تنازلتُ لها عن الحقوق العالمية لروايتي.

وفت فانتين بوعدها وحاربت بكلّ جوارحها لحماية روايتي. ولم يكد يمرّ شهر واحد حتى تخلّيت عن حقوق «فتاة المتاهة» في أكثر من عشرين بلدًا. صدرت الرواية في الولايات المتّحدة الأميركية عن دار النشر «كنوف» مع تعريف للكتاب من الروائي ماريو فارغاس يوسا الذي أكّد أنّ الرواية «محاكة بالنسيج نفسه» لرائعته «محادثة في الكاتدرائية». أمّا الناقدة الشهيرة ميتشيكو كاكوتاني من صحيفة نيويورك تايمز والتي يهابها الجميع فقد اعتبرت أنّ الرواية حملت «كتابة قاسية وجريئة» وبأنّها «تعرض شظايا حياة فترسم صورة مؤثّرة لعالم يضمحلّ».

وشُغّلَت الآلة. كان الجميع يقرأون «فتاة المتاهة». لا للأسباب الموجبة بالضرورة، وأحيانًا من دون الاكتراث فعلًا للكتاب. ولكن هكذا، وفق الآلية الطبيعية للنجاح.

الخطوة العبقرية الأخرى لفانتين كانت قلّة ظهوري الإعلامي. فبدل من أن تشتكي من عدم استعدادي للظهور في العلن، حوّلت ذلك أداةً تسويقية ونشرت صورة واحدة فقط لي – لقطة بالأبيض والأسود تحمل من الغموض ما يجعلني أبدو كفيرونيكا لاك. كانت تُجرَى معي مقابلات عبر البريد الإلكتروني من صحافيين لم يسبق لي أن التقيتهم، وكنت أتملّص من حفلات التوقيع في متاجر بيع الكتب أو أتهرّب من المؤتمرات في الكلّيات والمكتبات. وفي وقت كان الكثير من الكتّاب يعرضون حياتهم الخاصّة أو يخوضون غمار المناقشات التي لا تنتهي في شبكات التواصل، كان هذا الزهد الإعلامي يميّزني. في كلّ المقالات الصحافية، كنت فلورا كونواي «الكتوم» أو «الغامضة»، الأمر الذي كان يناسبني تمامًا.

كتبتُ رواية ثانية ثمّ ثالثة أثمرت جائزة أدبية. وبفضل هذا النجاح، اكتسبت دار النشر فانتين دو فيلات، ومركزها باريس، صدقية دولية. وأصدرت فانتين لكتّاب آخرين. بعضهم من حاول الكتابة على طريقة فلورا كونواي وبعضهم من ابتعد كلّيًا عن طريقة فلورا كونواي، لكنّ الجميع كان يوطّد مكانته انطلاقًا منّي. الأمر الذي كان يناسبني تمامًا أيضًا. في باريس، كانت منطقة سان جيرمان دي بري بأكملها تعشق «فانتين». فانتين التي تصدر «الأدب الرفيع»، فانتين التي تصون حقوق المكتبات الصغيرة، فانتين التي تدافع عن الكتّاب، فانتين، فانتين، فانتين...

وهنا كان يكمن خلافنا. فقد كانت فانتين تعتقد حقًّا بأنّها «اكتشفتني». حتى أنّها كانت أحيانًا تتحدّث عن «كتبنا» كلّما ذكرت رواياتي. أظنّ أنّنا عاجلًا أم آجلًا لا بدّ أن نبلغ هذا الحدّ مع الناشرين. لكن فلنكن صريحين، من دفع ثمن شقّتها في سان جيرمان دي بري؟ وبيتها الريفي في كيب كود؟ وإيجار شقّتها في سوهو؟

عندما حملتُ بكاري بدت لي الحياة أوّل مرّة أكثر إثارة من الكتابة. واستمرّ هذا الانطباع إلى ما بعد ولادتها. أصبحت «الحياة الحقيقية» تلتهمني أكثر إذ صار عندي دور ناجع أمثّله ولم أعد بحاجة إلى أن أنحرف عن الواقع.

مع احتفال كاري بعيد ميلادها الأوّل، أعلمتني فانتين بقلقها المتزايد حول التقدّم الذي أحرزه في كتابة نصّي التالي. فأوحيت لها بأن ليس فقط لن تكون هناك روايات أخرى بل إنّني سوف آخذ استراحة طويلة.

– لن تفرّطي في موهبتك بسبب طفلة صغيرة! قالت فاقدة أعصابها.

أخبرتها بأنّ قراري قد اتُّخذ. وبأنّ أولوياتي في الحياة قد تغيّرت. وبأنّني سوف أحوّل طاقتي إلى ابنتي بدلًا من كتبي.

وهذا ما لم تستطع فانتين تحمّله.

.4

– لكي تخرجي من هذا النفق المظلم، عليكِ العودة إلى الكتابة.

حطّت فانتين كوب الشاي على الطاولة وبحركة سريعة من كتفيها بدأت تبرير كلامها:

– في أحشائك ثلاث أو أربع روايات ضخمة. أنا هنا لأساعدك على ولادتها.

كانت منذ زمن قد طوت صفحة اختفاء كاري غير مبالية بعذابي، من دون أن تكلّف نفسها حتى التظاهر.

– كيف تريدين أن أكتب؟ لست سوى جرح لا يندمل. أستيقظ كلّ صباح ورغبة الانتحار لا تفارقني.

هربتُ إلى الصالون لكنّها سرعان ما لحقت بي.

– بالضبط، يجب أن تكتبي عن هذا. هناك الكثير من الفنّانين ممّن فقدوا أطفالًا ومع ذلك لم يتوقّفوا عن الإبداع.

هي لا تفهم. خسارة طفل ليست تلك المعاناة التي يمكن المرء النظر إليها كمحنة قادرة على أن تجعله أقوى عند تجاوزها. هو عذاب يشطرنا نصفين. عذاب يطرحنا على أرض المعركة مجرّدين من كلّ أمل قد يساعد على التئام جراحنا يومًا. وبما أنّني أعرف أنّها لا تريد أن تسمع هذا فضّلتُ اختصار الحديث:

– ليس لديك أطفال وبالتالي لا يحقّ لك أن تتكلّمي.

– هذا ما أردت قوله، يهمّني ما تتكلّمين أنتِ عنه لا أنا. أعمال مختلفة كُتبت روائعها تحت وطأة الألم.

تعاكسها الشمس فتبيّن تقطيعات قامتها على الواجهة الزجاجية فيما تبدأ التعداد:

– كتب هوغو «غدًا عند الفجر» بعد وقت قليل من موت ابنته، وأبدعت دوراس رواية «الألم» من خلال مذكّراتها التي صبغتها بسَواد الحرب، وألّف ستايرون «ظلام مرئي» بعدما سقط في قبضة الاكتئاب مدّة خمس سنوات، أمّا...

– توقفي!

– كانت الكتابة خشبة الخلاص لكِ، أخذت تناقشني. لولا رواياتك، لكنتِ ما زلت تقدّمين المشروب للسّكارى في «لابيرينت» أو غيرها. لكنتِ ما زلت المرأة نفسها التي جاءت للبحث عنّي: فتاة تائهة، متسكّعة...

– لا تعيدي كتابة التاريخ، أنتِ من جاءت تبحث عنّي!

أعرف هذا الأسلوب: فهي توجّه لي الضربات لتحرّك المشاعر التي تقبع في داخلي. لقد نجحَت في ذلك فترة من الوقت، أمّا اليوم فكلامها لم يعد يهزّني.

– فلورا، أصغي إليّ. أنتِ اليوم ما أردتِ دومًا أن تكوني. تذكّري، لمّا كنتِ في الرابعة عشرة من عمرك وكنت تقصدين المكتبة العامّة في كارديف لقراءة كتب جورج إليوت وكاثرين مانسفيلد. كان حلمك أن تصبحي ما أصبحت عليه اليوم: الروائية الغامضة فلورا كونواي التي يترقّب القرّاء روايتها التالية في العالم أجمع.

استنفدَت كلّ قواي، فتهالكتُ على الكنبة. واقفة أمام مكتبتي، راحت فانتين تنبش بين الرّفوف لتجد أخيرًا ما كانت تبحث عنه: نسخة قديمة من مجلّة نيويوركر تتضمّن إحدى مقابلاتي.

– تكرّرين ذلك بنفسك طوال المقابلة: «في إمكان القصّة الخيالية أن تدحر الشقاء. لو لم أختلق عالمًا لي لكنت أُفنِيتُ حتمًا في عالم الآخرين».

– لقد اقتبستها من يوميات أنابيس نين.

– لا يهمّ. طوعًا أو كرهًا، سوف تعودين للكتابة. لأنّه لا يمكنك الاستغناء عنها. سوف تغوصين في عادتك مجدّدًا وعمّا قريب: تغلقين الستائر، تشغّلين المكيّف حتى تتحوّل الغرفة ثلّاجة، تستمعين إلى أسطوانات الجاز المتعفّنة، تعودين إلى التدخين بإفراط و...

– لا.

– لكنّ الأمور لا تسير على هذا النّحو، فلورا. فالروايات هي التي تقرّر ما إذا كان عليك كتابتها لا العكس.

أحيانًا أشعر بأنّ فانتين لا وجود لها بالفعل وبأنّها مجرّد صوت في داخلي. تارة تكون جيميني كريكت[1] وتارة أخرى تتحوّل السيّدةَ

[1] جيميني كريكت هو شخصية في الأسطورة الإيطالية «بينوكيو» وهو الضمير لبينوكيو.

هايد[2]، وطورًا تتطاير في زوبعة من الأفكار الاستفزازية أو المتضاربة.

ولمّا لم أظهر أيّ ردّ فعل، حاولت شنّ هجوم جديد عليّ:

– الألم هو الوقود المفضّل للكاتب. ربّما ستقولين لنفسك يومًا أنّ اختفاء كاري كان فرصة.

تجاهلتُ ما قالت. فأنا الآن منطفئة ولم أعد حتى أستشعر الغضب. قلت فقط ما استطعت قوله:

– أريدك أن تذهبي.

– سوف أذهب ولكن لديّ أوّلًا مفاجأة لك.

أخرجت من حقيبتها الجلدية الضخمة علبة، فقلتُ لها:

– يمكنك الاحتفاظ بها. لا أحبّ مفاجآتك.

متجاهلة كلامي، وضعت هديّتها على طاولة الصالون.

– ما هذا؟

– بداية الحلّ، ردّت قبل أن تغادر الغرفة وتصفق الباب وراءها.

[2] من رواية «الدكتور جيكل ومستر هايد» للمؤلف الاسكتلندي الشهير روبرت لويس ستيفنسون التي تصوّر حالة نفسية نادرة حيث داخل الشخص الواحد أكثر من شخصية مختلفة.

3

الطابق السادس والثلاثون تحت الأرض

غذّوا في دواخلكم نشوة الكتابة، فلا تغلبكم
قوى الواقع المدمّرة.

راي برادبري

.1

المشكلة الآن، بعد أن زرعت فانتين في رأسي فكرة التدخين الملعونة تلك، أنّي بتّ أشعر برغبة جامحة في أن أشعل سيجارة. وجدتُ في المطبخ علبة مفتوحة كنت قد أخفيتها فوق أحد الرفوف للحظات كهذه.

أشعلت السيجارة ونفثت مرتبكة ثلاث نفثات قبل أن أتقدّم من المنضدة لمعاينة «هديّة» فانتين – التي تخيّلتها مسمومة. كانت عبارة عن علبة مربّعة من الخشب البنّي ذات ارتفاع يبلغ عشرات السنتيمترات. تتلاعب على سطحها اللامع والمنقّط انعكاسات حمراء غير متّسقة تشبه جلد الأفعى. كنت قد استنتجت ما في داخلها قبل أن أفتحها: قلم حبر من ماركة عالمية. كانت لدى فانتين رؤية

رومانسية للكتابة إذ كانت تفترض أنّني أكتب مسوّداتي بريشات كاران داش السويسرية على دفاتر مولسكين الإيطالية أبتاعها من كريستوفر ستريت. فكانت تقدّم لي في أغلب الأحيان أقلامًا باهظة الثمن كلّما أرادت الاحتفال بصدور كتاب أو ترجمة جديدة.

لا يا عزيزتي، الأمور لا تسير على هذا النحو.

إذا كنتُ، قبل أن أنطلق في كتابة رواية ما، أدوّن مئات الملاحظات، فقد كان ذلك بواسطة أقلام بيك كريستال وعلى دفاتر اشتريتها بـ99 سنتًا من متجر محلّي. فقط في الأفلام والإعلانات يكتب الروائيون بأقلام مون بلان بحجم سواعدهم.

فتحتُ العلبة. كانت تحتوي على قلم حبر فينتاج وقارورة حبر. كان موديل رائعًا من قلم ناميكي من دنهيل يعود ربّما إلى الثلاثينيات، معه ريشة ذهبية ومطلي بالأسود مع زخرفات يابانية من عرق اللؤلؤ وصفائح ذهبية. كانت تتمايل قرب الريشة زخرفات أرابيسك على شكل أمواج فيما تتداخل أغصان أزهار الكرز عند خزّان الحبر. الساكورا اليابانية التي ترمز إلى هشاشة وجودنا.

أخرجتُ القلم من العلبة. كانت قطعة جميلة – لا بل تحفة فنّية – لكن تاريخية. تخيّلت زيلدا فتزجيرالد أو كوليت وهما تكتبان بأداة مماثلة فيما تقضمان قطعة شوكولاته – أو على الأرجح تشربان الجن أو الفودكا. كانت تعلو جسم القلم رافعة لؤلؤية. سحبت الصفيحة وغطّست الريشة في المحبرة لتعبئة الخزّان.

حملتُ قلم الحبر إلى طاولة المطبخ. أقنعت نفسي برهة بأنّني سأحضّر الشاي لكنّني كنت أعلم جيّدًا أنّني في نهاية المطاف سأفتح زجاجة نبيذ مورسولت من الزجاجات التي تقبع في القبو. سكبت المشروب في الكأس وأخذت أتذوّقه في جرعات صغيرة فيما رحت أفتّش عن دفتر مدرسي كنت بدأت أدوّن فيه – منذ زمن طويل –

وصفات الطبخ. وسرعان ما عثرت عليه بين أواني الفرن فرحت أقلّب صفحاته لألاحظ أنّ مهاراتي المطبخية آنذاك لم تتعدّ وصفة الكريب سوزيت وغراتان البطاطس. نزعتُ غطاء القلم وجرّبت ريشته مخربشة توقيعي على ورقة بيضاء. انزلقت الريشة بخفّة على الورق. كان الخطّ رشيقًا وسلسًا فيما تدفّق الحبر بإيقاع لا بطيء ولا سريع.

2.

«أكره النصوص الأدبية التي هدفها المواساة»، هذا ما كنت أؤكّده دومًا في مقابلاتي. وأضيف أحيانًا: «لم أؤمن يومًا بأنّ للكتابة الأدبية وظيفة إصلاحية أو تصحيحية للعالم. حتى أنّني لا أهدف بكتاباتي إلى أن يشعر قرّائي بحال أفضل بعد قراءتها».

قلتُ ذلك كون هذا ما يتوقّعونه منّي. أو بالأحرى ما يتوقّعونه من شخصية فلورا كونواي التي فبركتُها مع فانتين. ما يتوقّعونه من كاتب يُفترض أنّه جدّي: أن يدافع عن مثالية الكتابة الجمالية والفكرية التي لا هدف لها سوى الشكل. أن يعتنق مقولة أوسكار وايلد: «الكتب إمّا أن تُكتب بشكل جيّد أو بشكل سيّئ... وهذا كلّ ما في الأمر».

في الحقيقة، لم أقصد أيًّا من تلك الكلمات. حتى أنّني كنت أفترض العكس: بأنّ القوّة العظمى للقصّة الخيالية تكمن في القدرة التي تمنحنا إيّاها للانسحاب من واقعنا أو تضميد الجراح التي أصابتنا بسبب العنف المحيط بنا. نظرتُ إلى قلمناميكي. كنت خلال وقت طويل أؤمن إيمانًا قويًّا بأنّ القلم عصا سحرية. بالفعل. وبسذاجة غير زائفة. لأنّ ذلك كان يواتيني. كانت الكلمات كقطع ليغو. أجمعها لأشيّد بأناة عالمًا بديلًا. على طاولتي التي أكتب عليها، كنت ملكة عالمٍ يدور بشكل أو بآخر بحسب رغباتي. كنت أملك حقّ الموت أو

الحياة لشخصياتي. كانت لديّ القدرة على تصفية الأغبياء، العفو عمّن يستحقّ، إصدار الأحكام وفق اعتباراتي الأخلاقية من دون الاضطرار إلى تبريرها. كنت قد أصدرت ثلاثة كتب، وكان لديّ عشرات الأعمال في ذهني تنتظر أن ألدها. كان هذا العدد كافيًا لرسم عالم من الخيال أمضي فيه تقريبًا الوقت نفسه الذي أمضيه في الواقع.

لكنّ هذا العالم بات اليوم صعب المنال. فالعصا السحرية لم تعد سوى قطعة مزيّفة عاجزة أمام غياب طفلة في الثالثة من العمر. لقد استردّ الواقع بألمٍ حقوقه كافّة ليجعلني أدفع ثمن جهودي للتحرّر منه.

سكبت لنفسي كأسًا أخرى، ثمّ أخرى. الكحول والبنزوديازيبينات[1] هي أفضل كوكتيل للانزلاق.

كان اسوداد الإعياء والكرب يغلّفانني. ربّما ستقولين لنفسك يومًا أنّ اختفاء كاري كان فرصة. كان صدى كلمات فانتين الفاحشة يتردّد في ذهني. بعد أن أصبحت وحدي، لم أستطع كبح دموعي. لقد تركت تلك المحادثة آثارها. كيف تجرّأت فانتين على الاعتقاد بأنّني سوف أعود للعمل بتلك البساطة؟ فالمرء يحتاج إلى طاقة غير عادية للكتابة. قوّة جسدية وفكرية. لكنّ قاربي كان مغمورًا بالمياه من كلّ الجهات. كتابة الرواية تتطلّب التعمّق في ذواتنا، في مكان حالك أسمّيه الطابق السادس والثلاثين تحت الأرض. هناك تقطن الأفكار الأكثر جرأة، الانبهارات، روح الشخصيات، شرارة الإبداع. لكنّ الطابق السادس والثلاثين تحت الأرض هو منطقة معادية. كي أواجه حرّاسه وأعود من رحلتي إليه سالمة، كانت تلزمني قدراتٌ لم أعد أمتلكها. لم يعد يرويني سوى ألم بلا نهاية يكوي عروقي من الصباح حتى المساء.

[1] مادّة في الأدوية المضادّة للقلق.

لم أكن قادرة على الكتابة، لم أكن حتى أريد الكتابة. لم أرغب إلّا في شيء واحد: أن أرى ابنتي من جديد. ولو كان ذلك مرّة أخيرة. وهذا ما كتبته، على شكل مانترا، بواسطة قلم الحبر، على دفتر وصفات الطبخ:

أريد رؤية كاري من جديد.
أريد رؤية كاري من جديد.
أريد رؤية كاري من جديد.

سكبت الكأس الأخيرة. الليلة، أكثر من أيّ وقت مضى، أشعر بأنّني عاجزة تمامًا. بأنّني على حافّة الجنون والانتحار. حاولت رغم كلّ شيء أن أذهب مترنّحة إلى غرفتي، لكن انتهى بي المطاف بأن سقطت أرضًا، مدمّرة، على أرضية المطبخ الخشبية.

أغلقت عينيّ فحملني الليل في دوّامته. كنت أسبح في سماء رمادية. سحب قاتمة تتكشّف حولي. فجأة، وبعد أن انقشع الضباب، ظهر باب مصعد. في الداخل زرّ واحد. وجهة واحدة. الطابق السادس والثلاثون تحت الأرض.

3.

فجأة، كانت كاري هناك. حية.

كان النهار مشمسًا في حديقة ماك كارين للأطفال جنب المدرسة.

– انتبهي ماما، سوف أنزل! حذّرتني من أعلى المزلاق قبل أن تتزحلق على السطح المنحدر.

التقطتها بين ذراعيّ وشعرتُ بمعدتي تنقبض. شممت شعرها وتحسّست حرارة عنقها. كنت ثملة من رائحتها وضحكاتها المتواصلة وأنا أقبّلها.

– هل تريدين المثلّجات؟

– أشعر بالبرد! أفضّل الهوت-دوغ!

– كما تريدين.

– هيّا! فلنذهب! صاحت في الهواء.

كان من الصعب تحديد تاريخ المشهد، لكنّ الثلج كان لا يزال ظاهرًا على العشب الممتدّ أمام كاتدرائية «التجلّي». كنّا ربّما في شهر يناير أو فبراير الماضي. تبعتُ كاري حتى عربة الهوت-دوغ وطلبتُ لها سندويتشًا التهمته وهي تتمايل على إيقاع موسيقى الريغي الصادرة من جهاز تسجيل محمول وضعته مجموعة من الفتيان المتزلّجين على السلالم الإسمنتية. كنت أتأمّلها وهي ترقص بتنّورتها الاسكتلندية، وجاربيها الرّماديتين الداكنتين، ومعطفها الكحلي وقبّعتها البيروفية. استرجعتُ مرحها وطاقتها وبهجتها المعدية التي غيّرت حياتي وتركتُ نفسي أنجرف في زوبعة الحياة.

.4

فتحتُ عينيّ. الساعة لم تصل إلى السابعة بعد. وبينما كان من المفترض أن تكون ليلتي ثقيلة وضبابية، فقد مرّت كالبرق. كانت ليلة خفيفة ظهرت لي فيها كاري في المنام بفيضٍ من التفاصيل والروائح والأحاسيس.

نهضتُ بصعوبة. كان العرق يتقطّر من وجهي وصدري وكانت أطرافي مشلولة. زحفتُ منهكة نحو الحمّام حيث بقيت وقتًا طويلًا تحت المياه المتدفّقة الساخنة. شعرت بالدّم يندفع إلى وجهي. كنت أعاني صعوبة في التنفّس وأحسست بحموضة تحرق معدتي.

كانت صور كاري بوضوحها المذهل تقتحم جمجمتي وتشوّش نظري. ما الذي حصل هذه الليلة؟ هي المرّة الأولى التي أرى فيها حلمًا

كهذا. لسبب وجيه وبسيط هو أنّ ما عشته لم يكن حلمًا. كان شيئًا مختلفًا. تصوير ذهني منسوج بخيوط قادرة على استنساخ ذكرى إلى حدّ الكمال. واقع أكثر واقعية من الواقع. كم من الوقت دام هذا الوهم؟ بضع دقائق أو بضع ساعات؟ هل كان قلم فانتين هو السبب؟ في أعماقي، لا يهمّ. المهمّ أنّني، وفي لحظة، استعدت ابنتي. كان لقاء مختصرًا وزائفًا أراحني أكثر ممّا أزعجني.

خرجتُ من الحمّام وأنا أرتجف من البرد. كان جسمي كلّه يؤلمني. أضلاعي، ظهري، رأسي. رجعتُ إلى غرفتي وأمضيت طيلة فترة الصباح تحت الغطاء أعيد في ذهني مشهد البارحة. ثمّ، وأنا لا أزال في سريري، فتحتُ حاسوبي لأجري بحثًا عن القلم.

صُنعت أقلام ناميكي في اليابان ووزّعها ألفرد دنهيل في فرنسا وبريطانيا في العشرينيات من القرن الماضي. انجذب رجل الأعمال الإنكليزي (دنهيل) إلى جمال الإبداعات في الصناعة اليابانية، فأطلق فكرته العبقرية بتغليف أقلام الإيبونيت بطبقة من اللك مأخوذة من الشجيرات المقطوعة مباشرة بعد القطاف لاستبدالها بأخرى أكثر نضارة. هذه العملية الحرفية، ممزوجة بتعقيدات زخرفات عرق اللؤلؤ والصفائح الذهبية، جعلت كلّ قلم «فريدًا وساحرًا»، بحسب المنشورات الإعلانية آنذاك.

انسحبتُ من سريري عند منتصف العصر لاستقبال مارك روتيللي في زيارته الأسبوعية. جرت العادة كلّ اثنين أن نتحدّث في المطبخ فيما نتشارك فطائر البطاطس والجبن التي يأتي بها من هاتزلاشا، متجر الكوشر في الحيّ اليهودي لويليامسبورغ. كان الشرطي السابق قد أجرى تحرّيات مكثّفة، خصوصًا عن حسن، الرجل الذي أمضى ردحًا من ليلة في منزلي قبل يوم من اختفاء كاري، وعن أميليتا دياز، الحاضنة الفيليبّينية التي أرسلتها الوكالة لرعاية كاري

في غيابي. وبالرغم من أنّ تقاريره جاءت حتى الآن مخيّبة للآمال إلّا أنّه في الأقلّ، وبعكس المحقّقين الآخرين الذين صادفتهم، لم يتخلّ عن القضيّة ولم يحمّلني لحظة أيّ مسؤوليّة عن اختفاء كاري.

في ذلك العصر، قرأت في وجهه فورًا خبرًا جديدًا. كان يبدو أشعث، شعره منكوشًا كأنّه أمضى ليلته في السيّارة، لكنّ عينيه المحاطتين بهالات سودٍ كانتا تلمعان أكثر من العادة.

– هل وجدتَ شيئًا جديدًا يا مارك؟

– لا تتحمّسي فلورا، قال وهو يجلس على أحد مقاعد التابوريه.

تحرّر من سترته وجراب المسدّس بتأنٍّ ووضعهما على الطاولة بجانبه. رغم محاولاته ليبدو طبيعيًّا، لم يكن على طبيعته. وبما أنّه لم يجلب معه الفطائر قدّمت له ما تبقّى من نبيذ البارحة قبل أن أجلس بجانبه.

– سوف أكون صريحًا معكِ، نبّهني وهو يفتح حقيبة جلدية رثّة.

شعرت بألم يمزّق أحشائي كما لو غُرس فيها وتد.

– ما الذي اكتشفته روتيللي؟ تكلّم، بالله عليك!

سحب من شنطته حاسوبًا محمولًا قديمًا وملفًّا من الكرتون.

– امنحيني بعض الوقت كي أشرح لكِ.

كنت متوتّرة جدًّا إلى درجة أنّني أمسكت كأس النبيذ وجرعت نصفها. نظر إليّ الشرطي السابق مقطّب الحاجبين قبل أن يُخرج عددًا من الصور من حقيبته.

– لم أخبرك من قبل ولكنّني منذ بعض الوقت تعقّبت محرّرتك تعقّبًا وثيقًا، بدأ يشرح طارحًا أمامي لقطات مأخوذة من عدسة مقرّبة.

– فانتين؟ لماذا؟

– لمَ لا؟ فهي في دائرة الأشخاص المحيطين بك وكانت ترعى كاري أيضًا...

نظرت إلى الصور. فانتين تسير في شوارع غرينويتش فيلدج، فانتين تخرج من شقّتها في سوهو، فانتين تتسوّق في يونيون سكوير، فانتين تتأمّل حقائب يد أمام واجهة متجر سيلين في شارع برنس. كانت فانتين متأنّقة في كلّ الأوقات.

– وما الذي اكتشفته من تعقّبها؟

– ليس الكثير، اعترف روتيللي. في الأقلّ حتى ظهر أمس.

عرض عليّ اللقطتين الأخيرتين. فانتين، ونظّارتها الشمسية تغطّي عينيها، مرتدية بنطالًا من الجينز وسترة رسمية، تقف خلف واجهة ما يبدو متجرًا للأثريات أو مكتبة متخصّصة في بيع الكتب القديمة.

– إنّه متجر ذا رايتر شوب، في إيست فيلدج.

– لم أسمع به من قبل.

– كانت هناك لتبتاع قلم حبر.

شرحت للشرطي أنّه يمكن أن يكون قلم ناميكي الذي أهدتني إيّاه البارحة لكي أستعيد نمط حياتي السابق. باهتمام شديد، طلب رؤية القلم. مددته له من دون ذكر منام الليلة السابقة. لا رغبة لي البتّة في أن أظهر كمجنونة في حضرة سندي الوحيد.

– عليك معرفة أمر عن هذا القلم، استأنف الشرطي. يُقال أنّه كان ملكًا لفرجينيا وولف.

– ما علاقة ذلك بابنتي؟

– سأتطرّق للأمر. ذا رايتر شوب متجر متخصّص في التذكارات والممتلكات الشخصية لكتّاب مشهورين، شرح لي روتيللي وهو يفتح في كمبيوتره الموقع الإلكتروني للمتجر. بمبالغ طائلة، يمكن اقتناء غليون من غلايين جورج سيمنون أو بندقيّة إرنست همينغوي التي نسف بها رأسه.

هززت كتفي.

– أمر طبيعي في هذا العصر. لقد قلّ عدد القرّاء الحقيقيين ولم يعد الناس يهتمّون بالعمل، بل بالفنّان. بحياته، بشكله، بماضيه، بعلاقاته، بالترهات التي ينشرها في وسائل التواصل. يهتمّون بكلّ الأمور ما عدا القراءة.

– أثار فضولي هذا المتجر، أكمل الشرطي. فأنعمت التدقيق. قصدته مدّعيًا أنّني من هواة الجمع، ثمّ ألححت على القائمين عليه مرارًا وتكرارًا بإرسال عدد من الرسائل الإلكترونية.

فتح حسابه وأدار الشاشة صوبي.

– هذا ما قاله لي صاحب المتجر.

.5

من: ذا رايتر شوب – إيست فيلدج

إلى: مارك روتيللي

الموضوع: مختارات من كاتالوغ المتجر

سيّدي العزيز،

بناء على طلبكم، تجدون قائمة بالأشياء المتاحة للبيع وغير المعروضة في موقعنا. نبقى تحت تصرّفكم لمزيد من المعلومات ونقدّر محافظتكم على السرّية.

مع خالص التقدير،

شاتان بوغات، المدير

دوناتا ألفونس فرانسوا دي ساد (1740-1814)

لوحتان لمنظر طبيعي إيطالي للرسّام جان-باتيست تيبرس تخصّان الماركيز وتمثّلان بعض مشاهد الفسق والفجور الموصوفة في كتاب «قصّة جولييت، أو رخاء الرذيلة».

أونوريه دي بلزاك (1799-1850)

آلة لتحضير القهوة من خزف ليموج نُقشت بالحرفين الأوّلين من اسم مؤلّف الكوميديا البشرية. كانت آلة القهوة الرفيق الأوّل للكاتب حيث كان يرتشف 50 كوب قهوة في اليوم ويكتب ثماني عشرة ساعة متواصلة. وقد أثار إدمان الكافيين هذا الجدلَ عند كثيرين ممّن اعتبروه سببًا لوفاته المبكرة في الحادية والخمسين.

كنوت همسون (1859-1952)

صورة لجائزة نوبل للأدب السويدي للعام 1920 برفقة مستشار ألمانيا أدولف هتلر.

مارسيل بروست (1871-1922)

جانب منزل سوان. باريس، إصدارات غراسي، 1914. نسخة أصلية (1/5) على ورق ياباني إمبراطوري كانت تمتلكه سيليست ألباري.

الكتاب موصول بنسيج من الساتان الأزرق الخاصّ بفرش السرير في غرفة النوم التي أمضى فيها مارسيل بروست معظم وقته في نهاية حياته.

فرجينيا وولف (1882-1941)

قلم حبر ناميكي من دنهيل مطلي بالأسود ومزيّن بزخرفات يابانية. حصلت عليه كاتبة رواية السيّدة دالاوي في العام 1929 هديّة من صديقتها وعشيقتها فيتا ساكفيل ويست، مصحوبة بكلمة مكتوبة باليد: «أرجوكِ، في فوضى هذه الحياة، أن تحافظي على مكانتك كنجمة معروفة ولامعة»، وبقارورة من «حبرها السحري» الذي استخدمته فرجينيا لكتابة روايتها أورلاندو.

جيمس جويس (1882-1941)

مسوّدة لإحدى الرسائل الفاحشة، التي خضعت للرقابة فترة طويلة، وأرسلها الكاتب إلى زوجته نورا في العام 1909.

ألبرت كوهن (1895-1981)

عباءة من الحرير الأحمر منقّطة بالأسود ارتداها خلال كتابة أنتم، إخواننا البشر.

فلاديمير نابوكوف (1899-1977)

ثلاث جرعات من المورفين من طريق الحقن (20 ملغ/مل) ترجع إلى السيّد نابوكوف.

جان بول سارتر (1905-1980)

بودرة الميسكالين وحقنة. استخدمهما الفيلسوف الفرنسي لتحفيز خياله خلال كتابة مسرحية سجناء ألتونا.

سيمون دو بوفوار (1908-1986)

عمامة باللون الأزرق المرقّط من صوف الألباكا كانت تمتلكها سيمون دو بوفوار.

ويليام بوروز (1914-1997)

* مسدّس عيار 38. سلاح قتل به السيّد بوروز في 6 أيلول/سبتمبر 1951 زوجته «جوان فولمر أدامز» خلال أمسية سُكر في المكسيك، رغبة منه في إظهار مهارته في الرماية وتكرار إنجاز البطل السويسري ويليام تيل. إذ طلب الكاتب الأميركي يومذاك من زوجته وضع كأسًا من الشمبانيا على رأسها ثمّ أطلق النار في اتّجاهها وأخطأ هدفه.

* سيجارة حشيش عثر عليها في جيب سترة ويليام بوروز بعد وفاته بسكتة قلبية في 2 آب/أغسطس 1997.

روالد دال (1916-1990)

لوح شوكولاته من ماركة كادبري كان للسيّد دال استلهم منه لكتابة تشارلي ومصنع الشوكولاته.

ترومان كابوتي (1924-1984)

جرّة تحتوي على رماد كاتب فطور في تيفاني.

جورج ر. ر. مارتن (1948-)

كمبيوتر أوسبورن مزوّد ببرنامج معالجة الكلمات ووردستار كُتب فيه المجلّد الأوّل من كتاب لعبة العروش.

ناتان فولز (1964-)

آلة كاتبة بلون اللوز الأخضر من الباكيليت من ماركة أوليفيتي استخدمها الكاتب لكتابة بلدة أميركية صغيرة، الرواية التي نال عنها جائزة بوليتزر في العام 1995 (مزوّدة بأسطوانتي تحبير).

رومان أوزورسكي (1965-)

ساعة باتيك فيليب، تقويم متواصل مرجع 3940ج. هديّة للكاتب الفرنسي من زوجته احتفالًا بإصدار روايته اختفاء رجل في ربيع 2005. منقوشة عليها من الخلف العبارة الآتية: أنت هدوء قلبي وارتباكه في الوقت ذاته توم بويد (1970-)

كمبيوتر محمول باوربوك 540س، هديّة من صديقته كارول ألفاريز. كتب فيه الكاتب الكاليفورني المجلّدين الأوّلين من ثلاثية الملائكة.

فلورا كونواي (1971-)

خفّ زهري من المخمل مزيّن بكرية من القطن. للقدم اليمنى. كان لابنتها كاري التي اختفت بطريقة غامضة في 12 أبريل 2010.

6.

– من هو صاحب المتجر؟ قلت وأنا أزيح عينيّ عن الشاشة.
– اسمه شاتان بوغا. شخص محتال اتُّهم بالتزوير مرّات عدّة.
– لست متفاجئة وأراهن على أنّ هذه الأغراض في معظمها مزيّفة. لا سيّما الخفّ المزعوم لابنتي. هذا كلّه هراء، روتيللي.
– هذا ما يفترضه مكتب التحقيقات الفدرالي أيضًا. لكنّ عناصره سيذهبون رغم ذلك لاستجواب شاتان بوغا للتحقّق.

في غضون دقائق، تحوّلت حماستي إحباطًا. خبر فارغ بالفعل. لم أتمكّن من إخفاء خيبة أملي وقد شعر روتيللي بذلك.

– سأتركك الآن. آسف لمنحك أملًا زائفًا.

تظاهرت بأنّه ليس بالأمر المهمّ وشكرته رغم ذلك على جهوده. قبل المغادرة، أصرّ على أن أعطيه «قلم فرجينيا وولف» الذي أراد «تحليله».

بعدما أصبحت وحيدة، رغبت مجدّدًا في الاختباء. في الذوبان. في الغوص إلى عمق الأعماق حيث لا يمكن أحدًا أن ينتشلني. فاسترجعت خطوات الانغلاق نفسها كالبارحة: زجاجة نبيذ أخرى تناولتها مع المهدّئات. أخرجت الدفتر المدرسي وندمت لحظة لأنّني تنازلت عن القلم لروتيللي، بالرغم من أنّني كنت أعرف أنّ كلّ ما يحدث داخل رأسي ليس إلّا خدعة يمارسها عقلي عليّ. لا تزال لديّ قارورة الحبر. الحبر السحري. فتحتها وغمست سبّابتي في السائل ذي اللون الماهوغني. رسمت بإصبعي على صفحة مزدوجة مرّات عدّة أحرفًا عشوائية.

أريد رؤية كاري قبل ساعة من اختفائها

كان يسكنني نوع من التفكير السحري: الرغبة الغبية في أن يفتح لي هذا الانغلاق نافذة على الماضي تقذفني إلى يوم اختفاء ابنتي. ترنّحت في الشقّة تحت تأثير هذا الكوكتيل المخدّر قبل أن أتهالك على السرير. كان الليل قد حلّ خلف النوافذ وخيّمت العتمة على الغرفة وروحي. شعرت بأنّ أفكاري تتصادم. رحت أغمغم بعض الكلمات. بدأت الحقيقة تلتوي لتفسح في المجال لصور غريبة. ظهر لي في الحلم فجأة عامل مصعد كالذي اعتدنا فيما مضى رؤيته في الفنادق الكبيرة. كان يرتدي سترة قرمزية مطرّزة بأشرطة وذات أزرار ذهبية. كان لديه رأس مخيف ومطاول بشكل مبالغ فيه، وكانت أذناه كأذني المسخ وأسنانه كبيرة كأسنان الأرنب.

– تعرفين، مهما فعلتِ، لا يمكنك تغيير مجرى القصّة، حذّرني وهو يفتح باب المصعد المسيّج بأسلاك.

– أنا كاتبة، رددت عليه وأنا أدخل المقصورة. وحدي أقرّر نهاية القصّة.

– في رواياتك ربّما، ولكن ليس في الواقع. يسعى الكتّاب إلى أن يحكموا العالم، لكنّ العالم، في أحيانٍ كثيرة، لا يسمح بذلك.

– فلننزل في أيّ حال، حسنًا؟

– الطابق السادس والثلاثون تحت الأرض، أليس كذلك؟ سألني وهو يغلق الأبواب.

4

بندقيّة تشيكوف[1]

لكلّ شيء في الحياة ثمنه، وحده الموت
مجّاني. ومع ذلك، فهو يكلّفنا حياتنا.

ألفريدي يلينيك

.1

كان الوقت عصرًا وشمس الربيع تغدق شعاعها الصافي على مدينة نيويورك. كانت أشعّتها الذهبية تغمر قاعة مدرسة مونتيسوري في حديقة ماك كارين. بعض الآباء الذين ينتظرون في الردهة لم ينزعوا نظّاراتهم الشمسية عن عيونهم. فجأة، انفتح باب وهرع منه عشرات الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 3 و6 سنوات بقهقهات وصخب. ركضت إليّ كاري فحملتها أعلى ما استطعت وخرجنا إلى الشارع. كان مزاجها جيّدًا لكنّها رفضت الجلوس في عربتها وأصرّت على السير بجانبي. كانت تتوقّف بعد كلّ ثلاث خطوات فاستغرق وصولنا إلى

مبدأ دراماتيكي ينصّ على أن كلّ عنصر في القصّة يجب أن يكون ضروريًا، وتجب إزالة العناصر التي ليست لها صلة.

مارتشيلوز عند ركن برودواي نصف ساعة من الوقت. حرصت كاري بدقّة على انتقاء كومبوت الفاكهة وكانولي الليمون اللذين تمكّنت من التهامهما قبل أن نعود إلى لانكستر.

– لديّ شيء لك يا حلوتي، قال لها تريفور فولر جونز، حارس المبنى الجديد، مع وصولنا إلى المدخل.

قدّم لكاري الحلوى بالعسل والسمسم وجعلها تعده بأنّها لن تأكلها على الفور. ثمّ أخبرها كم هي محظوظة بأن تكون أمّها روائية فتقرأ لها كلّ مساء قصصًا جميلة قبل النوم.

– أكاد أجزم بأنّك لم تفتح صفحة واحدة من رواياتي كي تقول جملة كهذه...

– هذا صحيح، سيّدة كونواي، لا وقت لديّ للقراءة.

– أنت لا تخصّص وقتًا للقراءة والأمر ليس سيّان، أجبته والمصعد يغلق أبوابه.

حملتُ كاري كما جرت العادة لكي تضغط زرّ الطابق السادس والأخير. صرير المقصورة المعدني وهي تتحرّك لم يعد، منذ زمن، يخيف أيًّا منا.

ما كادت أقدامنا تطأ عتبة الشقّة حتى خلعت كاري كعادتها حذاءها الرياضي الصغير وانتعلت الخفّين الزهريين الفاتحين المزيّنين بكريات من القطن. لحقت بي نحو الآلة الصوتية وعيناها تحدّقان فيّ فيما أشغّل أسطوانة الفينيل، ثمّ شرعت تصفّق للموسيقى المنتظرة – لحن كونشيرتو البيانو الثاني لموريس رافيل. أمضت دقائق تحوم حولي كظلّي حتى أنهيت تعليق الملابس لتطالبني بلعب الغمّيضة.

[أشعر بالاضطراب. أحسّ بأنّ هذا التمدّد الزمني هشّ كفقّاعة صابون. وأرتعب من أن تُغلَق هذه النافذة على الماضي فجأة قبل أن أكتشف شيئًا جديدًا].

– حسنًا، حبيبتي.

– اذهبي إلى غرفتك وعدّي إلى العشرين!

تبعتني كاري إلى الغرفة لكي تتأكّد من أنّني أستدير نحو الحائط وبأنّني أغمض عينيّ.

– لا تغشّي ماما! صرخت كأنّها توبّخني، قبل أن تذهب للاختباء.

بدأتُ العدّ بصوت عالٍ ويداي تحجبان عينيّ.

– واحد، اثنان، ثلاثة...

أسمع وقع قدميها الصغيرتين على الأرضيّة الخشبية. كانت كاري قد غادرت الغرفة. أشعر بصدري ينقبض.

– ... أربعة، خمسة، ستّة...

وسط النوتات العذبة للمقطوعة، سمعتها وهي تعبر الصالون مزحزحة معها كرسيّ إيمز الذي كان يقبع إزاء الجدار الزجاجي.

الموسيقى الحالمة والمبهجة تطلق ألحانًا منوّمة تتوعّد بإغراق المرء في عالم النسيان.

– ... سبعة، ثمانية، تسعة...

فتحتُ عينيّ.

مددتُ رأسي نحو الصالون في اللحظة ذاتها التي توجّهت فيها كاري نحو الردهة. ينبغي أن تبقى تحت ناظري. ولكي أبعد الشكّ عنها، استمررت في العدّ.

– ... عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، ثلاثة عشر...

عبرتُ بدوري غرفة المعيشة. كانت الشمس تنثر من خلف ناطحات السّحاب نورًا مزيّفًا. ستار مضيء يغمر الشقّة. أخاطر بإلقاء نظرة على الردهة من دون أن تنتبه كاري إليّ.

– ... أربعة عشر، خمسة عشر، ستّة عشر...

تفتح كاري بذراعيها الصغيرين خزانة المكانس. أراها تتسلّل إلى داخلها. ولكن مستحيل! لقد نظرتُ عشرين مرّة داخل تلك الخزانة الملعونة.

– ... سبعة عشر، ثمانية عشر، تسعة عشر...

أتقدّم في الردهة. النور يفيض في المكان.

أغمضت عينيّ برهة. تسارعت دقّات قلبي. الحقيقة هنا، في متناول اليد. قريبة جدًّا.

– عشرون.

ما كدت أفتح باب الخزانة حتى دارت زوبعة من غبار ذهبي أمام عينيّ وظهرت سحابة بلون الكهرمان، همجية وساطعة، انبثق منها رجل-أرنب بلباس خادم فندق. لم يفتح فمه المريع إلّا ليحذّرني:

– مهما فعلتِ، لن تغيّري أبدًا مجرى القصّة.

وغادر مطلقًا قهقهة مرعبة.

.2

استيقظتُ مرتعبة ومذعورة. كان جسمي على طرف السرير والغرفة ملتهبة كالفرن. نهضت لأطفئ جهاز التدفئة وعدت فورًا للاستلقاء. كان حلقي جافًّا وجفناي متوّرمان وشعرت كأنّ ملزمة تضرب صدغي. كان هذا الكابوس أقرب إلى الواقع وتركني منهكة ولاهثة، كما لو كنت أعدو الليل بطوله. بقيت مستلقية مدّة ربع ساعة ولكن بدلًا من أن أشعر بالارتياح، اشتدّ الصداع حتى أصبح لا يطاق. أجبرت نفسي على الوقوف وتوجّهت نحو الحمّام لألتقط قرصين من دواء ديكلوفيناك ابتلعتهما مع أكواب عدّة من الماء. أحسست بعنقي ينشلّ وبدأ الألم ينتشر في مفاصل أصابعي بينما أفركها بواسطة كفّي. لا يمكن هذه الحالة أن تستمرّ.

الرنين المتكرّر لورود اتّصال بالفيديو صمّ أذنيّ. ضغطت مفتاح التشغيل فظهر في الشاشة وجه تريفور، حارس مبنى لانكستر.

– لقد عاد الصحافيون، سيّدة كونواي.

يبدو أنّ المتاعب لا تنتهي أبدًا.

– أيّ صحافيين؟

– تعرفينهم جيّدًا.

دلّكت صدغيّ لتخفيف الألم الذي يطرق في جمجمتي.

– يريدون إجابة منك. ماذا أقول لهم؟

– أن يذهبوا إلى الجحيم.

أغلقت السمّاعة وذهبت لأجلب نظّارتي من الصالون وأنظر من النافذة.

كان تريفور على حقّ. هناك حشد من حوالى عشرين شخصًا يحاصر المبنى من الرصيف المقابل. زبّالون، جرذان، ذئاب: هي الحيوانات البغضية نفسها التي تعود بانتظام لتتلذّذ باختفاء ابنتي. أتساءل كيف يصل المرء إلى تلك النقطة في حياته الشخصية. كيف ينتهي به المطاف بأن يقوم بهذا العمل يوميًّا، بمَ يؤمن لكي يكون ضميره مرتاحًا وهو يقوم بهذا أو كيف يخبر أطفاله عند المساء بما يفعله نهارًا.

لماذا عادوا اليوم بالتحديد وبأعداد كبيرة؟

أمسكت هاتفي لأرى ما إذا كان يحوي أيّ رسالة، لكنّ بطّاريّته كانت فارغة. وبينما كنت أضعه في الشاحن، انتبهت إلى أنّ روتيللي قد نسي سلاحه في جرابه في المطبخ. حوّلت بصري عن المسدّس – لطالما أرعبتني الأسلحة – وشغّلت التلفزيون ورحت أغيّر القنوات الإخبارية.

لم يكن عليّ أن أقلّب طويلًا:

تبعات قضيّة اختفاء الصغيرة كاري كونواي. أُفرِجَ عن الرجل الخمسيني الذي اعتُقل مساء من دون توجيه أيّ تهمة إليه. وكان شاتان بوغا، وهو صاحب متجر للأثريات في حيّ إيست فيلدج، قد سوّق لخفّ زُعم أنّ كاري كانت تنتعله يوم اختفائها. تبيّن أنّ القطعة مزيّفة، ودافع السيّد بوغا عن نفسه بحجّة أنّها كانت دعابة سخيفة. عودة إذًا إلى المربّع الأوّل من التحقيق الذي...

أطفأت التلفاز. لم أتحمّل أكثر من دقيقتين. في أيّ حال، لم أؤمن يومًا بتلك المعلومات الوهمية. عندما أعدت تشغيل الهاتف، انهالت عليّ رسائل من روتيللي يطلب فيها أن أعاود الاتّصال به.

– مرحبًا مارك.

– فلورا؟ لقد أُطلِق سراح شاتان بوغا.

– أعلم، قلت متنهّدة. سمعت الأخبار توًّا. هل لاحظت أنّك نسيت مسدّسك عندي؟

تجاهل روتيللي كلامي:

– يُقتَرَف خطأ كبير يا فلورا! القلم!

– ما به القلم؟

– أجريت تحليلًا للقلم الذي أخذته منك في مختبر خاصّ.

– بهذه السرعة؟ وبعد؟

– ليس القلم هو المشكلة...

كنت أعرف ما سيضيفه: إنّه الحبر.

– إنّه الحبر، أكّد لي. تركيبة الحبر.

– ما الخطب؟

بتّ الآن أتوقّع كلّ شيء.

– فيه ماء، صباغ، إيثيلين غليكول، وأيضًا... دم.

– دم بشري؟

– نتيجة المختبر رسمية، فلورا: إنّه دم ابنتك.

3.

أشعر بدوّار.

بدولاب مسنّن لا ينفكّ يطحنني.

أقفلت الخطّ. كان جسمي متشنّجًا. بدأ الهواء ينفد منّي. رغبتُ في فتح النوافذ لكنّها كانت مقفلة بأختام. يجب أن يتوقّف كلّ هذا. هذا الاجترار النفسي، هذا الضياع، هذه الانقلابات الدرامية. هذه الأفعوانية العاطفية.

أخرجت بيديّ المرتبكتين مسدّس روتيللي من جرابه وتأكّدت من أنّه مذخّر. كثير من الروائيين يعرفون المبدأ المسرحي في الروايات الخيالية، المعروف باسم «بندقيّة تشيكوف»: «إذا ذكرتَ في الفصل الأوّل من روايتك أنّ هناك بندقيّة معلّقة على الحائط، فعليك أن تستعمل تلك البندقيّة في الفصل الثاني أو الفصل الثالث»، يقول الكاتب المسرحي الروسي. وهو ما أشعر به بالضبط: لديّ انطباع بأنّ أحدًا وضع هذا المسدّس هنا لأستخدمه.

حملت المسدّس وتوجّهت إلى سطح البناية. كان الهواء منعشًا وجلبة المدينة تعبر السماء. خطوت بضع خطوات نحو أعلى السطح. كان الغطاء الاصطناعي لملعب البادمنتون القديم قد بدأ يتقشّر. شتلات الخضار التي زرعتها مع كاري كانت مليئة بالأعشاب الضارّة.

الهواء المنعش حرّر شيئًا ما في دماغي وأتاح لي التفكير بشكل أفضل. يجب عليّ الآن أن أترك جانبًا كلّ مشاعري وعواطفي وأناشد عقلي فقط. شيء ما لا يبدو سويًّا في هذه القصّة منذ البداية. كانت القصّة ملوّثة من جذورها. إذا كانت الشقّة مقفلة من الداخل،

فمن غير المنطقي فعلًا عدم العثور على كاري. كان الأمر مستحيلًا بكلّ بساطة.

تذكّرت مقولة كونان دويل[2]: «عندما تستبعد المستحيل، فإنّ ما يتبقّى، مهما بدا غير محتمل، هو الحقيقة لا غيرها». ولكن ما تفسير ذلك؟ أظنّني أعاني اضطرابًا عقليًا، قد أكون سابحة في هذيان الأدوية أو أنّني دخلت في غيبوبة بعد مروري في تجربة الاقتراب من الموت. ربّما أعاني فقدان الذاكرة أو أنّني أصبت بمرض ألزهايمر. كنت مستعدّة لعدم رفض أيّ افتراض، لكن كنت أشعر بأنّ القصّة ليست في هذا.

غامت السماء. هبّت سلسلة رياح فجئية جعلت قصب السكر الذي يحيط بالترّاس يهتزّ.

شيء ما ينزلق منّي. ليس تفصيلًا. شيء أكثر أهمّيّة. كأنّ ستارًا من دخان منعني منذ البداية من رؤية الحقيقة. كان لديّ شعور مزعج، منذ البداية – لا أريد أن أبدو هذيانية – بأنّ أحدًا ما يراقبني ويقرّر كلّ خطواتي. كان هذا الإحساس صعب التبرير ولكن، أوّل مرّة، شعرت بأنّني أفتح ثغرة لأصل إلى عمق الأشياء.

حاولت أن أدقّق في إحساسي. أن أحدّده. لمَ أملك انطباعًا بأنّ التاريخ مكتوب سابقًا؟ بأنّني لا أستطيع التحكّم في الحقيقة التي تحيط بي؟ وبأنّ هناك على الأغلب من يمسك بكلّ الخيوط ويتحكّم فيّ كدمية؟ وجدتها، هناك من يتلاعب بي.

ولكن مَن؟

شعور آخر فرض نفسه ولا ينفكّ ينمو يومًا بعد يوم. شعور بأنّني سجينة كم شهرًا مضى على عدم خروجي من شقّتي؟ كانت حجّتي

[2] طبيب اسكتلندي وكاتب مشهور بتأليفه قصص المحقّق شرلوك هولمز التي تعدّ معلمًا بارزًا في الأدب البوليسي.

الرغبة في الهروب من مطاردة المراسلين لي وأنّ عليّ أن أكون في المنزل في حال ظهرت كاري مصادفة من جديد، لكنّ هذا السبب لم يكن منطقيًا. ما الذي كان يمنعني حقًّا من الخروج؟

خطرت لي صورة: أمثولة كهف أفلاطون[3] القائلة أنّ الحالة الإنسانية تحكم علينا بالعيش في الجهل، كسجناء للأفكار الخاطئة، وُضعوا في كهف، تعميهم مناورات مدبّرة تطرح ظلالها المضلّلة فيظنّونها حقائق.

وكما الإنسان الذي وصفه أفلاطون أسيرٌ في أعماق كهفه، كنت مكبّلة في شقّتي. ومثله أيضًا، لم أكن أرى العالم على حقيقته. لم أكن أميّز سوى الظلال المتحرّكة التي تعكسها شمسٌ خادعة. شظايا، أصداء.

هو الواقع إذًا، لقد كنت عمياء.

كنت أتمسّك بهذه الفكرة بكلّ ما أوتيت من قوّة: شيء ما أو شخص ما قصد أن يجعلني أتصوّر العالم بطريقة خاطئة. كانت الحقيقة مغايرة لما اعتقدت وكنت أعيش كذبة كبيرة حتى الآن.

كان عليّ، مهما كان الثمن، أن أكسر حجاز الجهل هذا.

كانت أصوات المدينة تتردّد في أذنيّ بشكل صاخب أكثر فأكثر. أبواق السيّارات، صفّارات الإنذار في سيّارات الشرطة، طقطقة الرّافعات وآلات حفر الصخور لأعمال البناء المجاورة. أشعر بخطر يلوح في الأفق. كنت خائفة ممّا قد أكتشفه. خوف الأسرى فور خروجهم من الكهف وإدراكهم أنّ الظلام كان مريحًا وأنّ النور يعذّبهم.

لم أعد متأكّدة من شيء. «لا أحد يستطيع أن يعرف ما إذا كان العالم خياليًّا أم حقيقيًّا، وما إذا كان هناك فرق بين الحلم والعيش».

[3] مَثل ضربه أفلاطون في الباب السابع من كتاب الجمهورية.

استذكرت جملة الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس فأعادت إحياء شعوري بأنّ الحقيقة ليست سوى صباغ.

أحسست من جديد بحضور قويّ حولي، بالرغم من أنّني كنت أعرف جيّدًا أنّني وحدي على السطح. ثمّة هيمنة خفية تمارَس عليّ. يمارس «آخَر» ما. محرّك دمى.

عدوّ.

حقير.

روائي.

اهتزّ المنظر المألوف حولي برهة. ثمّ تجمّد كلّ شيء وبدا لي أكثر حدّة: أرصفة أحواض بناء السفن، مدخنة الآجر الأحمر المرتفعة في أعلى معمل السكّر القديم، جسر المشاة الفولاذي المهيب فوق جسر ويليامسبورغ الذي يجتاز إيست ريفر.

كان الأمر جليًا. كنت دمية في يدَي كاتب. كنت شخصية في رواية. من أمام آلته الكاتبة أو بالأحرى من وراء شاشة حاسوبه، كان هناك، يتلاعب بحياتي.

لقد أمسكت بالعدوّ. أعرف حيله جيّدًا لأنّنا نمارس المهنة نفسها. وهو ما جعلني أتأكّد: لقد أحبطت مخطّطه توًّا. لم يتوقّع محرّك الدمى أن أكشفه، وكان يشبّك الخيوط المعلّقة بلوحة التحكّم الخشبية.

ها هي نافذة التصويب تفتح فجأة. نافذة كلّ أنواع الـ«ممكن»: تلك التي تمنحني فرصة تغيير نهاية القصّة. عليّ أن أجد وسيلة لقلب الطاولة. ولكي أتخلّص من سيطرته، لم يكن لديّ خيار سوى إدخاله في اللعبة.

أخرجت سلاح روتيللي من سترتي. أوّل مرّة منذ زمن، شعرت بأنّني اكتسبت درجة من الحرّيّة. كنت أعرف أنّ الرجل الجالس أمام

الشاشة لم يكن ليتوقّع ما سأفعله. مهما قالوا، لا يحبّ الروائيون أبدًا أن تضع شخصياتهم فوؤسًا على رقابهم.

وضعت فوّهة المسدّس على صدغي.

بدأت الصور المتقطّعة تتراقص مرّة جديدة أمام عينيّ كأنّ المشهد حولي راح يتشوّه.

وقبل أن يتلاشى بالكامل، وضعت إصبعي على الزناد وخاطبت الشخص القابع أمام شاشته صارخة:

– أعطيك ثلاث ثوان لتمنعني من ذلك: واحد، اثنان، ثلا...

شخصية روائية (رومانية)





5

توافق الأزمنة

> ليس من الصعب كتابة رواية (...). الصعوبة، كلّ الصعوبة، تكمن بشكل خاصّ في كتابة المزيد والمزيد من الروايات (...). ينبغي التمتّع بقدرة خاصّة، وهي بالتأكيد مختلفة بعض الشيء عن مجرّد الموهبة.
>
> **هاروكي موراكامي**

وضعت فوّهة المسدّس على صدغي.

بدأت الصور المتقطّعة تتراقص مرّة جديدة أمام عينيّ كأنّ المشهد حولي راح يتشوّه.

وقبل أن يتلاشى بالكامل، وضعت إصبعي على الزناد وخاطبت الشخص القابع أمام شاشته صارخة:

- أعطيك ثلاث ثوان لتمنعني من ذلك: واحد، اثنان، ثلا...

1.

باريس، الإثنين 11 تشرين الأوّل/أكتوبر 2010

خبطت شاشة جهاز الكمبيوتر وأنا مذعور. كنت جالسًا على الكرسيّ، أرتعش وأشعر بجبيني يحترق. أحسست بوخز في عينيّ وبألم حادّ يشلّ كتفيّ ورقبتي.

اللعنة! هي المرّة الأولى التي تخاطبني فيها إحدى شخصياتي أثناء كتابتي للرواية.

أدعى رومان أوزورسكي. أبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا. أكتب منذ زمن. نشرت مخطوطتي الأولى، الرسل، في سنّ الحادية والعشرين، عندما كنت لا أزال طالبًا في كلّية الطبّ. كتبت بعدها ثماني عشرة رواية أخرى تصدّرت كلّها قائمة الكتب الأكثر مبيعًا. كلّ صباح، منذ أكثر من عشرين سنة، أشغّل جهاز الكمبيوتر، أفتح معالج النصوص وأهجر رداءة العالم لأهرب إلى حياتي الموازية. لم تكن الكتابة يومًا وقتًا للتسلية بالنسبة إليّ. كانت التزامًا كلّيًا. «طريقة خاصّة للعيش»، يقول الروائي الفرنسي غوستاف فلوبير؛ «مخدّر»، يضيف الكاتب البرتغالي أنطونيو لوبو أنتونيس: «نبدأ بها كمتعة ثمّ ما نلبث أن ننظّم حياتنا حول شرورها».

أعمل إذًا كلّ يوم، من الصباح حتى المساء، دون انتظار ما يُسمّى الـ«إلهام» لأنكبّ على العمل. بل على العكس: لأنّني أعمل، كان الإلهام يغمرني في نهاية المطاف. أحبّ هذا الانضباط، هذا الإصرار، هذه الحاجة. لا شيء سهل، لا شيء مكتسب. تشعر دائمًا بالدوّار: لا يمكنك أبدًا معرفة إلى أين ستقودك الكتابة.

في معدّل ستّ ساعات من الكتابة في اليوم – سيناريو الحدّ الأدنى – تجاوزت حدود الخمسة والأربعين ألف ساعة عمل. خمسة وأربعين ألف ساعة أعيش مع شخصياتي على الورق. وهو ربّما ما

جعل منّي شخصًا «غير ملائم للحياة الواقعية» (بحسب طليقتي المستقبلية)، ولكن شخصًا يعرف الكثير عن عالم الخيال أيضًا. وما حصل تـوًّا لم يحدث لي من قبل. لطالما ردّدت في مقابلاتي أنّ اللحظة الأكثر إثارة هي عندما تمكّن شخصياتي أنفسها وتبدأ فعل أشياء ليست بالضرورة مقدّرة لها، لكنّني لم أجد نفسي قطّ في موقف كهذا من قبل.

قرّرت ألّا أتأرجح في خيبة الأمل فأعدت فتح معالج النصوص وحاولت محاولة جديدة لمتابعة روايتي:

«قبل أن يتلاشى بالكامل، وضعت إصبعي على الزناد وخاطبت الشخص القابع أمام شاشته صارخة:

– أعطيك ثلاث ثوان لتمنعني من ذلك: واحد، اثنان، ثلا...».

حاولت استئناف القصّة، لكنّ كلّ ومضة من المؤشّر في الشاشة كانت كأنّها تغرز في عيني. كنت متشنّجًا، غير قادر على مواجهة هذا الوضع.

هناك طريقتان رئيسيتان لكتابة روايـة. خـلال فترة طويلة، لعبت بطريقة آمنة. مثل صانع ساعـات، أمضيت أشهرًا عـدّة في إعـداد خطّة محكمة. ملأت الدفاتر بكلّ تفصيل دقيق: الحبكة، التغيّرات المفاجئة، سيرة الشخصيات، المراجع. ومع إنهاء ذلك العمل التحضيري، لم يبقَ لي سوى التقاط دفاتري واتّباع تسلسل قصّتي بدقّة. وكما يقول الكاتب الفرنسي جان جيونو: «أوشك الكتاب على الانتهاء، لم يبق إلّا كتابته». ولكن ما الهدف من كتابة قصّة نعرف سلفًا خاتمتها؟ على مرّ السنين، تغيّرت طريقة عملي. أصبحت أفاجئ نفسي بسرد القصّة لذاتي مع تقدّمي في الكتابة. أحببت تلك الفكرة. بأن أنكبّ على الكتابة من دون معرفة نهاية الحبكة. إنّها

«طريقة ستيفن كينغ» التي تقول أنّ القصص موجودة قبل ذاتها، أنّها كالأحافير في الأرض، على الروائي فقط التنقيب عنها مع التقدّم في الكتابة، من دون أن يعرف ما إذا كانت هيكلًا عظميًا لديناصور أو لراكون.

هو المسار ذاته الذي سلكته في هذه الرواية الجديدة التي وضعت لها عنوانًا موقّتًا، الوجه الثالث للمرآة. انطلقت من حالة بسيطة (اختفاء طفل) وظللت منفتحًا على اقتراحات شخصياتي. والشخصيات ليست متشابهة. فمنها ممثّلون نجوم يكتفون بتلاوة نصوصهم من دون تقديم أدنى المساعدة، ومنها على العكس آخرون يحاولون التحكّم في زمام الأمور ويجعلونني أنحرف عن مساري. لكن هذه المرّة، تخطّى الأمر كلّ الحدود. ففلورا كونواي لم تتمرّد فحسب، بل كشفتني.

قطرات المطر تقرع النوافذ محدثة ضوضاء صاخبة. منذ ثلاثة أيّام وأنفلونزا سيّئة تستنزف قواي مصحوبة بارتفاع شديد في الحرارة وسعال حادّ يجعلني أتقيّأ في كلّ مرّة. أمضي أيّامي ملفوفًا ببطّانيّة من صوف الفيكونيا، منسيًّا من زوجتي التي هجرتني، متنقّلًا بين أريكة الصالون وجهاز الكمبيوتر، وبين دواء دوليبران والفيتامين سي. بقيت ربع ساعة مسمّرًا على الكرسيّ أحدّق في شاشتي وأعيد في ذهني الفصول الأربعة التي كتبتها. لكن كلّما أصررت زاد القلق في داخلي. أرعبتني صورة فلورا كونواي ومسدّسها فاستسلمت ونهضت لتحضير القهوة.

.2

نظرت إلى ساعة الحائط. إنّها الساعة الرابعة بعد الظهر تقريبًا. ينبغي ألّا أنسى موعد خروج ثيو من المدرسة. أدرت الماكينة لأعدّ القهوة،

وفي انتظارها، ألقيت نظرة من النافذة على طرف الحديقة. كانت السماء قاتمة. لم يتوقّف المطر عن الهطول بغزارة منذ الصباح الباكر. خريف باريسي مقرف للغاية.

وممّا زاد الطين بلّة تعطّل جهاز التدفئة المركزية وتحوّل الصالون ثلّاجة. فضلًا عن أنّ تسرّب المياه بكثرة من السقف والموصلات الكهربائية التي تنفصل يوميًا جعلني أشعر كأنّي أعيش في جحر، على الرغم من أنّني دفعت ثروة مقابل هذا المنزل حين اشتريته من ثنائي عجوز أمضى فيه ستّين عامًا. كان على الخريطة البيت المثالي الذي لطالما حلمت بتربية أطفالي فيه. طابقان منوّران مع حديقة، على مقربة من لوكسمبورغ. كان المسكن قديمًا وبحاجة إلى أعمال ترميم كبرى غير أنّي لم أكن أملك الإمكانات للمباشرة بها. ولا الرغبة.

كنت قد ابتعت المنزل منذ عام، قبل ثلاثة أشهر فقط من إعلان ألمين لي بأنّها تهجرني. بعد ذهابها، أبلغَت عن حساباتنا المشتركة فلم يعد في إمكاني إنفاق فلس واحد من دون موافقتها. لقد عطّل هذا القرار حياتي لأنّ ألمين لم تكن متعاونة. لا بل كانت تتلذّذ برفض مطالبي كافّة بينما أنا لا أملك أيّ وسيلة للضغط أو المساومة. كانت قد حرصت قبل اندلاع الحرب بيننا في وقت طويل على نقل ما يكفي لتغطية احتياجاتها إلى حساب شخصي حتى أصبح طلاقنا نهائيًّا.

على مرّ الأيام، أصبحتُ أكثر إدراكًا لتخطيطها المتقن للرحيل لكي أظهر في مظهر الزوج السيّئ. فقد عمدت خلال أكثر من ستّة أشهر، قبل أن تعلمني بنيّتها الطلاق، إلى إرسال رسائل نصّية بذيئة بشكل شبه يومي كانت تكتبها من هاتفي الخاصّ لتقول أنّي مرسلها. قاذفات من الشتائم والتهديدات المتعلّقة بها وبابننا ثيو: «غبية

قذرة»، «سافلة»، «عاهرة»، «لن أدعكِ تغادرين أبدًا»، «سينتهي بي المطاف بذبحكِ. أنتِ وابنك»، «سوف أقتلك وأضاجع جثّتك».

هو نموذج من التصريحات التي سرّبتها مع محاميها للصحافة. فقد كنت، بسذاجتي وقلّة ارتيابي، أترك هاتفي في كلّ مكان، كما أنّني لم أغيّر كلمة المرور منذ أكثر من عشر سنوات. ولم ألاحظ أيّ أمر مريب إذ كانت تحرص على حذف الرسائل بعد إرسالها من الجهاز. بهذا، كوّنت ألمين ذخيرة من الرسائل الدنيئة التي شكّلت أدلّة دامغة ألحقت بي العار.

ثمّ جاء تسجيل الفيديو ليتوّج العملية برمّتها. ثلاثون ثانية انتشرت في موقع يوتيوب فترة من الوقت – بعد قرصنة مزعومة لهاتف ألمين. أظهر في الفيديو وأنا أدخل المطبخ عند الساعة السابعة والنصف صباحًا بينما تتناول زوجتي مع ثيو طعام الفطور قبل الذهاب إلى المدرسة. ألبس بوكسر وتي-شيرت ملطّخة لفرقة الميتل «موتلي كرو»، ولحيتي غير محلوقة منذ ثلاثة أسابيع فيما شعري مشعّث. تلفّ عينيّ المحمرّتين هالتان من السواد كما لو أنّني قد دخّنت ثلاث سيجارات من الحشيش على التوالي. أفتح الثلّاجة وفي يدي زجاجة بيرة، وأغضب لأنّها ما زالت معطّلة. ينتهي الفيديو عندما أركل الجهاز بقوّة وأنا أغمغم «اللعنة!» متذمّرًا، ما يجعل ابني يرتعد. ثلاثون ثانية مدمّرة جعلتني أبدو رجلًا مستبدًّا في المنزل. حقّق الفيديو مشاهدات وصلت إلى مئات الآلاف قبل أن يُحذَف. نشرت نصًّا للدفاع عن نفسي يتضمّن شرحًا لسياق الفيلم. ففي تلك الفترة، كنت منعزلًا في المنزل في خضمّ فترة الكتابة (من هنا مظهري المهمل). وتوخيًّا للكفاءة، كنت أعمل من الساعة الثامنة مساء حتى الواحدة من بعد ظهر اليوم التالي ثمّ أنام بعد هذا الوقت (ما يفسّر زجاجة البيرة عند السابعة صباحًا، موعد فطوري عادة).

لكنّ هذا الدفاع زاد غرقي. فقد كانت تلك الفترة الأولى من عصر هزيمة الكلمة المكتوبة. لم أكن أتقن الصوت ولا الصورة، وبعكس زوجتي، لم أكن أفهم بأمور الشبكات الاجتماعية أو كيفية ضغط زرّ الإعجاب أو تعزيز الفرد لذاته.

في أبريل الماضي، تقدّمت ألمين رسميًا بطلب الطلاق. وفي الصيف، قدّمت شكوى ضدّي بتهمة التهديد بالعنف والمضايقة. أوضحت أيضًا في مقابلة عامرة بالكذب وسوء النيّة أنّها تركتني بسبب «غيابي المتكرّر»، و«نوبات غضبي»، فيما زعمت بأنّها كانت «مذعورة» من التهديدات التي وجّهتها لابني. مع بداية الخريف، تحمّلت ثمانيًا وأربعين ساعة من الحجز في مركز الشرطة عند الدائرة السادسة ومواجهة مع ألمين لم تسفر عن شيء. ثمّ أُطلِقَ سراحي بإشراف قضائي في انتظار موعد محاكمتي المقرّرة نهاية الشتاء.

أفلتّ بصعوبة من أمر العلاج النفسي لكنّني مُنعت من التواصل مع ألمين. وفرضت محكمة شؤون الأسرة – التي تدخّلت من دون التساؤل عن افتراءات زوجتي – قيودًا على حقّ زيارتي ابني «حفاظًا على راحته النفسية». فسُمح لي برؤية ثيو مرّة في الأسبوع مدّة ساعة من الوقت بحضور مختصّ اجتماعي وإشرافه. شعرت بغضب شديد بسبب هذا القرار لكنّني سرعان ما سقطت في هاوية من الحزن.

لقد تخطّت الساعة الرابعة. ابتلعت قهوتي وارتديت معطفًا واقيًا من المطر واعتمرت قبّعة بيسبول قبل أن أغادر المنزل. كان المطر ينهمر بغزارة. في شارع نوتردام-دي-شان، كانت الفوضى المعتادة للخروج من المدارس، فاقمتها الأمطار الفيضانية والتظاهرات المتقطّعة ضدّ إصلاح أنظمة التقاعد.

تقع مدرسة ابني على بعد أقلّ من كيلومتر واحد سيرًا على الأقدام. كان الباراسيتامول قد بدأ يؤتي مفعوله فاستعدت بعضًا من

نشاطي. كنت مدركًا تمامًا أنّني أعيش أكبر أزمة في حياتي. مؤامرة لم أعدّ لها. غير قادرَين على الدّفاع عنّي، استسلم المحاميان اللذان أوكلتهما أمام فقدان وصايتي على ابني. «العصر يلعب ضدّنا»، أوضحا لي، الأمر الذي جعلني أستشيط غضبًا. ما علاقة العصر بحقّ الجحيم؟ لم تكن تلك القصّة سوى مسرحية وكذبة شنيعة. إلّا أنّه كان من الصعب جدًّا إثبات ذلك. وكنت أشعر بأنّني وحيدًا في تلك المعركة.

3.

على طول الرصيف، بينما أتسلّل بين المارّة وعربات الأطفال والدرّاجات كنت أستعرض أمام عينيّ فيلم حياتي مع ألمين في المرّة المليون. التقيتها في نهاية العام 2000، العام الذي عشت منه ستّة أشهر في لندن كي أعمل على كتابة سيناريو لمسلسل تلفزيوني لم يبصر النور. كانت ألمين ألكسندر آنذاك طالبة واعدة في مدرسة الباليه الملكية قبل أن تتحوّل إلى عرض الأزياء. وكانت دائمًا تدّعي أنّها «غريبة الأطوار». في بداية علاقتنا، كان لهذه السّمة الشخصية سحرها الخاصّ. فقد أضفت شغفًا وتميّزًا على حياتي المنظّمة للغاية وأزاحت فترةً الروتين التقليدي الذي كان يضبط أيّامي. إلى أن أدركتُ، مع مرور الوقت، أنّ «غريبة الأطوار» تلك تعني «مزاجيّة». سرعان ما فقدت الرغبة في مشاركة حياتي مع امرأة متسلّطة ومتهوّرة، لكنّها رفضت الانفصال، فاستولت على زواجنا الدوّامة الكلاسيكية للعلاقات المتزعزعة. حملت ألمين بعد ذلك بفترة ومع ولادة ثيو، وضعتُ تذمّري جانبًا إذ لم أتخيّل العيش من دون رؤية ابني كلّ يوم وأردت له أن يكبر في أسرة موحّدة.

تصالحنا إذًا – في الأقلّ هذا ما اعتقدته بسذاجة – بالرغم من أنّ ألمين لم تتوقّف يومًا عن إلقاء اللوم عليّ. في البداية، كانت

تستمتع في العيش مع كاتب، تكون أوّل قرّائه وتشارك بشكل من الأشكال في لعبة التركيب الإبداعية للقصّة. لكن مع مرور الوقت، لم يعد الأمر ممتعًا بالنسبة إليها. أعترف بصدق بأنّني كنت في معظم الوقت غارقًا في نوع من عالم موازٍ تسكنه كائنات خيالية ومشاكله تثقل كاهلي ليلًا نهارًا.

لكن كلّ هذه الخبرة لم تعنِ شيئًا. فقد ألّفت حوالى عشرين رواية لكنّني ما زلت لا أعرف كيف أكتب كتابًا. لسبب بسيط ووجيه وهو انعدام وجود دليل استخدام. في كلّ مرّة، كان عليّ أن أتعلّم من جديد. في كلّ مرّة، كنت أتساءل كيف نجحت في المرّات السابقة. في كلّ مرّة، كنت أجد نفسي عاجزًا. في كلّ مرّة، كان الأمر يكلّفني أكثر لاستخراج ما في أعماقي من جديد واسترجاعه من خلال القصّة.

صحيح أنّ غياب القواعد، والمفاجأة التي تنتظرنا عند منعطف كلّ صفحة، هما ما يعطيان الكتابة رونقها، لكنهما أيضًا ما يجعلانها مرعبة. إنّ الشكّ وانعدام الأمان اللذين ظلّا يسكنان فيّ يمكن أن يفسّرا الكثير، لكنّهما لا يبرّران بأيّ شكلٍ من الأشكال المؤامرة المريضة التي حاكتها ألمين.

في جادّة أوبسرفاتوار، عند بوابّة المدرسة، وجدت نفسي أمام الحليف الوحيد الذي تبقّى في حياتي: خديجة جبابلي، مربّية ثيو منذ صغره. هي فرنسية-مغربية في العقد الخامس من العمر. في المرّة الأولى التي التقيت بها، كانت تعمل بائعة في محلّ خضار في شارع غرونيل. أخبرتني خلال محادثتنا بأنّها ترغب في العمل حاضنة. وظّفتها بضع ساعات وسرعان ما شعرت بالثقة فيها. بعد أسبوع واحد كانت قد بدأت العمل دوامًا كاملًا.

هي الوحيدة التي تعرف الحقيقة. هي الوحيدة التي تثق فيّ. كانت خديجة تعرف أنّني أب صالح. وبعد أن رأت مرارًا وتكرارًا

انحرافات ألمين وتجاوزاتها، لم تصدّق افتراءاتها ضدّي. فاقترحَت تلقائيًا أن تشهد لمصلحتي، لكنّني أثنيتها عن ذلك. أوّلًا لأنّني كنت أعرف أنّ شهادتها لن تكون كافية لمواجهة دهاء الطرف الآخر. وثانيًا لأنّني في الأغلب أردت شخصًا ذا ثقة للبقاء بجانب ثيو في غيابي، وانحيازها لي كان سيتسبّب في فصلها من الخدمة فورًا.

– صباح الخير، خديجة.

– صباح الخير.

أدركتُ فورًا أنّ هناك خطبًا ما. كانت كلّ يوم بعد الظهر، من دون علم أحد، تخصّص لي ساعة من الوقت عند خروج ثيو من المدرسة. كان موعدًا كالسحر. موعدًا يبقيني واقفًا ويمنعني من الغرق. لكنّها اليوم، بوجهها القاتم، جعلتني أتوقّع الأسوأ.

– ما الذي يحدث خديجة؟

– ألمين تنوي المغادرة إلى الولايات المتّحدة.

– مع ثيو؟

أومأت المربّية برأسها. أرتني في هاتفها عددًا من الصور كانت قد التقطتها لشاشة كمبيوتر ألمين. متّصلًا بموقع إير فرانس، كان المتصفّح يشير إلى أمر شراء ثلاث تذاكر سفر من دون عودة إلى نيويورك في الواحد والعشرين من شهر ديسمبر. أوّل أيّام العطلة المدرسية. بطاقة لها، وأخرى لثيو والثالثة لامرأة تُدعى زُويه دومون.

كنت أعرف ما يحدث... فمنذ أشهر، كانت قد استولت على ألمين نزوة جديدة: أن تدير ظهرها وترحل للعيش في قرية بيئية في بنسلفانيا. كانت تلك المرأة، زُويه دومون – وهي معلّمة من لوزان التقتها قبل عامين في جنيف خلال تظاهرات مناهضة لمنتدى دافوس – هي التي زرعت تلك الفكرة في رأسها. لم أكن لأعارض

الفكرة بذاتها لولا أنّها تعني أنّ مسافة ستّة آلاف كيلومتر ومحيطًا هائلًا سيفصلان بيني وبين ابني.

هزّ الخبر كياني. لكن مع خروج ثيو من المدرسة وتوجّهه نحونا، اصطنعت وجهًا سعيدًا كي لا يشعر بالقلق.

– مرحبًا ثيو!

– مرحبًا بابا! صرخ وهو يعانقني.

احتضنته طويلًا أتنشّق رائحة شعره وعنقه. في نهاية ذلك اليوم الرمادي، كنت أتشبّث برائحته الدافئة والمطمئنة. كان ثيو فتًى أشقر، يميّزه مزاجه الجيّد الدائم، وعيناه الزرقاوان تلمعان من خلف نظّارة دائرية باللون الأزرق الداكن. كان بالنسبة إليّ «صيفًا لا يقهر» في عمق الشتاء البارد، كما قال ألبير كامو. لدغة تذكّرني بأنّ ابتسامة واحدة منه قادرة على تحطيم جدران حزني المتنقّلة.

– أنا جائع!

– وأنا أيضًا!

كان مركز اجتماعنا الرئيسي في هذا الوقت من النهار مقهى Les Trois Sorcières، عند تقاطع جادّة أوبسرفاتوار وشارع ميشوليه، الذي يديره شابّ إيطالي يناديه الجميع «مارتشيللو». في هذا المكان، كنت أجلس معه وأتأمّله وهو يلتهم كومبوت الفاكهة وكانولي الليمون قبل مساعدته في إنجاز فروضه. كان ذلك الزمن الجميل للقراءات الأولى، الإملاءات الأولى، المحفوظات الأولى لبول فورت وكلود روي أو جاك بريفير الذين تحدّثوا عن الحصان الصغير في «الطقس الرديء» أو عن الجنازة التي «حضرها حلزونان».

كان ثيو، بعد إنهاء فروضه المدرسية، يباشر في تقديم عرض من الخدع السحرية. أصبح السحر شغفه الكبير في الأشهر الأخيرة، وتحديدًا منذ أن اعتادت خديجة تسليته بمشاهدة مقاطع فيديو

في هاتفها لقناة متخصّصة في يوتيوب لشخص يُدعى غابرييل كاين. في ذلك اليوم، أتقن ثيو مشهد قطعة النقود التي تخترق قاع الكوب وخدعة مذهلة أخرى بورق اللعب. مندفعًا بنجاحه، حاول محاولة ثالثة طالبًا منّي إقراضه ورقة نقدية من فئة 20 يورو. فمزّق بثقة كبيرة الورقة إلى نصفين ثمّ جمع النصفين معًا من جديد وطوى الورقة مرّتين.

– انظر! قال مفتخرًا وهو يمدّ لي المربّع الذي صنعه. افتحه وستحصل على مفاجأة.

اتّبعت تعليماته بفضول لكنّ نقودي كانت لا تزال ممزّقة من دون شكّ.

انفجر ابني بالبكاء. نوبة حقيقية، مفاجئة بقدر ما هي قوية. وبينما حاولت تهدئته، اعترف لي متنهّدًا وهو يضغط ذراعيّ بيديه الصغيرتين:

– لا أريد الذهاب يا بابا، لا أريد الذهاب!

هكذا إذًا، كان يعرف. لم تفكّر ألمين لحظة واحدة في أنّ إعلان خبر كهذا قبل شهرين من الوقت من شأنه أن يزعزع استقرار ابننا. وفي عدائها المستمرّ لي، لم تفكّر حتى في أنّه سيخبرني.

– لا تقلق ثيو، سنجد حلًّا. سأتولّى هذا الأمر.

استغرق الأمر خمس دقائق لإطفاء النار التي في داخله.

عندما غادرنا المقهى كان الظلام على وشك أن يحلّ. كانت حديقة الإكسبلوراتور خالية وغارقة في الرطوبة والاكفهرار.

– أودّ أن أكون ساحرًا حقيقيًا، قال لي ثيو. للتأكّد من أنّنا لن نفترق أبدًا.

– لن نفترق، أعطيته وعدًا.

كان الروائي في داخلي يتكلّم. الشخص الذي يتصوّر دائمًا أنّ حدثًا ما في القصّة سيحبط مخطّطات الحياة الواقعية. قوّة خارقة أو انقلاب سارّ يأتي، في نهاية الفصل، ليصحّح الحقيقة فيجعلها متوافقة مع «ما يجب أن يكون». مرّة واحدة، يجعل الأخيار ينتصرون ويصدّ المتهكّمين، الخبيثين، الأنذال.

– سنجد حلًّا، جدّدت وعدي لثيو وهو يبتعد.

كان ابني يمسك خديجة بيدٍ ويلوّح لي بالأخرى. أكره هذا المنظر.

منقبض الصدر، جررت نفسي إلى المنزل. دست زرّ النور لكن يبدو أنّ الموصلات الكهربائية قد احترقت فاقتصرت إنارة الغرفة على الضوء الأزرق المنبثق من شاشة الكمبيوتر. لقد عادت الحمّى. كنت متجمّدًا وأرتعش من رأسي حتى أخمص قدمي. أصابني صداع نصفي لا يُحتمل جرّدني من الرغبة في فعل أيّ شيء. لم يعد لديّ القوّة حتى للصعود إلى غرفتي. تدثّرت ببطّانيّتي وانزلقت في تيّار الليل البارد.

6

فخّ منصوب للبطل

هل الرواية شيء آخر سوى فخّ
منصوب للبطل؟

ميلان كونديرا

1.

باريس، الثلاثاء 12 تشرين الأوّل/أكتوبر 2010

ستارة من النور تخترق جفنيّ المغمضين.

ملتفًّا في بطّانيّتي، تجنّبت القيام بأيّ حركة خوفًا من تشتّت الحرارة. كنت أرغب في أن يطول الليل ولا ينتهي. بأن تتلطّف بي الدنيا. بأن أنعزل كلّيًّا عن قساوة العالم.

لكنّ الضوضاء المستمرّة منعتني من ذلك. نقرٌ منتظم ومزعج. تكوّرت على نفسي محاولًا الاختباء في النوم من جديد، لكنّ الصوت المتصاعد أرغمني على فتح عينيّ. في الأقلّ لم تعد السماء تمطر. من خلال النوافذ، كانت أوراق شجر القيقب والبتولا الخريفية تتلألأ تحت أشعة الشمس. لمعانٌ ماسي في الهواء الطلق.

رفعت يدي لأحجب الضوء الباهر. لاحت لي بومة ضخمة أمام الجدار الزجاجي. كان جاسبر فان ويك جالسًا على أريكة تبعد مترين عن مقعدي يسحب أنفاسًا من غليونه ويخبط بقدمه الأرض في وتيرة واحدة.

– اللعنة جاسبر! ما الذي تفعله هنا؟ سألته محاولًا الوقوف بصعوبة.

كان يضع حاسوبي المحمول في حضنه. من خلف الشاشة، رأيت عينيه الصغيرتين المستديرتين تومضان. بدا مبتهجًا بدعابته.

– لم يكن الباب موصدًا! شرح كأنّه يعتذر.

كان جاسبر فان ويك أسطورة في صناعة النشر. أميركي من عشّاق الفرنكوفونية رافق الكتّاب الأميركيين جيروم ديفيد سالينجر ونورمان ميلر وبات كونروي. كان معروفًا بكونه وكيل أعمال ناثان فاولز وهو مَن نشر روايته الأولى، لوريلاي سترابنج[1]، بعد أن رفضتها دور النشر الأميركية في معظمها. يعيش اليوم متنقّلًا بين باريس ونيويورك، وكان قد وافق على رعاية مصالحي منذ أن تركت محرّري الأدبي قبل ثلاث سنوات.

– نحن في منتصف أكتوبر، أشار إليّ. المحرّر ينتظر مخطوطتك.

– ليس لديّ مخطوطة، أعتذر جاسبر.

ما زلت أشعر بأنّني مخدّر، رأسي ثقيل وأنفي مسدود. بقيت لحظات طويلة واقفًا، متّكئًا على الأريكة، ملفوفًا ببطّانيتي، أنتظر استعادة أنفاسي.

1 Loreleï Strange.

– بل إنّ لديك هنا بداية المخطوطة، صحّح قائلًا وهو ينقر على الشاشة. أربعة فصول. هذه بداية جيدة.

– هل اخترقت كلمة المرور الخاصّة بي؟

هزّ كتفيه.

– الاسم الأوّل لابنك وتاريخ ميلاده. كان التوقّع سهلًا...

بدوره، نهض جاسبر متوجّهًا إلى المطبخ بهدف تحضير مشروب ساخن لي. لحقته فوقع نظري على ساعة الحائط. إنّها الساعة الثانية عشرة ظهرًا. لقد نمتُ مرّة أخرى نصف نهار من دون انقطاع!

– استلمتُ بريدك، قال وهو يشير إلى كومة الأظرف الموضوعة على الطاولة.

كان جاسبر يحبّني. وإلى جانب علاقتنا المهنية، كان لديه دائمًا فضول وودّ تجاهي. لا شكّ في أنّني كنت أثير اهتمامه. فقد كان هو نفسه شخصًا غريب الأطوار من «الطراز القديم»، يتغندر كالداندي بجسمه الممتلئ. كنت في العادة أعشق التحدّث معه. كان موسوعة في عالم التحرير، يحتفظ بطرائف لا تحصى عن الكتّاب الذين قابلهم. لكنّني هذا الصباح، كنت أكثر بؤسًا من أن أجري محادثة.

– هناك الكثير من الفواتير، أشار وهو يُكمِل عصرَ الليمون قبل أن يسكبه في الماء المغلي.

كنت قد فتحت ظرفًا يحتوي على كشف لحسابي المصرفي. كان وضعي المالي مذريًا. كي أبتاع هذا المنزل، لم أضطر إلى إنفاق مخدّراتي فحسب بل ومعها جزءًا كبيرًا من عائداتي المسبقة كمؤلّف.

– رأيت أيّامًا أحلى، اعترفت وأنا أبعد كشف الحساب عن ناظري.

سكب جاسبر جرعة كبيرة من الرُّم وملعقة من العسل في القدر.

– متى تنوي إنهاء روايتك؟ سألني.

تهالكت على الكرسي، ملقيًا مرفقي على الطاولة ومطوّقًا رأسي البائس بيديّ.

– لن أكمل هذه القصّة، جاسبر. لست مقتنعًا بها.

– حقًّا؟ قرأت أوّل خمسين صفحة وأجد أنّها تحمل شيئًا.

وضع أمامي فنجانًا ساخنًا تفوح منه روائح الرُّم والقرفة.

– لا، لن أصل بها إلى أيّ مكان، أكّدت له. هي حزينة ومرعبة.

– جرّب فصلين أو ثلاثة بعد.

– من الواضح أنّك لست من يكتب!

هزّ جاسبر كتفيه: لكلّ دوره.

– في انتظار ذلك، خذ جرعة من مشروبك! أمَرَني.

– إنّه ساخن!

– لا تكن مخنّثًا. آه، لقد نسيت أن أخبرك: حدّدت لك موعدًا مع طبيبي عند الساعة الثانية.

– لم أطلب منك شيئًا. لست بحاجة إلى مربّية.

– بالضبط، أنا لا آخذك لرؤية مربّية، بل طبيب. هل تعرف أنّ هنري دي مونترلان كان يستدعي محرّره غاستون غاليمار ليرسل له سبّاكًا كلّما انسدّت مغسلته؟

– لست بحاجة إلى طبيب يا جاسبر.

– كن واقعيًّا، أنت تسعل كالمسلول. لقد ازداد الأمر سوءًا منذ مكالمتك الهاتفية الأسبوع الماضي.

كان على حقّ. فأنا أتعايش مع هذا السعال منذ أسبوعين الآن وقد أفسح في المجال اليوم لالتهاب الجيوب الأنفية والحمّى فبتّ أتهادى مترنّحًا.

– في انتظار الموعد، فلنذهب إلى مطعم، قال مسرورًا. أدعوك إلى غراند كافيه.

بدا مبتهجًا بقدر ما كنتُ مكتئبًا. هي ليست المرّة الأولى التي ألاحظ فيها حبّه للطعام.

– لست جائعًا حقًّا يا جاسبر، أبلغته وأنا أرتشف مشروبي الساخن الطافح بالكحول.

– لا تقلق: أنا من سيأكل! وأنت ستتمكّن من استنشاق بعض الهواء.

2.

ما كدنا نصل إلى الشارع حتى هاج واستشاط على شرطية مرور ت له مخالفة لركن سيّارته في مكان غير مسموح. كان يقود (بشكل سيّئ) سيّارة جاغوار إي-تايب 3 من السبعينيات. تحفة أثرية تتحوّل بين يديه آلة تبثّ الخطر بقدر ما تنشر التلوّث.

اقتادني إلى جادّة مونبارناس حيث ركن (بشكل سيّئ) سيّارته عند تقاطع شارع ديلامبر. الغراند كافيه مطعم رخيص مجاور يقع قبالة كشك لبيع المأكولات البحرية. محلّ باريسي لهديكور تقليدي: كراسي باومان من الخشب المنحني، طاولات بيسترو صغيرة، مفارش مائدة من القطن، قائمة طعام مكتوبة على ألواح. كانت ساعة الذروة لكن، لحسن حظّ جاسبر، وجد لنا مدير الصالة مكانًا في الداخل. طلب على وجه السرعة زجاجة شاردونيه (نبيذ مات دولوكا من وادي نابا) بينما اكتفيت بقارورة مياه شاتيلدون.

– حسنًا، ما الذي يحدث معك أوزورسكي؟ سألني بعد أن جلسنا.

– يحدث الكثير، تعرف ذلك جيّدًا. الجميع يظنّ أنّني رجل سيّئ، لم يعد في إمكاني رؤية ابني في ظروف عادية، واكتشفت توًّا أنّ زوجتي ستأخذه للعيش في الولايات المتّحدة.

–سوف يتعرّف إلى بلد جديد.

– الموضوع لا يحتمل المزاح.

– لكنّك تبالغ مع هذا الطفل، هذا سخيف! دعه يكبر مع والدته واهتمّ بعملك! سيكون ممتنًّا لك عندما يكبر.

وأسهب في خطبته الفلسفية، متأسّفًا على جنون عصرنا الذي يسير على طريق الخراب بِتأليه الإنسان وتقديس الطفل.

– الأمر سهل بالنسبة إليك، فأنت لست أبًا!

– لا والحمد لله! نطق قائلًا.

بعد أن طلب فطيرة الراعي بلحم العجل ودزينة من المحار، عاد ليتحدّث عن كتابي:

– مع ذلك يا أوزورسكي، لا يمكنك أن تترك شخصيتك في وضع حرج والمسدّس في رأسها.

– أنا من يكتب جاسبر، أفعل ما أريد.

– أقلّه قل لي ما سيحدث بعد ذلك. ماذا حدث لكاري الصغيرة؟

– لا أعرف شيئًا.

– لا أصدّقك.

– إنّها مشكلتك. مهما يكن، فهذه هي الحقيقة.

شارد الذهن، أخذ يملّس شاربيه المعكوفين.

– تكتب منذ فترة طويلة، أوزورسكي...

– إذًا...؟

– أنت تدرك جيّدًا أنّه بالنسبة إلى الروائي، فإنّ فلورا كونواي هذه التي تظهر في كتابك هي هديّة من السماء!

– هديّة؟

– المخلوق الذي يطلب لقاء خالقه. هذا رائع. يمكنك أن تكتب ما يشبه رواية فرانكنشتاين عصرية!

– لا يبدو هذا التشبيه مبشّرًا. حسبما أتذكّر، كان المخلوق يبث الرعب أينما حلّ وفيكتور فرانكنشتاين يموت في النهاية.

– إنّها تفاصيل. بالله عليك، أوزورسكي، توقّف عن رؤية السواد حولك. سنموت جميعًا في النهاية!

أخذ استراحة طويلة كانت كافية ليتذوّق فطيرته.

– هل تعرف ما عليك فعله؟ سأل بشكل مباغت حاملًا شوكته.

– أخبرني.

– أن تظهر نفسك في الرواية وتوافق على لقاء فلورا.

– أبدًا.

– بلى! هذا بالضبط ما أحبّه في رواياتك: أشعر فيها بأنّك كوّنت علاقات وثيقة مع شخصياتك! وأنا متأكّد من أنّني لست الوحيد.

– أجل، لكن هذه المرّة تجاوز الأمر حدّه.

رمقني بنظرة مرتابة، ثمّ قال:

– أنت خائف، أليس كذلك؟ أنت تخاف حقًّا من إحدى شخصياتك يا أوزورسكي؟

– لديّ أسبابي.

– آه، أرغب فعلًا في معرفتها!

– إنّها ليست مسألة خوف بقدر ما هي مسألة غيرة و...

– ما رأيك بمشاركتي ميل فوي بالغراند مارنييه؟ يبدو أنّ مذاقه من الجنّة.

تابعت منطلقًا، متجاهلًا سؤاله الأخير:

– ... وبما أنّك تعرف المهنة بعض الشيء، فأنت تعلم أنّ من دون الرغبة في الكتابة لا وجود لرواية ناجحة.

– انتبه إلى الرذاذ المتطاير من فمك! اللعنة، احتفظ بجراثيمك لنفسك. ثمّ إنّني أشعر بالفضول لأتعرّف إلى معنى الرواية الناجحة.

– الرواية الناجحة هي أوّلًا وقبل كلّ شيء رواية تسعد قارئها.

– ليس صحيحًا.

– والرواية الناجحة هي بمثابة قصّة حبّ ناجحة.

– وما هي قصّة الحبّ الناجحة؟

– هي عندما تلتقي بالشخص المناسب في الوقت المناسب.

– وما علاقة كلّ هذا بالكتاب؟

– لا يكفي امتلاك قصّة جيّدة وشخصيات جيّدة لإنجاح الرواية. عليك أن تكون أيضًا في لحظة ما من حياتك يمكنك الاستفادة منها.

– هذا الكلام الفارغ احتفظ به للصحافيين، أوزورسكي. أنت تنبش كلّ الأعذار كي لا تكتب.

.3

انعطفت السيّارة الإنكليزية العتيقة يسارًا في اتّجاه جادّة راسبيل. منتشيًا من كؤوس النبيذ الكثيرة التي تجرّعها، كان جاسبر مصدر خطر حقيقيّ على الطريق. كان ينعرج بسيّارته يمينًا ويسارًا والراديو يصدح بمعزوفة تشيللو لِباخ، قدمه لا تزال على الدوّاسة لزيادة السرعة بالرغم من حركة المرور النشطة.

– ما اسم طبيبك؟ سألته وهو يتّجه يسارًا إلى شارع غرونيل.

– رافائيل.

– كم عمره؟

– ديان رافائيل، امرأة.

بدا أنّه تذكّر أمرًا ما مع وصولنا إلى شارع بيل شاس، فأشار إلى علبة على المقعد الخلفي:

– أحضرت لك هديّة.

التفتّ لألقي نظرة على محتويات العلبة: كان هناك رسائل وإيميلات مطبوعة أرسلها القرّاء من طريق محرّري. اطّلعت على بعضها. كانت في معظمها رسائل ودّية، لكن عندما تكون عاجزًا عن الكتابة تصبح هديّة سامّة لأنّك تشعر بأنّك ستخيّب آمال كلّ هؤلاء...

استدارت سيّارة الجاغوار من شارع لاس كاز وتوقّفت في شارع كازيمير بيرييه، على مقربة من برجَي بازيليك سانت كلوتيلد.

– وصلنا، قال جاسبر. هل تريد أن أرافقك؟

– سوف أتدبّر أمري، شكرًا. عد إلى المنزل وخذ قيلولة، نصحته وأنا أترجّل من السيّارة.

– أبقني على اطّلاع.

على الرصيف، لمحت لافتة العيادة.

– ولكن، هي طبيبة نفسية!

أنزل جاسبر زجاج النافذة. في غضون ثوان، ارتسمت على وجهه علامات أكثر جدّية. وقبل أن ينطلق مسرعًا، حذّرني بأعلى صوته:

– هذه المرّة لستَ قادرًا على الخروج من الحفرة لوحدك، أوزورسكي.

.4

حتى هذا اليوم، لم تطأ قدمي عيادة طبيب نفسي قطّ، وهو ما كنت، بغباوة، فخورًا به. كنت دائمًا أعتبر أنّ الكتابة تسمح لي باكتشاف عصبيّتي وهواجسي وبلورتها وتحريرها.

– أهلًا بك، سيّد أوزورسكي.

كنت قد تخيّلت المعالجة النفسية صورة مستنسخة عن سيغموند فرويد، لكن على الإطلاق. كانت ديان رافائيل امرأة في مثل سنّي ذات وجه لطيف، عيناها زرقاوان صافيتان، ترتدي كنزة من الموهير لونها أزرق لافندر كأنّها خارجة توًّا من إعلان قديم لمنظّف غسيل أو من أرشيفات عن آن سنكلير.

– اجلس من فضلك.

كانت العيادة، التي تقع في الطابق الأخير، عبارة عن غرفة طويلة تطلّ على مناظر بديعة تبدأ بكنيسة سان سولبيس والبانثيون وتمتدّ حتى مونمارتر.

– من هنا، أشعر بأنّني مراقِبة في مركز رصد الكوارث لسفينة قراصنة، فأستشعر حدوث العواصف والأعاصير والمنخفضات. وهو أمر ملائم لطبيبة نفسية.

كانت الاستعارة في محلّها. لا بدّ أنّها تقولها أمام جميع مرضاها.

قعدت قبالة ديان رافائيل على كرسيٍّ من الجلد الأبيض.

بعد عشرين دقيقة من محادثة لا بأس بها، كانت قد طوّقت مشكلتي: الانقضاضات المتكرّرة للخيال التي تلوّث حياتي العاطفية والعائلية. فعندما يمضي المرء معظم نهاره هائمًا في عالم خيالي، يصبح من الصعب المضي في الاتّجاه المعاكس. فيُصاب بالدوّار مع تلاشي الحدود.

– لستَ مجبرًا على تحمّل هذا، أكّدت المعالجة. لكن عليك أن تكون مصمّمًا على استعادة السيطرة.

كنت أتّفق معها. لكنّني لم أكن أرى المخرج بوضوح. أخبرتها بالقصّة التي بدأت كتابتها وعن جاسبر الذي أرادني أن أقبل تحدّي فلورا كونواي وأرضى بمقابلتها من خلال الكتابة.

– لكنّها فكرة رائعة! افعل ذلك كتمرين علاجي. إجراء رمزي فعّال لإعادة توكيد هيمنة الحياة الواقعية على عالم الخيال، والدفاع عن مكانة الكاتب والحرّيّة التي تنطوي عليها.

بدا الأمر مغريًا لكنّني كنت متشكّكًا في فاعلية هذا التمرين.

– هل تخيفك تلك المرأة؟

– لا، أكّدت لها.

– إذًا اذهب وأخبرها بذلك في وجهها!

كانت قد أعدّت لجلستها جيّدًا، فأحضرت مقتطفًا لتستشهد من خلاله بمقابلة لستيفن كينغ يقول في مضمونها أنّ تقديم شياطينه من خلال القصّة هو أسلوب علاجي قديم، طرد للأرواح الشريرة يسمح له بتقيّؤ كلّ غضبه وحقده ويأسه على الورق. «علاوة على ذلك، أتقاضى أجرًا لفعل ذلك»، يشير كينغ. «ثمّة أشخاص معزولون في غرف لها جدران مبطّنة في كلّ أنحاء العالم لا يمتلكون هذه الحظوة».

5.

كنت في طريقي إلى مدرسة ثيو عندما تلقّيت رسالة نصّية من خديجة: «كن على حذر، ألمين قرّرت الذهاب بنفسها لإحضار ثيو!».

كانت تغلبها أحيانًا، مرّة أو مرّتين في الشهر، نزوة، فتقرّر فجأة أنّها لم تعد بحاجة إلى مربّية. حتى أنّها كانت تقول لخديجة أنّ مجيئها لم يعد ضروريًّا وأنّها، من الآن فصاعدًا، سوف تتفرّغ لثيو. لم يكن هذا القرار في العادة يدوم أكثر من يوم أو يومين. وفي انتظار ذلك، كان يفوتني موعد اللقاء مع ثيو.

استدرت محبطًا وعرجت على صيدلية لإعادة التموّن بالدوليبران ودواء الكحّة والزيوت الأساسية. عدت إلى المنزل، رفعت الزرّ الكهربائي مرّة جديدة وسخّنت الماء لاستنشاق البخار.

ثمّ ارتميت على الأريكة وأغمضت جفنيّ لحظات أفكّر في ما قاله لي جاسبر والمعالجة النفسية. كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل تقريبًا عندما فتحت عينيّ. بردٌ قارس أيقظني. يا جهاز التدفئة اللعين...

أشعلت المدفأة وزحفت إلى المكتبة حيث تناولت نسخة قديمة من رواية فرانكنشتاين كنت قد درستها في المدرسة الثانوية.

إنّها ليلة من ليالي تشرين الثاني/نوفمبر القاتمة، تمكّنت فيها أخيرًا من النظر في ثمرة فترات عملي المطوّلة. [...] كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا. المطر الكئيب ينقر على البلاطات، والشمعة تذوب وتحترق. فجأة، وفي ضوء الشمعة المرتجف، لمحت المخلوق يفتح نصف عينيه الصفراوين الباهتتين. أخذ نفسًا عميقًا وارتعدت أطرافه متشنّجًا.

رائع.

حضّرت لنفسي محتوى ماكينة قهوة أرابيكا كاملة، جمعت أصدقائي الوحيدين المتبقّين لي على كوكب الأرض – دوليبران، قارورة دورينكوس، أقراصًا للحنجرة – وتدثّرت ببطّانيّتي قبل أن أجلس خلف المكتب.

شغّلت حاسوبي، فتحت معالج النصوص على صفحة بيضاء وأنا أنظر إلى المؤشّر المزعج. عليّ أن أعترف. يجب الاعتراف بأنّني خلال الأشهر الأخيرة، فقدت السيطرة على حياتي. عليّ أن أحاول استعادة التحكّم. لكن هل هذا ممكن وأنا مسمرّ أمام شاشة؟ رحت أنقر على لوحة المفاتيح. أحبّ هذا الصوت الناعم الرقيق. كتيّار لا نعرف مطلقًا إلى أين سيسحبنا. الداء والدواء. الدواء والداء.

.1

جنوب ويليامسبورغ

محطّة مارسي أفنيو

أحسّ بالاختناق. وسط حشد الناس وازدحامهم، أجرجر قدميّ المرتعدتين حتى مخرج المترو. راح الحشد البشري يتدفّق على طول الرصيف. أخيرًا بعض الهواء. وإنّما أيضًا الأبواق، السير، جلبة المدينة التي تـ...

7

شخصية تبحث عن مؤلّف

لأكثر من سبب، الكتابة هي الفعل المتمثّل بقول الأنا، بالسيطرة على الآخر، بمخاطبته: استمع إليّ، انظر إلى الأشياء بعينيّ، غيّر رأيك. إنّها فعل تهجّمي، لا بل عدواني.

جوان ديديون

.1

جنوب ويليامسبورغ، محطّة مارسي أفنيو

أحسّ بالاختناق. وسط حشد الناس وازدحامهم، كنت أجرجر قدميّ المرتعدتين حتى مخرج المترو. كان المدّ البشري يتدفّق على طول الرصيف. أخيرًا بعض الهواء. وإنّما أيضًا الأبواق، السير، جلبة المدينة التي تصمّ أذنيّ.

سرت بضع خطوات على الرصيف. مترنّحًا. هي المرّة الأولى التي أكون في رواية من رواياتي. الوضع يشبه الفصام: نصفي الأوّل يقبع في باريس أمام شاشة الحاسوب والنصف الآخر هنا، في

نيويورك، في حيّ مجهول لا ينفكّ ينبض بالحياة مع كلّ دقيقة ينقر شخصي الآخر، هناك، على لوحة المفاتيح.

أخذت أتأمّل المشهد وأتنشّق الهواء المحيط. في الوهلة الأولى، لا شيء يبدو مألوفًا. بطني يؤلمني وألم رامح يخترق عضلاتي. لقد ترك خلعي عن الواقع آثاره. كان جسمي يعطيني انطباعًا بأنّه قد تمزّق كما لو كنت جزءًا غريبًا يحاول عالم الخيال رفضه. لا يدهشني ذلك مطلقًا. فقد عرفت منذ فترة طويلة أنّ لعالم القصّة الخيالية قوانينه الخاصّة، لكنّني من دون شكّ أسأت تقدير نفوذه.

نظرت إلى فوق. كانت السماء معدنية ورياح باردة تهدهد أوراق أشجار الكستناء. على جانبي الطريق، كانت تدور رقصة باليه غريبة. رجال ملتحون بمعاطف قاتمة وقبّعات سُود يجوبون الأرصفة ويرمقونني بنظرات غريبة. أمّا نساؤهم فكنّ يرتدين تنانير طويلة وطبقات متعدّدة من الملابس فيما يخفين شعورهنّ بعمائم بسيطة. أدركت من الكتابات العبرية والمحادثات باليديشية مكان وجودي: أنا في الحيّ اليهودي الحسيدي لويليامسبورغ. يفصل هذا الجزء من بروكلين عالمان متناقضان كلّيًا: من الشمال حيّ بوهو-هيبستر، ومن الجنوب مجتمع ساتمار. «الفنّانون» الموشومون، عشّاق الكينوا والبيرة المصنوعة يدويًا من جهة، والأرثوذكس المتشدّدون الذين، على مرمى حجر من الحداثة في مانهاتن، يحافظون على نمط حياة تقليدي معزول عن تطوّرات المجتمع، من الجهة الأخرى.

ما زال بطني يؤلمني لكنّني شيئًا فشيئًا عمدت إلى جمع شتات أفكاري واستوعبت ما أفعل هنا. عندما بدأت كتابة الوجه الثالث للمرآة، قرأت قراءات عدّة حتى أنتقي الحي الذي ستعيش فيه فلورا واخترت ويليامسبورغ على وجه التحديد لموقعه المجاور لهذا الحي

اليهودي الأرثوذكسي. لأنّ سكّانه، الخارجين مباشرة من شتيتل[1] من القرن التاسع عشر، يبدون أنّهم نجحوا في السفر عبر الزمن. لست الوحيد الذي يسعى إلى الهروب من هذا الواقع ومن هذا العصر. أفعل ذلك بخيالي، لكنّ آخرين يفعلونه بطرائق أخرى. برفضهم أن يكون للعالم الحديث سيطرة عليهم. هنا، يتمّ الإشراف على النظام المدرسي والحصول على الرعاية الصحّية والقضايا القانونية والطعام من المجتمع المحلّي. وفي هذا البعد الذي عفى عليه الزمن، وسائل الإعلام والشبكات الاجتماعية والحاجة الملحّة للحداثة لا وجود لها.

شيء ما يحفر في بطني الفارغ وغثيان شديد يضايقني كأنّ الجوع يمزّق أحشائي. دفعت باب أوّل متجر بقالة كوشر صادفته في طريقي. يقع المتجر في مبنى من الآجر المصفرّ وينقسم جزءين تفصل بينهما تعريشة من الخيزران لعزل الزبائن الرّجال عن الإناث. طلبت طبقين يتخصّص فيهما المحلّ: طبق خبز البيتا المحشوّ بالفلافل وطبق العجّة والبسطرمة. التهمت الطبقين بشراهة، ومع انحسار الجوع تدرّجًا، شعرت بأنّني ترسّخت أخيرًا في عالم الخيال وبأنّني بتّ أتأقلم مع المناظر المحيطة.

بعد أن استعدت قواي، تابعت طريقي شمالًا نحو ويليامسبورغ. اجتزت مسافة كيلومتر ونصف وسط ألوان الصيف الهندي وبين أشجار الدلب ذات الأوراق الذهبية وصولًا إلى بيوت الحجر الرملي الأحمر لجادّة بيدفورد.

عندما بلغت تقاطع شارعي بيري وبرودواي، بدا لي مبنى لانكستر مهيبًا وشاهقًا أكثر ممّا هو في الرواية. كان هناك عشرات المصوّرين الفوتوغرافيين والصحافيين يتمشّون ذهابًا وإيابًا أمام

[1] الاسم اللاتيني للقرى اليهودية في أوروبا قبل المحرقة.

واجهة محلّ لغسل الملابس: مجموعة مرؤوسين غارقين في الحزن والتعب، جنود صغار في خدمة البذاءة استفاقوا برهة من سباتهم بعد أن لمحوني أدخل العمارة.

ها أنا الآن في القاعة الجديدة للمدخل التي كانت أكثر فخامة ممّا تخيّلته: بلاط من رخام كارارا، إنارة خافتة، كسوة جدارية من الخشب الخام وسقف مرتفع بشكل مذهل.

– كيف أساعدك، سيّدي؟

رفع تريفور فولر جونز، المسؤول عن القاعة، عينيه عن شاشته. كان كما تخيّلته تمامًا، مطوّقًا بسترة بنّية ذات ضفائر ذهبية، ظنّ أنّني أحد المروّجين للشائعات الذين يتعامل معهم منذ بداية «قضيّة كونواي». بقيت مسمّرًا أمامه بضع ثوانٍ فاغر الفم ومتردّدًا. ثمّ حسمت أمري.

– مرحبًا، أودّ الصعود إلى سطح المبنى.

رفع تريفور حاجبه.

– ولأيّ سبب من فضلك؟

كما في الكثير من الأحيان، حاولت أن أبتعد عن المراوغة:

– أعتقد أنّ السيّدة كونواي في خطر.

هزّ الحارس رأسه.

– وأنا أعتقد أنّ عليك مغادرة هذا المكان.

– أنا أصرّ. إذا كنت لا تريد تحميل ضميرك فمن الأفضل أن تدعني أصعد.

هذه المرّة، تنهّد تريفور فولر جونز بسخط وبالرغم من جثته القويّة، قفز فجأة من وراء مكتب الاستقبال. في لمح البصر، كان قد أمسك بذراعي وجرّني من دون سابق إنذار نحو المخرج. حاولت الاعتراض لكنّ طول الرجل يقارب المترين ووزنه لا يقلّ عن مئة

كيلوغرام. وفي الوقت الذي أوشك أن يرميني على الرصيف، أدركت أنّ توازن القوى ليس كما اعتقدت، وأنّ لديّ كلّ الأسلحة لتحييد خصمي.

– لا ترغمني على إخبار بيانكا بكلّ شيء!

تجمّد الحارس في مكانه. فتح عينيه واسعتين كأنّه غير متأكّد من أنّه سمع جيّدًا. كرّرت:

– اسمح لي بالدّخول وإلّا ستواجه مشاكل مع بيانكا.

زاد الضغط على زندي.

– ما علاقة زوجتي بهذا؟ زمجر غاضبًا.

نظرت إلى فولر جونز من دون أن أرمش. كيف أجعله يفهم أنّه ليس سوى أحد ابتكاراتي؟ شخصية ثانوية في قصّة تُكتب الآن ولا توجد إلّا في ذهني؟ كيف أجعله يفهم أوّلًا وقبل كلّ شيء أنّني عالم بكلّ أمور حياته؟

– لا بدّ أنّ بيانكا ستهتمّ بالرسائل النصّية والصور التي ترسلها بانتظام إلى ريتا بيشر، مصفّفة الشعر الشابّة البالغة من العمر 19 عامًا فقط، والتي التقيتها في صالون سويت بيكسي في شارع جاكسون.

هي إحدى عاداتي كروائي: قبل أن أبدأ الكتابة، أنمّق شخصياتي من خلال كتابة سيرة ذاتية مفصّلة لكلّ منها. وإن كانت هذه المعلومات في معظمها غير متوفّرة في الكتاب، إلّا أنّها طريقة لا مفرّ منها للتعرّف إليها بشكل أفضل.

– لا أعرف ما إذا كانت زوجتك ستسعد لسماع أنّك تكتب لريتا رسائل مثل «أفكّر في مؤخّرتك طوال النهار» أو حتى «أريد أن أرشّ ثدييك بسائلي المنوي فأراهما يزهران».

امتقع وجه الحارس. لقد أصبته في مقتل. استعدت في ذهني مقولة أندريه مارلو: الإنسان هو عادة «ما يخفيه، كومة صغيرة بائسة من الأسرار».

– ولكن كيف يمكنك أن تعرف؟ تلعثم قائلًا.

وجّهت له الضربة القاضية:

– أخشى أيضًا ردّ فعلها عندما تعلم أنّك قدّمت لريتا في عيد الحبّ بروش من المينا الفضّي بقيمة ثمانمئة وخمسين دولارًا. كم كلّفت باقة الزهور التي جلبتها لزوجتك بالفعل؟ عشرين دولارًا، على ما أظنّ.

خفض فولر جونز رأسه وأفلتني. أرى الآن أمامي دمية من قماش مسالمة. من الصعب أن تؤدّي دور الرّجل القوي عندما تكون مذنبًا.

2.

تركته ورائي ومشيت في اتّجاه المصعد. في آخر القاعة، رأيت ثلاثة مصاعد بأبواب معدنية برونزية. طلبت أحدها وضغطت الزرّ الأخير. تحرّكت الآلة مصدرةً صريرًا معدنيًا. عندما وصلت، انفتحت الأبواب وتنبّهت إلى أنّه لا يزال عليّ صعود طابق إضافي سيرًا على الأقدام لبلوغ السطح.

بمجرّد الوصول إلى هناك، تفاجأت بعاصفة من الرياح. وضعت يدي على جبيني لأحجب الهواء ودخلت ملعب البادمنتون. المنظر من هنا يخطف الأنفاس. حتى أنّه مُسكر أكثر ممّا ذكرت في مخطوطتي. تبدو السماء، التي كانت قبل بضع دقائق لا تزال صافية ومشرقة، كأنّها تلوّنت بالفحم. لم أستطع السيطرة على نفسي وتوقّفت برهة أتأمّل المنظر البانورامي المسبب الدوّار. في الجانب الآخر من المضيق، يكشف الخط المعدني لناطحات السحاب الأشكالَ الأسطورية لمباني نيويورك: أبراج جسر ويليامسبورغ، بناء إمباير ستيت، قمّة مبنى كرايسلر، الهيكل الضخم لناطحة السحاب ميت لايف.

– أعطيك ثلاث ثوان لتمنعني من ذلك: واحد، اثنان، ثلا...

انتزعني صوت الصراخ من تأمّلاتي فانتفضت واستدرت نصف استدارة. في الطرف الآخر من الملعب، بالقرب من خزّان المياه، رأيت فلورا كونواي. كانت توجّه سلاح روتيللي إلى رأسها وتتحضّر لإطلاق النار.

– توقّفي! صرخت لأعلمها بوجودي.

كنت قد أقنعت نفسي بسذاجة بأنّها حين تراني سوف ترخي دفاعها. لكنّ فلورا كانت مذعورة مثلي تنظر إليّ بتحدّ بعينيها الخضراوين.

– هيّا، لا تكوني حمقاء. ضعي المسدّس جانبًا.

أخفضَت مسدّس الغلوك على مهل لكنّها، بدل أن تتركه، صوّبته نحوي.

– أوه! أيمكننا التحدّث؟

بدلًا من أن تهدأ، تمسّكت فلورا بمقبض المسدّس بكلتا يديها وإصبعها ثابتة على الزناد متقدّمة نحوي وجاهزة لإطلاق النار.

أدركت حينذاك أنّني، وبعكس حارس المبنى، أشعر بالعجز أمام فلورا كونواي. اعتقدت أنّني كنت على أرضي، لكنّ الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق. في تلك اللحظة، ندمت ندمًا شديدًا لأنّني استمعت إلى جاسبر وديان رافائيل. سهلٌ عليهما تقديم نصائح لا تخصّهما. عالم القصّة الخيالية محفوف بالمخاطر، لطالما عرفت ذلك. تمامًا كما كنت أعرف أنّني قد خاطرت فعلًا عندما قبلت بالمغامرة ودخلت هذه المنطقة. سوف ينتهي بي الأمر بشكل مثير للشفقة مع رصاصتين في جسدي تطلقهما شخصية من مخيّلتي. قصّة حياتي منذ الطفولة. دائمًا العدوّ الوحيد نفسه: أنا.

– فلورا، كوني عقلانية. علينا حقًّا أن نتحدّث.

– من أنت بحقّ الجحيم؟

– أدعى رومان أوزورسكي.

– لا أعرفك.

– بلى، تعرفينني جيّدًا، هذا أنا: العدوّ، الحقير، الروائي...

حاولت ألّا أظهر خوفي. بقيت فلورا في موقع دفاعي تواصل التقدّم من دون أن تزيح نظرها عنّي.

– ومن أين تأتي؟

– من باريس. أعني، من باريس في الحياة الواقعية.

قطّبت حاجبيها. هي الآن على بعد أمتار قليلة منّي. على الرغم من السحب المنخفضة، سمحت فجوة في السماء بانعكاس أشعة الشمس على سطح إيست ريفر. وضعت فلورا المسدّس على جبهتي. بلعت ريقي قبل أن أحاول مرّة أخرى إقناعها.

– لماذا تريدين قتلي وأنت من طلبت منّي المجيء!

كانت منقطعة الأنفاس، لاهثة. بدأ المنظر حولنا يتشوّش وينفصل كأنه مرآة مكبّرة. بعد لحظات طويلة من التردّد، وفي اللحظة التي انخفضت توقّعاتي تمامًا، أخفضت سلاحها قبل أن تصيح بي:

– من الأفضل لك أن يكون تبريرك جيّدًا.

3.

موانئ بروكلين

دخلت حياة فلورا كونواي منذ أقلّ من ساعة لكنّها كانت جزءًا من حياتي فترة أطول بكثير. بعد مشادّتنا على سطح مبنى لانكستر، أقنعتها بإجراء مناقشة هادئة.

هذا التبادل الأوّل كان مربكًا بعض الشيء إذ تقبّلت فلورا بسرعة التناقض الذي ينطوي عليه الموقف. لقد فُتحت ثغرة في عمق وعيها. وبعد أن مزّقت حجاب الجهل، خرجت من كهفها إلى

الأبد. هكذا، لم تضيّع الوقت في إنكار أنّها شخصية روائية. بيد أنّ ما رفضته كان أن أتوقّف عن كتابة قصّتها. بدأنا نتشاجر ولأنّها كانت تختنق في شقّتها، أخذتني إلى حانة برازيلية في ويلیامسبورغ.

كانت حانة ذا فاڤيلا تقع على طول الواجهة البحرية في مرأب سابق فيه فناء ظليل ومزدحم وقت الغداء، يطلق عليه السكّان المحلّيون اسم «حديقة البيرة». ونظرًا إلى كوني لم أكن أعرف مقدار الوقت الذي لديّ، دخلت مباشرة في صلب الموضوع:

– لن أكمل كتابة قصّتك، فلورا. وقد أتيت لأخبرك بهذا.

– آه، لا يمكنك أن تقرّر ذلك بنفسك.

– أنت تعلمين جيّدًا أنّه كذلك.

– وما الذي يعنيه هذا بالتحديد؟

رفعت كتفيّ.

– هذا يعني أنّني سأتوقّف عن العمل على هذا النصّ. لن أفكّر فيه بعد الآن وسوف أمضي قدمًا.

– ستحذف بياناتك من حاسوبك، هل هذا ما تريد قوله؟ سوف تلقي بحياتي في سلّة المهملات بنقرة واحدة على جهاز الكمبيوتر خاصّتك؟

– أنت تبسّطين الأمر للغاية، لكنّه صحيح.

جحظت عيناها الممتلئتان غضبًا. كان وجهها أنعم ممّا تخيّلته. كانت ترتدي فستانًا من الصوف باللون الكريمي وسترة ضيّقة من الدنيم وتنتعل حذاءً طويلًا بلون الكراميل. لم تكن قساوتها تنعكس في مظهرها بل في نظرتها، في نفاد صبرها، في نبرات صوتها.

– لن أدعك تفعل هذا، قالت بحزم.

– كوني عقلانية، أنتِ غير موجودة!

– إذا لم أكن موجودة، فما الذي تفعله هنا؟

– وجودي هنا نوع من التمرين العلاجي، بدأه محرّري ثمّ طبيبتي النفسية. هي حماقة، أعترف لك بذلك.

دنا منّا ساقٍ كان يرتدي قميصًا بلا كمّين يظهر ذراعيه وقد غطّتهما الوشوم وقدّم لنا كأسي الكايبيرينيا اللذين طلبناهما. شربت فلورا نصف كأسها جرعة واحدة قبل أن تصيح بي:

– أنا أطلب منك شيئًا واحدًا فقط وهو أن تعيد لي ابنتي.

– لست أنا من أخذها منك.

– عندما تكتب، عليك أن تتحمّل مسؤوليّاتك.

– ليس لديّ أيّ مسؤوليّة تجاهك. مسؤوليّتي فقط تجاه قرّائي، ولكن...

– خدعة ديماغوجية بامتياز مسألة القرّاء هذه، قاطعتني قائلة.

تابعت تبريراتي:

– لديّ مسؤوليّة تجاه القرّاء، لكن فقط بعد أن أختار نشر القصّة. وهو ليس الحال مع قصّتك.

– لمَ كتبتها إذًا؟

– وهل تنشرين كلّ ما تكتبين؟ أنا لا أفعل.

أخذت جرعة من الكحول ونظرت حولي. كان الطقس قد أصبح معتدلًا بشكلٍ مذهل من جديد. بدا المكان فريدًا بتسقيفة الزنك المتأكّلة التي تتدلّى منها كرمة العنب وبعربة الطعام القديمة لبيع التاكو. حانة ريفية بامتياز تنضح بروح السالسا.

– يكمن جوهر الابتكار في تجربة الأشياء مرارًا وتكرارًا، دون الوصول الحتمي إلى النهاية أو الرغبة في تتبّع أثرها. الأمر سيّان في كلّ أنواع الفنون. لقد أحرق سولاج مئات اللوحات التي لم يكن راضيًا عنها، وكان بونرد ينقّح لوحاته الخاصّة في المتاحف بينما اعتاد

سوتين أن يعيد شراء لوحاته من التجّار لتجديدها. المؤلّف هو سيّد عمله، لا العكس.

– توقّف عن التباهي بمعرفتك في الفنون...

– ما أعنيه هو أنّني، مثل عازف البيانو، يجب أن أتمرّن. أكتب كلّ يوم، حتى أيّام الآحاد، حتى في ليلة عيد الميلاد، حتى عندما أكون في عطلة. أشغّل الكمبيوتر وأكتب أجزاء من قصص، أخبارًا، خواطر. وإذا كان ما أكتبه يلهمني، أستمرّ، وإلّا أنتقل إلى شيء آخر. الأمر بهذه البساطة.

– وما الذي لا «يلهمك» في قصّتي؟

– حسنًا! قصّتك... تصيبني بالاكتئاب. لا أبتهج لكتابتها. لا أستمتع فيها.

رفعت فلورا عينيها إلى فوق (ويدها لتشير للنادل بأنّها تريد كأسًا أخرى).

– لو كانت الكتابة ممتعة، لكنّا علمنا ذلك.

تنهّدتُ وفكّرتُ في فلاديمير نابوكوف الذي كان يجاهر بأنّ شخصياته هي «ملكه». عبيدٌ في عالم كان عليه «ديكتاتورًا مطلقًا»، «مسؤولًا عن استقراره وحقيقته». كان العملاق الروسي محقّ في عدم تحمّل هراء أحد. بينما كنت أنا، هنا، أتجادل مع كائن من نسج خيالي...

– اسمعي يا فلورا. لم آت إلى هنا لأناقشك بما يجب أن يكون عليه الأدب.

– ألا تحبّ رواياتي؟

– ليس تمامًا.

– ولماذا؟

– لأنّها مدّعية، متكلّفة، نخبوية.

– هل هذا كلّ شيء؟

– كلّا. الأسوأ من هذا...

– أخبرني.

– ... أنّها ليست منفتحة.

بالرغم من أنّ التدخين ممنوع، أشعلت سيجارة وأطلقت نفثًا من الدخان.

– شهادتك في الانفتاح، يمكنك...

– هي ليست منفتحة لأنّك لا تفكّرين في القرّاء. في المتعة التي تجلبها القراءة. في ذلك الشعور الفريد الذي يتملّكك عندما تتوقين للعودة إلى المنزل ليلًا لملاقاة رواية جيّدة. هذا كلّه، ليس محسوسًا بالنسبة إليك. لهذا السبب لا أحبّ رواياتك: لأنّها باردة.

– هذا كلّ شيء؟ هل أنهيت خطابك؟

– نعم، وأظنّ أنّه يجب أن نتوقّف عن التحدّث.

– لأنّك أنت من قرّر ذلك؟

– لأنّنا في قلب روايتي. سواء أعجبك ذلك أم لا، أنا السيّد الوحيد هنا. أنا من يقرّر كلّ شيء، أتفهمين؟ ولهذا السبب أيضًا أردت أن أصبح كاتبًا.

هزّت كتفيها.

– أردتَ أن تصبح كاتبًا لأنّ فكرة أن تكون طاغية يرهب شخصياته تثيرك؟

تنهّدت. إذا كان هدفها أن تجعلني ألين فهي بداية سيّئة. بل كانت كلماتها على العكس تسهّل عليّ التشبّث بقراري.

– اسمعي فلورا، سأكون صادقًا معك. ليلًا نهارًا، سبعة أيّام في الأسبوع، كلّ من حولي يغيظني، بلا هوادة. زوجتي، محرّري، وكيل أعمالي، الخزانة العامّة، العدالة، الصحافيون. ذلك السبّاك

اللعين الذي اتّصلت به ثلاث مرّات ولم يأت لإصلاح تسرّب المياه في منزلي، أولئك الذين يرغبون في أن أكفّ عن أكل اللحوم أو أن أتوقّف عن ركوب الطائرة أو يريدون أن أطفئ سيجارتي أو لا أسكب لنفسي كأسًا أخرى أو أتناول خمس حصص من الفاكهة والخضار يوميًا. أولئك الذين يخبرونني، بجدّية تامّة، بأنّه لا يمكنني كروائي أن أضع نفسي مكان امرأة، أو مراهق أو عجوز أو صيني، أو في حال فعلت ذلك، فيتعيّن عليّ أن أخضع نصوصي للتدقيق اللغوي للتأكّد من أنّها لا تسيء إلى أحد. لقد سئمت من أولئك المتطفّلين و...

– حسنًا، أظنّ أنّني فهمت الفكرة، قاطعتني فلورا.

– الفكرة هي أنّني لا أبتغي أن يغيظني شخص آخر، ناهيك بشخصيّة روائية لا وجود لها إلّا في عقلي.

– أتعرف؟ كنت محقًّا فعلًا في رؤية طبيب نفسي.

– وأنت بحاجة إلى معالج نفسي جيّد أيضًا! الآن، أعتقد أنّنا قلنا كلّ ما لدينا.

– إذًا، لن تعيد لي كاري؟

– كلّا، لأنّي لست أنا من أخذها منك.

– من الواضح أنّه ليس لديك أولاد.

– هل تعتقدين حقًّا أنّي كنت سأبدأ كتابة هذه القصّة لو لم يكن لديّ أطفال؟

– سأخبرك بشيء يا أوزورسكي. قد تتمكّن من حذف الملفّ من جهاز الكمبيوتر الخاصّ بك، لكنّك لن تتمكّن من حذفه من رأسك.

– لا يمكنك فعل أيّ شيء معي.

– هذا ما تعتقده.

– حتى ذلك الوقت، وداعًا.

– كيف ستغادر؟

– هكذا: واحد، اثنان، ثلاثة! قلت وأنا أعدّ على أصابعي.

– لكنّك لا تزال هنا.

خفضت إبهامي وسبّابتي. بقيت إصبعي الوسطى فقط مرفوعة في اتّجاهها.

هزّت رأسها في الوقت الذي تبخّرتْ أمام عينيها.

8

ألمين

أن نفهم الآخرين ليس القاعدة في الحياة.
قصّة الحياة في إساءة فهمهم، مرارًا وتكرارًا،
مرّة تلو أخرى، بإصرار، وبعد التفكير مليًّا،
إساءة الفهم مرّة أخرى.

فيليب روث

- لكنّك لا تزال هنا.

خفضت إبهامي وسبّابتي. بقيت إصبعي الوسطى فقط مرفوعة في اتّجاهها.

هزّت رأسها في الوقت الذي تبخّرتُ أمام عينيها.

خبت أنوار بروكلين فجأة حين أغلقت شاشة الحاسوب، غير مستاء على الإطلاق من نزهتي الصغيرة. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا في باريس وكانت غرفة المعيشة غارقة في ظلام دامس باستثناء بضع جمرات ما زالت تحترق في المدفأة. لقد أرهقتني هذه الرحلة إلى نيويورك لكنّني شعرت بالارتياح لأنّني أفلتّ منها بأقلّ أضرار ممكنة.

ابتلعت آخر حبّة دوليبران، هجرت الكرسيّ وخطوت بضع خطوات قبل أن أغرق في أريكتي.

.1

الأربعاء 13 تشرين الأوّل/أكتوبر 2010

استيقظت في اليوم التالي متأخّرًا لكن مستريحًا ومعنويّاتي جيّدة. لقد مرّ وقت طويل لم أنم ملء جفنيّ. حتى معاناتي بدأت تتلاشى: صرت أتنفّس بشكل أفضل، وأوّل مرّة منذ زمن لم أشعر بأنّ رأسي بين شاقوفين.

هيّا انهض! أردت أن أعتبر هذا التحسّن إشارة وأقنع نفسي بأيّ ثمن بأنّ شيئًا ما قد تغيّر. حضّرت لنفسي قهوة إسبريسّو مزدوجة وحملت بعض الخبز لتناوله في الخارج. كانت الحديقة الصغيرة جذّابة للغاية بألوانها الخريفية. لا تزال النباتات وافرة متوهّجة قبيل حلول الشتاء وشجر البرقوق يتّقد نارًا فيما شجيرات السرخس وبخور مريم تتلألأ ساطعة. وعلى مقربة من شجرة الجمّيز، كانت البهشية تنتظر من يشذّبها.

رحلتي الاستكشافية إلى عالم الخيال أنعشتني بالفعل. لقد تمكّنت من وضع النقاط على الحروف والتحرّر من قبضة فلورا كونواي. أعدت تثبيت استقلاليتي وحرّيّتي كروائي. لكنّني لم أستطع الاكتفاء بهذا النصر الرمزي. ولكي أصيب الهدف، كان عليّ تجربة الهجوم على أرض الواقع. أمن الممكن أن يكون لديّ بطاقة للّعب مع ألمين؟ محاولة أخيرة لإعادتها إلى رشدها.

صعدت إلى الطابق العلوي لأستحمّ. شغّلت الراديو في الحمّام وانزلقت تحت الدشّ. وبينما أخذت المياه تتدفّق والشامبو يملأ

أذنـيّ، رحت أستمع إلى نشرة أخبار فرانس إنتر التي كانت تصلني بشكل متقطّع:

الأربعاء، يوم آخر من تظاهرة حاشدة ضدّ خطّة الحكومة لإصلاح نظام التقاعد. تأمل التنسيقية النقابية بجمع أكثر من ثلاثة ملايين شخص في جميع أنحاء فرنسا. / كنت أبذل جهدًا كبيرًا لأتخيّل صورة ألمين بعيدًا عن كلّ الأفكار السلبية – وهو تعبير ملطّف – التي كنت أضمرها لها. / يستجهن جان كلود ميلي، رئيس الاتّحاد العامّ للعمل، الإصلاح الذي حصل لإرضاء الأسواق المالية. بعد إنشاء الدرع الضريبية، يدين الاتّحاد السياسة المتطرّفة والظالمة التي ينتهجها «رئيس الأثرياء» وتقضي برفع سنّ التقاعد إلى اثنين وستين عامًا. / كان الندم يتأكّلني لأنّني لم أكن أكثر ريبة وتركت هاتفي من دون حماية. كيف استطعت، وأنا أعرف جيّدًا طبع زوجتي المندفع وشخصيتها المتهوّرة، أن أستخفّ بأمر كهذا من دون أن أفكّر في أنّها ستبلغ هذا الحدّ؟ / تقدّر وزيرة الاقتصاد كريستين لاغارد أنّ كلّ يوم إضراب يكلّف الاقتصاد الفرنسي حوالى 400 مليون يورو ويلقي بثقله على الانتعاش الاقتصادي. / مع احترامي للضفدع، يظلّ العقرب عقربًا[1] لأنّ ذلك «في طبيعته». بسذاجتي المفرطة، كنت قد وضعت ابني في وضع صعب. / ... خطر نقص الوقود، على الرغم من التصريحات المطمئنة لوزير الطاقة، جان لويس بورلو. / لطالما اعتقدت أنّ المؤسّسات في بلدي ستحميني إذا تعرّضت لهجوم غير عادل. لكن لا الشرطة ولا القضاء دافعا عنّي. لم يسعَ أحد

[1] «العقرب والضفدع»، حكاية من عالم الحيوان تفيد بأنّ الأشخاص الأشرار غالبًا لا يستطيعون مقاومة إيذاء الآخرين حتى عندما لا يكون ذلك في مصلحتهم.

إلى معرفة الحقيقة. / أمر غير مسبوق منذ إضرابات العام 1995 الكبرى ضد خطّة جوبيه الإصلاحية! / ومع كلّ تلك التعقيدات، هل ما زلت قادرًا على السيطرة على حياتي؟ رغبت في أن أصدّق ذلك. في النهاية، وفي أيّامنا الأولى، عرفت بعض الأوقات السعيدة مع ألمين وأصبحنا والدين لهذا الطفل الصغير الرائع. / تظهر استطلاعات الرأي أنّ المضربين يحظون بتأييد شعبي قوي وأنّ 65 في المئة ممّن شملهم الاستطلاع لا يوافقون على الصرامة التي تعامل بها نيكولا ساركوزي في مواجهة المعارضين. / حتى في الأزمات التي صادفناها، كانت هناك دائمًا لحظات يسيطر فيها العقل. مع ألمين، لم تكن حقيقة اليوم هي حقيقة اليوم التالي. / ... الدخول غير المتوقّع لطلّاب المدارس الثانوية في الحركة والانسداد المتجدّد للمصافي...

فور انتهائي من الاستحمام، حلقت لحيتي وتعطّرت ثمّ لبست بنطالًا من الجينز نظيفًا وقميصًا أبيض وسترة بدلة ضيّقة. حتى أنّني رسمت أجمل ابتسامة أمام المرآة. هي تقنية الإيحاء الذاتي التي أعتمدها كي أقنع نفسي بأنّني عدت إلى لعبة الوجود العظيمة.

يرفض رئيس الوزراء فرانسوا فيون أيّ تنازل ويستنكر تحريض اليسار المتطرّف والاشتراكيين...

غادرت المنزل وسرت تحت أشعّة الشمس. كانت معالم خطّة قد بدأت ترتسم في ذهني. في شارع شيرش-ميدي هرج ومرج. صعّبت الاحتجاجات عليّ الوصول إلى محطّة سان بلاسيد للمترو. ونظرًا إلى أنّ كلّ سيّارات الأجرة كانت مكتظّة، تمشّيت حتى أقرب نقطة لتأجير الدرّاجات. اعتقدت من بعيد أنّ هناك درّاجات متبقّية

لكن عندما وصلت، أدركت أنّ كلّ الآلات مخرّبة: عجلات مثقوبة، أو إطارات مكسورة، أو مكابح معطّلة. متمسّكًا بعدم الشعور بالإحباط، ركضت إلى المحطّة التالية حيث كان الواقع نفسه. حتى أنّ رجلًا من الحيّ كان قد أحضر صندوق أدواته الخاصّ لإصلاح إحدى الدرّاجات. أهلًا بكم في باريس.

مستسلمًا، قرّرت عبور نهر السين سيرًا على الأقدام. في شارع فوجيرارد، كانت مجموعات صغيرة من المتظاهرين تتّجه نحو جادّة راسبيل حاملة الأعلام ومرتدية سترات حمراء بألوان «الاتّحاد العامّ للعمل». هناك، بدأ صبري ينفد. كانت مغادرة الموكب مقرّرة عند الساعة الثانية من بعد الظهر لكنّ المتظاهرين كانوا قد بدأوا التدريبات. راحوا يجرّبون الأبواق الهوائية ومكبّرات الصوت، يضبطون النظام الصوتي، يردّدون الأغاني («لو تعلم يا فيون، إصلاحك، إصلاحك، لو تعلم يا فيون إصلاحك أين نضعه»)، يختبرون فاعلية بعض الشعارات: «ساركوزي يا مستبدّ، اسحب ضريبتك الآن»؛ «الكعوب لا ترفع الرجال»؛ «انظر إلى ساعة الرولكس، حان وقت الثورة!» عند منصّة نقابة SUD Rail، حان موعد تناول الطعام. أخذ متطوّعون يشوون النقانق والسجق في كشك ملوّن بألوان النقابة. كانت النقانق توضع في قطعة من خبز الباغيت الفرنسي مع البصل وتُباع للناشطين بسعر يوروين. كما يمكن الحصول على كأس جعّة أو نبيذ ساخن مقابل يورو إضافي. رأيت متظاهرة تعتمر قبّعة بيروفية وتحمل حقيبة على الكتف مع شارة على سترتها كُتب عليها SUD Éducation تدنو لتطلب، بجدّية تامّة كما لو كانت في مطعم، إذا كان في إمكانها الحصول على «سندويتش بالخضار».

وسط هذا الحشد، لم يسعني سوى تصوير المشاهد في ذهني والتحديق في كلّ تفصيل: الردود السريعة، الضوضاء، الروائح، الأغاني

التي تطلقها مكبّرات الصوت. ثمّ حفظها كلّها في ملفّ مخزّن في ركن من أركان عقلي. كانت تلك مراجعي الذهنية. مكتبة أحملها دائمًا معي. بعد عام أو بعد عشرة أعوام من الآن، إذا تطلّبت روايةٌ جديدة منّي ذلك، فسوف أخرج هذا الملفّ كي أسرد وصفًا لمشهد من التظاهرات. كان الأمر يستدعي الكثير من الجهد لكنّه أصبح طبيعة ثانية كنت أجد صعوبة في مقاومتها. آلية مرهقة لم يعد في إمكاني العثور على زرّ إيقاف التشغيل فيها.

2.

تمكّنت أخيرًا من اقتلاع نفسي من الموكب ولففت حول حديقة لوكسمبورغ وصولًا إلى مسرح الأوديون. على إيقاع خطواتي على الرصيف، كنت أشاهد فيلم سنواتي مع ألمين يتسلسل أمام عينيّ فيما أحاول جاهدًا لمس أيّ انسجامٍ كان فيه. ولدت ألمين في إنكلترا بالقرب من مانشيستر لأب إنكليزي وأمّ إيرلندية. كان لديها شغف بالرقص الكلاسيكي وانضمّت إلى فرقة الباليه الملكية في لندن لكنّها تعرّضت لحادث خطير على درّاجة نارية وهي في سنّ التاسعة عشرة، مع صديقها آنذاك، عازف الغيتار المزعوم الذي كان يداعب كؤوس بيرة جينيس أكثر ممّا يداعب أوتار غيتار جيبسون. مكثت ألمين في المستشفى أكثر من ستّة أشهر ولم تتمكّن بعد ذلك من الرقص الاحترافي مجدّدًا. كان للحادث آثاره، بما في ذلك آلام الظهر المزمنة التي جعلتها مدمنة مسكّنات. شكّلت تلك الحادثة رواية حياتها المأسوية وكانت دائمًا ما تخبرها بصوت مخنوق. كان ذلك سببًا أيضًا في أن أغضّ النظر فترة طويلة عن بعض سلوكاتها. في الثانية والعشرين من عمرها، في منتصف التسعينيات، شقّت طريقها في عالم عرض الأزياء وسرعان ما أصبحت مرجعًا لمنصّات العرض.

[شارع راسين، جادّة سان جيرمان].

1.74 متر. 85-60-88. إلى جانب قياساتها، كانت ألمين في ذلك الوقت معروفة بتسريحتها القصيرة، وشعرها الأشقر البلاتيني، والنمش الإيرلندي الخفيف الذي كان يميّزها في المجال التنافسي لعرض الأزياء الذي لا يرحم. تردّدت أصداء هذه الميزة في عالم الموضة ما أتاح لها الاحتفاظ بمكان ثابت على منصّات عروض الأزياء البارزة. دخلت عالم مشاهير الأزياء من بابه الواسع وصنعت لنفسها، في المجلّات، مظهر روك مثيرًا: ابتسامة قاتلة، قميص مارينيير مقلّم، بنطال من الجينز ممزّق، حذاء دكتور مارتنز. اختلقت أيضًا شغفًا بموسيقى الميتل والهارد روك مدّعية أنّها عبرت الولايات المتّحدة الأميركية على درّاجة نارية. فسارت الأمور بشكل حسن: في ذروة شهرتها – بين عامي 1998 و1999 – تصدّرت غلاف مجلّة فوغ ثلاث مرّات ثمّ أصبحت وجه عطر لانكوم وجسّدت حملة خريف وشتاء 1999 لعلامة بوربوري.

عندما التقيتها في العام 2000، كانت ألمين قد هجرت منصّات العرض وبدأت تؤدّي أدوارًا صغيرة في الإعلانات وأفلام السينما. كانت لا تزال جميلة للغاية، وهذا الجمال جعلني أرضخ لكلّ شيء. كنت في مرحلة من حياتي أحبس نفسي فترات طويلة مقيّدًا بحاسوبي، ما تسبّب لي في نقصٍ في الحياة كان يجب تعويضه. وبعد أن حاولت سنوات نفخ الحياة في قصصي الخيالية، بتّ أحتاج إلى بعض الخيال في حياتي. كنت قد وصلت إلى نهاية وعود الحياة بالإنابة. أردت أن أختبر أنا أيضًا المشاعر التي أرسمها في رواياتي. أردت أن أكون، بدوري، شخصية في كتاب لرومان أوزورسكي. أردت الشغف، الرومانسية، السفر، المفاجأة. وجاءت ألمين لتسهّل ذلك. وإذا كان ما في رأسي يُعتبر ارتباكًا أحيانًا، فرأسها هي كان يجسّد

الفوضى العارمة. عش اللحظة! الغد يبدو بعيدًا، وبعد غد لا وجود له. في البداية، كنت تحت تأثير السحر. شكّلت قصّتنا فصلًا جديدًا في إيقاع حياتي المنتظم. فصلًا ساهم اعتزازي بنفسي في إطالته لأنّنا كنّا نبدو، من الخارج، «الثنائي المثالي» وكان ثيو قد دخل حياتنا وشغلها.

[معهد العالم العربي، جسر سولي، المكتبة الوطنية الفرنسية].

ثمّ خرج القطار عن مساره. خلال الأزمة المالية في العام 2008، نزل على ألمين وحيٌ صعقها: نحن نعيش في فرنسا في ظلّ نظام استبدادي يجسّد نيكولا ساركوزي فيه الديكتاتور. شاركتها حياتها ما يقارب ثماني سنوات ولم أكن أدرك ما تملكه من وعي سياسي. متأثّرة بمصوّر فوتوغرافي، بدأت تعاشر الأوساط الأناركية-الاستقلالية. والمرأة التي كانت، فيما مضى، تكرسّ وقتها (ومالها) لشراء الألبسة، أفرغت خزانة ملابسها بين ليلة وضحاها ووهبت كلّ أغراضها لجمعية إيمايوس[2].

حلقت شعرها ورسمت وشومًا مرتجلة على ذراعيها وعنقها: حرف الـA في دائرة والهرّ الأسود الجائع والغاضب، الرمزين الشهيرين للأناركية، إضافة إلى عبارة ACAB وهي اختصار الجملة الإنكليزية All Cops Are Bastards[3].

لقد غرس فيها أصدقاؤها الجدد – الذين كانوا يعقدون أحيانًا اجتماعاتهم الثورية في شقّتنا – شعورًا بالذنب استغلّوه بلا خجل. فعاشت ألمين في ذلك الذنب ليلًا نهارًا ووزّعت أموالها – التي كانت أموالي أيضًا بالمناسبة – في محاولة لاسترداد نفسها.

[2] جمعية إيمايوس Emmaüs هي جمعية معروفة تدير أكبر مراكز اللجوء واستقبال اللاجئين في فرنسا.

[3] «جميع رجال الشرطة أوباش».

خلال تلك الفترة، لم يعد ثيو موجودًا حقًّا في حياتها. صرت أتولّى مع خديجة مسؤولية الإشراف عليه. كنت قلقًا عليها بالفعل وحاولت مساعدتها. لكنّها كانت في كلّ مرّة تصدّني وتذكّرني بأنّ هذه حياتها ولن تقبل بأن يمليها عليها زوجها وبأنّ عهد النظام الأبوي قد ولّى.

مرّت شهور عدّة اعتقدت فيها بأنّ الخطر قد زال. فقد بدأت ألمين بالابتعاد عن الأناركيين وانبهرت بالمعلّمة زُويه دومون من لوزان التي عرّفتها إلى علم البيئة. لكنّها دخلت للأسف الدوّامة نفسها مجدّدًا وحلّت فكرة ثابتة محلّ أخرى حيث استُبدلت الرغبة في محاربة العولمة بالقلق الدائم من تأثيرات التغيّر المناخي. في البداية، كان وعيًا سليمًا شاركت فيه. لكن سرعان ما تحوّل كآبة وغضبًا، هوسًا عشوائيًّا: العالم ينهار والمستقبل إلى زوال. لم يعد أيّ من خططنا منطقيًّا، لأنّنا سنموت جميعًا غدًا أو بعد غد. لقد حوّلت كرهها للبرجوازية كرهًا للحضارة الغربية ككلّ (لم أفهم تمامًا لماذا، في ذهن ألمين، كان يحقّ للصين والهند وروسيا الاستمرار في تلويث الكوكب).

نتيجة لهذا التصلّب، أصبحت حياتنا اليومية جحيمًا. كانت تقوّم كل خطوة نخطوها – الركوب في التاكسي، الاستحمام بالماء الدافئ، تشغيل الضوء، التلذّذ بشريحة لحم، شراء قطعة ملابس – على أساس «البصمة الكربونية»، الأمر الذي كان يرفع وتيرة التوتّر ويدخلنا في نقاشات لا نهاية لها. بدأت تمقتني وتلومني على ابتعادي عن مشاكل العالم والعيش في رواياتي – كما لو كنت أنا وحدي من يُفسِد الكوكب.

وجاء ذنب جديد ليُرهِق زوجتي: لقد «أعطت الحياة لطفل سوف يعيش الحرب والمذابح». كانت تردّد تلك الكلمات على مسمع

ثيو غافلة أنّها تنقل له هواجسها. وعلى المنوال نفسه، حلّ محلّ قصّة المساء شرح مشوّش وصادم عن ذوبان الجليد، وتلوّث المحيطات وفقدان التنوّع البيولوجي. أصبح ابننا ذو السنوات الخمس يرى كوابيس عن آلاف الحيوانات النافقة وعن أشخاص يتقاتلون للحصول على كوب ماء صالح للشرب. لو كان لديّ مسؤوليّة واحدة، فهي أنّني تأخّرت في التصرّف. كان عليّ أن أمسك بزمام المبادرة وأطلب الطلاق قبل أن تفعل هي.

.3

في السماء الصافية، انقشع أمامي من بعيد عمود يوليو شامخًا. عند جادّة مورلاند، تجاوزت مبنى المكتبة الوطنية الفرنسية متوجّهًا نحو شارع مورناي إلى أكثر الأماكن الملفتة للنظر في باريس: مرسى أرسنال الذي يربط نهر السين بقناة سان مارتن. كانت ألمين قد استقرّت هنا بعد مغادرتها منزل الزوجية.

رست عشرات القوارب بمختلف أحجامها على طول الواجهة البحرية، من الزورق الطويل وصولًا إلى المركب الشراعي مرورًا بمركب tjalk الهولندي القديم والمرمّم.

كنت على جسر المشاة المعدني الممتد فوق حوض السفن حين لمحت ألمين على الجانب الآخر من المرفأ، على مقربة من درج الحجارة المؤدّي إلى جادّة باستي. صرخت لأعلمها بأنّني هنا راكضًا نحوها:

– مرحبًا ألمين.

استقبلتني بوجه غاضب:

– ماذا تفعل هنا يا رومان؟ أنت تعلم جيّدًا أنه لا يُسمح لك بالاقتراب منّي.

سحبت هاتفها لتصويري. دليل جديد تستخدمه ضدّي في المحكمة المقبلة. غير مكترث، رحت أتأمّل كلّ تفصيل فيها. كان مظهرها الخارجي لا يزال يتغيّر: شعر محلوق، جسم نحيل، سترة كاموفلاج، ثقوب في أنحاء جسدها كافّة. كانت تحمل حقيبة من قماش ووشمًا جديدًا على عنقها.

– هذا سيكلّفك الكثير، حذّرتني بعد أن أوقفت التصوير.

كنت متأكّدًا من أنّها أرسلت الفيديو في الحال إلى مكتب المحاماة الفرنسي-الأميركي وكسلر وديلاميكو الذي يدافع عن مصالحها.

محامون فظيعون تعرّفت إليهم من خلالي... أنا.

– أنت ذاهبة إلى محطّة ليون؟ سألتها مشيرًا إلى حقيبتها.

– سأقابل زُويه في لوزان، لكنّ هذا ليس من شأنك.

الآن بعد أن أصبحت أقرب، رحت أفكّ رموز العبارة التي كتبتها بالوشم: التعبير المفضّل للأناركيين والمنسوب لفيكتور هوغو. شرطة في كلّ مكان، لا عدالة في أيّ مكان.

وضعتها نصب عينيّ وباتت هدفي الوحيد.

– أريد أن نُجري محادثة طبيعية، ألمين.

– ليس لديّ ما أقوله لك.

– لست عدوّك.

– إذًا، اغرب عن وجهي.

مع وصولها إلى أعلى الدّرج، عبرت الجادّة للدخول في شارع بيرسي.

– فلنبحث عن حلّ ودّي. لا يمكنك حرماني من ابني.

– أعتقد أنّ في إمكاني ذلك. في أيّ حال، ولمعلوماتك، سوف آخذه إلى الولايات المتّحدة.

– تعلمين جيّدًا أنّه أمر غير مستحبّ لأحد. له، ولكِ، ولي.

سارت بخطى سريعة متجاهلة وجودي. تابعت مصمّمًا:

– هل تنوين الانتقال للعيش في تلك القرية في إيثاكا؟

لم تحاول الإنكار:

– سأربّيه مع زُويه. سيكون ثيو سعيدًا جدًّا معنا.

– ماذا تريدين منّي يا ألمين؟ المزيد من المال؟

ضحكت مقهقهة:

– ليس معك فلس، رومان. أنا أكثر ثراء منك.

لسوء الحظّ، كان ذلك صحيحًا. حثّت السير. إيقاع عسكري بامتياز.

– لكنّ ثيو ابني أيضًا.

– ألأنّك ضاجعتني؟

– كلّا، لأنّي ربّيته ولأنّي أحبّه.

– ثيو ليس ابنك. الطفل ينتمي لأمّه. فهي التي تحمله، وتعطيه الحياة، وترضعه.

– لقد اعتنيت بثيو أكثر ممّا فعلت. وأنا قلق عليه. لقد غرستِ في ذهنه صور نهاية العالم وقلتِ أمامه مرّات عدّة أنّك نادمة على إنجاب ولد.

– ما زلت أؤمن بذلك. إنّ الإتيان بطفل إلى هذا العالم اليوم هو تصرّف غير مسؤول.

– حسنًا إذًا، دعيه يعِش معي. بالنسبة إليّ، ثيو هو أفضل شيء حدث لي على الإطلاق.

– أنت لا تفكّر إلّا في نفسك. آلامك، راحتك النفسية. أنت لا تفكّر في الآخرين ولا فيه.

– اسمعي. لا أشكّ في أنّك تحبّين ثيو.

– أحبّه على طريقتي.

– لذلك، عليك أن تدركي أنّ أفضل شيء بالنسبة إليه، هو البقاء في باريس. حيث مدرسته ورفاقه ووالده وعاداته.

– لكن، يا لك من مسكين، كلّ هذا سيتبدّد. الاضطرابات المقبلة ستكون غير مسبوقة. ستصبح الأرض ساحة معركة.

حاولت بكلّ جوارحي أن أحافظ على هدوئي.

– أعرف أنّك قلقة بشأن كلّ ذلك وأنت على حقّ. لكنّني لا أرى العلاقة المباشرة مع ابننا.

– العلاقة هي أنّ على ثيو أن يشتدّ عوده ويصبح أقسى. عليه أن يستعدّ للأسوأ، هل تفهم؟ أن يكون مهيًّأ للثورات، للأوبئة، للحروب.

انتهى الأمر. لقد خسرت. كنّا قد وصلنا إلى المكان المقصود. كان برج الجرس العالي بساعاته الأربع الهائلة كأنّه يسحق ساحة لويس-أرماند. غير مصدّق أنّني أفعل ذلك، حاولت الاعتراف مرّة أخيرة آملًا مسّ قلبها.

– تعلمين جيّدًا أنّ ثيو هو حياتي. إذا أخذته منّي، فسأموت.

ثبّتت ألمين حقيبتها على كتفها وقبل دخول المحطّة، أجابتني:

– ولكن هذا ما أريده، رومان: أريدك أن تموت.

.4

في الساعات التي تلت، عدت سيرًا على الأقدام إلى مونبارناس وتوقّفت مرّات عدّة في المقاهي، سواء لأكل وجبة الفطور أو لتناول الجعّة. كنت مصدومًا وفي حالة تفوق أكثر كوابيسي قتامةً. لطالما عرفَت ألمين مراحل متفاوتة من الابتهاج والكآبة، غير أنّ صحّتها النفسية بدت لي اليوم مقلقة للغاية. مع ذلك، كنت الشخص الوحيد

الذي يلاحظ ذلك والأخير الذي يحقّ له التنبيه من ذلك إذ أنا من سيُحَاكَم قريبًا.

رغم كلّ الطعنات التي وجّهتها لي، تمكّنت حتى الآن من الامتناع عن كرهها لأنّني أحبّ ابني ومن دون لقائنا لم يكن ليولد. ولكن أوّل مرّة، بعد ظهر اليوم، تفاجأت بأنّني أرغب في أن تختفي من حياتنا.

بالقرب من جادّة راسبيل، وجدت مجموعة صغيرة من المتظاهرين الذين صادفتهم هذا الصباح. من الواضح أنّهم لم يغادروا مع بقية الموكب. كانوا يعيدون رسم العالم وهم يشربون النبيذ الساخن. كانت هناك لافتة موضوعة عند أقدامهم مكتوب عليها: Pour la France d'en haut, des couilles en or! Pour la France d'en bas, des nouilles encore![4] فكّرت في ما قالته لي ألمين عن عدم انخراطي في الحياة الواقعية. في هذه النقطة، لم تكن مخطئة. غالبًا ما بدا لي النضال الجماعي من دون جدوى. أيًّا يكن، كنت أجد صعوبة في الانتماء. فكرة «المجموعة» تخيفني بشكل خاصّ. كنت من مدرسة جورج براسانس: بمجرّد أن نكون أكثر من أربعة، نصبح فرقة من الحمقى. كان سلوك القطيع يرهبني والجماعة ترعبني.

في الساعة الرابعة والدقيقة العشرين وصلت إلى جادّة أوبسرفاتوار. كانت خديجة تنتظرني أمام المدرسة. قدّمت لها ملخّصًا بالكاد جمّلته عن محادثتي مع ألمين واقترحت عليها تمضية الأمسية في المنزل مع ثيو.

– يمكن ثيو المبيت عندك حتى، قالت لي. ألمين لا تعزم العودة قبل مساء الغد.

[4] عبارة تدلّ على أنّ أغنياء فرنسا ينعمون بالذهب فيما الفقراء يعيشون على الباستا.

رأيت ابني يخرج راكضًا نحونا وسرعان ما امتلأ قلبي المفطور باندفاع من الدوبامين.

استغللنا طريق العودة للتوقّف عند اثنين أو ثلاثة من التجّار وابتياع ما يلزمنا لتحضير العشاء. وهناك، بين الكرّاث وحبّات الكوسا الأخيرة لهذا الموسم، انفجرت خديجة بالبكاء. اعترفت لي بأنّها تنتحب كلّ ليلة من كثرة قلقها على ثيو.

– فكّرت في طريقة لمنع ألمين من المغادرة. يجب أن أخبرك عنها.

على الرغم من أنّ نبرتها الحازمة أخافتني قليلًا، إلّا أنّني لم أقدر إلّا أن أوافقها. مسحت دموعها بسرعة مع عودة ثيو إلينا.

عندما وصلنا إلى المنزل، أشعلت المدفأة وأشرفت على فروض ثيو المدرسية ثمّ بنينا معًا مسارًا للكرات ولعبنا. وبينما كانت خديجة تساعده في الاستحمام، رحت أحضّر عجّة بالبطاطس والبصل وأقطّع شرائح البرتقال لإعداد سلطة مغربية.

بعد العشاء، أعدّ لنا ثيو عرضًا سحريًّا أضحكنا وانتهت الأمسية بقراءة – في المرّة الألف – قصّة «حيث تكون الأشياء البرّية»[5] (كان الكتاب مهترئًا إلى درجة كنت أشعر في كلّ مرّة أنّ الصفحات سوف تتفتّت بين يديّ).

بالعودة إلى الصالون، عاونت خديجة في تنظيف المائدة وتحضير الشاي بالنعناع الذي ارتشفناه صامتَين أمام المدفأة. كانت هي من كسر جدار الصمت أوّلًا:

– يجب أن تتصرّف، رومان. لقد انتهى وقت البكاء والنّوح.

– ماذا تريدين أن أفعل؟

[5] Max et les Maximonstres.

بحركات بطيئة، رشفت المربّية رشفة من الشاي قبل أن تطرح عليّ بدورها سؤالًا:

– ماذا كان والدك سيفعل؟

فاجأني السؤال. لم أستطع تخيّل ما جاء كريستوف أوزورسكي يفعل في هذه المحادثة، ولكن في المرحلة التي كنّا فيها...

– لم تسنح لي الفرصة بالتعرّف إليه. هرب وتخلّى عنّي وعن أمّي عندما كنّا نعيش في برمنغهام. لكن يقال أنّه كان شخصًا عنيفًا ومتهورًا.

اغتنمت الفرصة وأكّدت:

– بالضبط...

– ماذا؟

– أعرف أشخاصًا في أولنيه-سو-بوا[6]. أشخاصًا يمكن أن يرهبوها.

– من؟

– زوجتك.

– بالله عليك خديجة، لا يمكن أن تُعالج أمور المجتمع على هذا النحو.

كانت المرّة الأولى التي أراها غاضبة:

– أنت رجل، اللعنة! انهض ولا تنحنِ! تولّ زمام الأمور! صرخت بي وهي تنهض عن الكرسيّ.

حاولت تهدئتها لكنّها وضعت نقطة النهاية لحديثنا.

– سأصعد إلى غرفتي.

قرأت في عينيها خيبة أمل كبيرة.

[6] Aulnay-sous-Bois.

– انتظري، سأشغّل لك المدفأة الكهربائية.

– لا أريد، لست بحاجة إلى مساعدتك.

ما كادت تصعد الدرجات الأولى حتى استدارت نحوي وصاحت بي:

– في النهاية، أنت تستحقّ ما يحدث لك.

وفهمت حينذاك أنّني خسرت الدعم الأخير المتبقّي لي.

.5

أطفأت كلّ الأنوار. لم يعد لديّ الآن أحد ليساندني. محرّر، أصدقاء، عائلة. كانوا معي في الأيّام المشرقة حين كان من السهل مجانبتي. حتى القرّاء خذلوني. كانوا قد رفعوا اسمي إلى أعلى قائمة أفضل المبيعات لكنّهم سرعان ما هجروني واحدًا تلو الآخر. بالانقياد. لأنّ مقطع فيديو سخيفًا أوجّه فيه ركلة لثلّاجة تمّ تداوله في الإنترنت، ولأنّ «خبيرة مزعومة بانهيار المجتمعات» لم تقرأ أكثر من ثلاث كتب في حياتها أرسلت إلى نفسها بعض الرسائل القصيرة الدنيئة والتافهة.

الحسّ السليم والمنطق هجرا العالم. والشجاعة هجرته أيضًا.

لطالما اعتقدت أنّ الحلول لمشاكلنا تكمن في دواخلنا. لكنّني الليلة لم أعد أملك شيئًا. في الأقلّ، لا شيء لإطلاق أيّ شرارة. كنت فارغًا. أو بالأحرى مليئًا بالوحل والخراء والغضب والكراهية والعجز.

من دون تفكير، جلست أمام لوحة المفاتيح. محبوب ومكروه. فتحت الشاشة. أزعج الضوء المزرق عينيّ ولكنّني، كالعادة، لم أخفضه. أحبّ أن ينبهر نظري، إلى حدّ العمى، كأنّ الشاشة قد سحرتني. أحبّ هذا الشعور المتناقض بالاستبطان والفقدان التدرّجي للوعي. لحظة فقدان السيطرة التي تتلاشى فيها المعالم تمهيدًا

للغياب، للانفصال. باب مشرّع على المجهول. عالم آخر، حياة أخرى. عشر حيوات أخريات...

عندما أشعر بالتعاسة، عندما لا يتبقّى لي من أتحدّث معه، لا يظلّ لي سوى شخصياتي. بعضها، أعرف، أكثر تعاسة منّي. لم يكن الأمر بمثابة عزاء بقدر ما كان شعورًا بالأخوّة.

فكّرت في فلورا. كم الساعة الآن في نيويورك؟ عددت على أصابعي لأحتسب فارق التوقيت. كانت الساعة الخامسة من بعد الظهر. وهو ما كتبته في شاشتي.

نيويورك – الساعة الخامسة بعد الظهر.

في سكون الليل، ضغطت لوحة المفاتيح المضيئة. كما هي الحال في بداية معزوفة البيانو. حتى قبل أن أرى الحروف، كنت أسمع الصوت الصادر من لوحة المفاتيح. هديل رقيق يكاد يشبه الموسيقى العذبة. ضوضاء الحرّيّة.

نيويورك – الساعة الخامسة بعد الظهر.

من وراء جفنيّ، تهتزّ ستارة من نور. حولي، أزيز ناعم. فتحت عينيّ. هالة برتقالية تكتسح المكان. كنت أعوم في سماء بلون الزعفران. مغمورة بأشعّة الشمس، كانت...

9

خيط الحبكة

لقد مضى زمن الآن منذ أن بات يجد سعادته
في عالم مولود من خياله.

جون إيرفنغ

1.

نيويورك – الساعة الخامسة بعد الظهر.

من وراء جفنيّ، تهتزّ ستارة من نور. حولي، أزيز ناعم. فتحت عينيّ. هالة برتقالية تكتسح المكان. كنت أعوم في سماء بلون الزعفران. مغمورة بأشعّة الشمس، كانت مقصورة القاطرة المعلّقة تطير فوق بنايات ميدتاون ومياه إيست ريفر. وكانت الحجيرة – التي تنقل بعض السياح والنيويوركيين العائدين من أعمالهم – تستعدّ للهبوط في اتّجاه جزيرة روزفلت.

كان عقلي مشوّشًا وساقاي واهنتين. لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا أفعل هنا. كنت أشعر بالاختناق تمامًا كما في زيارتي الأولى. قد يكون الضغط الجوّي مختلفًا في عالم الخيال. سرعان ما أحسست بألم

الجوع يخترق بطني كأنّي لم أتناول شيئًا منذ وقت طويل وأصبت بنقص السكّر في الدم.

حطّت المقصورة في محطّتها النهائية. كنت أعرف جزيرة روزفلت. هي جزيرة مجهرية، عبارة عن شريط رفيع من اليابسة لا سحر فيه، يمتدّ بين مانهاتن وكوينز. أردت التحدّث مع فلورا كونواي لكنّني لم أستطع تخمين مكانها.

لكنّك الآمر الناهي، همس صوت في رأسي. ربّما، على الأرجح. كنت أعرف أنّ النصّ يُكتب تباعًا بينما تصل الأفكار إلى الجزء الآخر من عقلي، عند شخصي الآخر الذي يقودني من وراء شاشته، مرتشفًا الشاي وملفوفًا بالبطّانيّة.

تطلّعت حولي بحثًا عن إشارة – أو إلهام. لمحت بين الأشخاص الذين يغادرون التلفريك شابًّا ذا لحية حمراء، يرتدي قميصًا عليه مربّعات ويعتمر قبّعة تريلبي ويسير حاملًا كاميرا احترافية في يده وحقيبة كبيرة من المعدّات على كتفه. من المحتمل أن يكون صحافيًّا. قرّرت أن أتبعه.

كانت الجزيرة من الصغر بحيث بلغنا الطرف الجنوبي في أقلّ من عشر دقائق. هنا مستشفى بلاكويل وهو مرفق صحّي يطلق عليه الجميع اسم «البنتاغون» لشكله المعماري المكوّن من خمس واجهات. ما كدت أدخل الصرح حتى اشتدّ بي الجوع. أجبرني الدوّار على التوقّف ففقدت أثر الصحافي.

هذه المرّة، كنت في حالة مزرية حقًّا، على وشك الاستسلام. ألم مبرح اندلع في معدتي واشتعلت النار في عروقي. كانت أطرافي كأنّها مصبوبة بالخرسانة. كان عليّ أن آكل شيئًا كي أستحكم بعالم الخيال. عدت لأعاين خريطة المركز الطبّي التي كنت قد لاحظتها عند المدخل. تشير الخريطة إلى وجود أحد مطاعم سلسلة ألبيرتوز،

وهو أمر غير ملائم تمامًا كون المطعم متخصّصًا إلى حدّ ما في أنواع الطعام التي تزيد نسبة الكوليسترول عند متناوليها.

رُكِّبَ ركن الوجبات السريعة في عربة كبيرة من الكروم. صعدت إلى أحد مقاعد التابوريه الحمراء المصنوعة من الجلد الصناعي والمصطفّة في مواجهة منصّة تقديم الوجبات وطلبت طبقًا «يُقدّم بأسرع ما يمكن». ما هي إلّا لحظات حتى وُضع أمامي سندويتش توست محمّص مع البيض فالتهمته بشراهة كما لو كنت أنهي إضرابًا عن الطعام ألتزمه منذ عشرة أيّام.

تناولت بعد ذلك كوبًا من الكوكا كولا وفنجان قهوة جعلاني أزخر بالطاقة من جديد. بعد أن استعدت حواسّي، سرّحت نظري في أرجاء المقهى. بالقرب منّي، رأيت على الطاولة نسخة من صحيفة نيويورك بوست. لفت انتباهي عنوان الصفحة الرئيسية. أمسكت الجريدة وفتحتها لقراءة المقالة.

الروائية فلورا كونواي في المستشفى بعد محاولتها الانتحار

بروكلين – استجابت الشرطة وفرق الإنقاذ مساء الثلاثاء 12 تشرين الأوّل/أكتوبر في حوالى الساعة العاشرة مساء لحالة طارئة في منزل فلورا كونواي. وُجدت فلورا كونواي بلا حراك إثر محاولتها الانتحار بقطع شرايين يدها، فنُقِلَت إلى مستشفى بلاكويل في جزيرة روزفلت وهي في حالة حرجة. وكانت محرّرتها وصديقتها فانتين دو فيلات قد شعرت بالقلق عليها بعد فقدان الاتّصال بها، فاتّصلت بحارس المجمع السكني لانكستر في ويليامسبورغ قبل أن تبلّغ الشرطة. هذا وأعلن مصدر طبّي هذا المساء أنّ الروائية قد استعادت وعيها وتخطّت مرحلة الخطر. وهذا ما أكّدته أيضًا السيّدة دو فيلات التي قالت: «بعد هذه الخطوة المؤسفة، بدأت فلورا تستجمع قوّتها. كما نعلم، هي تمرّ في فترة صعبة للغاية بدأت منذ أشهر. سأفعل شخصيًّا كلّ ما في وسعي

لكي تتمكّن صديقتي من التغلّب على هذه التجربة». يذكر أنّ محاولة الانتحار هذه تأتي بعد ستّة أشهر من اختفاء ابنة فلورا كونواي الصغيرة كاري التي...

2.

رفعت عينيّ عن الجريدة. عرفت أخيرًا أين فلورا وفي أيّ حالة هي. وبينما كنت أهمّ بالمغادرة، بدا لي أنّني لمحت في الجانب الآخر من المطعم وجهًا مألوفًا. شاربين كثّين فيهما بعض الشيب، رأسًا أصلع، بطنًا ضخمًا: كان مارك روتيللي جالسًا في الحجرة متراخيًا على مقعد من الفرو. نهضت وتوجّهت للانضمام إليه. كان غارقًا في أفكاره بحيث ترك وجبة الهمبرغر والبطاطس المقلية تبرد فيما كان قد أفرغ عددًا من كؤوس البيرة.

– هل أعرفك؟ سألني بارتياب بينما كنت أجلس قبالته.

– نوعًا ما.

أنا من أعطاك الحياة، لكن لا داعي لمناداتي بابا.

غريزة الشرطي جعلته يكشفني فورًا:

– أنت لست من الجوار، أليس كذلك؟

– نعم، لكنّنا في الفريق نفسه.

– أيّ فريق؟

– أنا صديق لفلورا كونواي، أوضحت له.

حملق بي مرتابًا، محاولًا اختراق ما يدور في ذهني لاكتشاف خططي. تذكّرت ملاحظاتي والسير الذاتية التي نسجتها قبل بدء تأليف هذه القصّة. كنت أعرف روتيللي جيّدًا: رجل طيّب وشرطي ممتثل للواجب. لقد كافح طوال حياته لتخليص نفسه من براثن الاكتئاب المزمن وإدمان الكحول التي دمّرت حياته المهنية والعائلية والغرامية. كانت حساسيّته الزائدة تقتله ببطء. كان اسمًا جديدًا على

القائمة الطويلة لضحايا لعنة الأخيار، ذلك القانون الظالم الذي يحطّم الأشخاص غير المسلّحين لمواجهة الهمجية والاستهتار.

– هل أطلب لك بيرة أخرى؟ سألته رافعًا يدي لاستدعاء النادل.

– لِمَ لا؟ في الأقلّ أنت لا تبدو من الأوباش. أو أنّك تتظاهر فقط.

– أوباش؟

مشيرًا برأسه، أومأ إلى النافذة. أنعمت النظر. كان هناك عشرات الرّجال والنساء الذين يتسكّعون على الدّرج. كانت مجموعة «الصحافيّين» نفسها التي التقيت بها في ويليامسبورغ، أمام شقّة فلورا. لقد نقلت موقعها ببساطة إلى جزيرة روزفلت.

وصلت البيرة فشرب روتيللي ثلثها جرعة واحدة قبل أن يطرح عليّ سؤالًا صعبًا:

– هل تعرف ما ينتظرون؟

– خروج فلورا، على ما أعتقد.

– موت فلورا، صحّح لي. ينتظرون أن تقفز.

– لا تبالغ.

مسح الرغوة عن شاربيه.

– انظر إلى الكاميرات! إنها موجّهة إلى غرفتها، في الطابق السابع.

تأكيدًا على حديثه، نهض وتصارع كالثور مع النافذة حتى تمكّن من إنزالها على المحور الأفقي وفتح الجزء العلوي منها. سمحت لنا الفتحة بالتقاط مقتطفات من محادثات المجموعة. لكن في الواقع لم يكن من الممتع سماعها. «إذا كانت ستقفز، فلتفعل! سئمت الانتظار هنا»، نطق شخص أرعن لحيته طويلة بارزة وأذناه نافرتان. في معطفه الأسود الذي يضعه على كتفيه كعباءة، كان يؤدّي دور الغامض. «الضوء رائع، اللعنة! مع انعكاس أشعّة الشمس من الخلف، يمكنني

أن ألتقط مشهدًا جديرًا بفيلم لمارتن سكورسيزي!»، تفاخر المصوّر الذي لحقته من المحطّة. المرأة الوحيدة في المجموعة حذت حذوه أيضًا. «إضافة إلى أنّ مؤخّراتنا قد تجمّدت»، قالت ضاحكة متباهية بدعابتها. ثمّ بدأت تلحين أغنية: «سوف تقفز! سوف تقفز!»، سرعان ما راح زملاؤها يردّدونها بصوت واحد: «سو-ف-تقف-ز! سو-ف-تقف-ز!».

لقد تخطّوا حدود الفسق والفجور، لكنّهم ما زالوا يحفرون. إنّها إباحية عالم الاستعراض التلفزيوني. إنّه الغثيان. التقيّؤ.

– منذ البداية وهم يأملون بذلك، تشكّى روتيللي. انتحار فلورا. الموت لاختتام المسرحية. مع صور حيّة إذا أمكن. مقطع فيديو قصير من ثلاثين ثانية، صورة متحرّكة لسقوطها. صور وفيديوات مثالية تجعل الكلّ يضغطون زرّ الإعجاب وإعادة التغريد.

– هل تعرف رقم غرفة فلورا؟

– 712، لكنّ الموظّفين لم يسمحوا لي بالدخول.

أنهى شرب جعّته وفرك جفنيه. أحببت نظرته التي تعكس إرهاقًا كبيرًا ولكن أيضًا جمرات لم تخمد بعد.

– تعال، قلت له، أنا سيسمحون لي.

.3

أخذنا المصعد إلى الطابق السابع. مررنا عبر ردهة المستشفى من دون مشاكل. لم يوجّه لنا أحد أيّ سؤال، كما لو كنّا موظّفين. كان روتيللي يتخبّط بين الحيرة والإعجاب.

– كيف تفعل هذا؟ هل أنت ساحر أم ماذا؟

– كلّا، الساحر هو ابني. أمّا أنا فشيء آخر.

– لم أفهم.

– يمكنك القول أنّي الرئيس.

– رئيس ماذا؟

– كلّ شيء. أقصد، هذا العالم.

قطّب حاجبيه وحدّق فيّ بنظرة فيها بعض التحدّي.

– هل تعتقد أنك إله؟

– الحقيقة هي أنّي نوع من الإله.

– هكذا إذًا...

– لكن لا يغرّنّك ذلك، فالأمر ليس سهلًا دائمًا.

هزّ رأسه ظنًّا منه أنّني بالتأكيد مجنون. كنت سأخبره المزيد لو لم تفتح الأبواب على رواق طويل وضيّق يحرسه ممرّض غريب: عملاق من ممارسي تمارين كمال الأجسام نصف وجهه محترق بالكامل.

– جئنا لرؤية السيّدة كونواي، الغرفة 712. كيف حالها؟

– الأميرة رفضت أن تأكل أيّ شيء، ردّ ذو الوجهين وهو يشير إلى صينية معدنية.

مع ذلك، بدت الوجبة لذيذة: قطع من الخيار المغمورة في ماء غير صاف، سمكة لونها مائل إلى الرمادي ورائحتها تفوح في أرجاء الرواق، فطر مطّاطي، تفّاحة متجعّدة.

على الرغم من جثّة الرجل الضخمة، أزاحه روتيللي كالجرّافة من دربنا. تبعته إلى الغرفة الرقم 712.

كان الأثاث بسيطًا جدًّا: سرير ضيّق، كرسيّ بيرتويا من المعدن، مكتب صغير من الخشب المعاكِس يعلوه هاتف طوارئ قديم من الباكيليت الأحمر معلّق على الحائط.

كانت فلورا كونواي نصف ممدّدة على الفراش بين وسادتين، تحدّق في الفراغ.

– مساء الخير، فلورا.

نظرت إلينا من دون أن تتفاجأ. في لحظة، تكوّن لديّ انطباع أحمق بأنّها كانت تنتظرنا.

روتيللي، من جهته، كان مرتبكًا بعض الشيء. بدا خجولًا ومحاصرًا في هذه الغرفة المحدودة، لا يعرف فعلًا أين يحشر جسده.

– لا بدّ أنّك تتضوّرين جوعًا، قال أخيرًا. الطعام ليس رائعًا في هذا السجن.

– اعتمدت عليك لتأتي لي بشيء آكله، يا مارك! أين هي فطائر البطاطس والجبنة الشهيرة التي تجلبها من هاتزلاشا؟

شعر الشرطي بالذنب، فسارع واقترح النزول إلى ألبيرتوز لجلب ما يمكن أن تأكله.

– في الكافيتيريا هنا مجموعة كبيرة من السلطات، باشر بالقول.

– لا بل أفكّر في همبرغر من اللحم غير الناضج كلّيًا مع الخبز المقرمش، ردّت فلورا.

– حاضر.

– مع البصل...

– حسنًا.

– ... والمخلّل...

– بالطبع.

– ... والبطاطس المقلية.

– دوّنتُ كلّ الملاحظات، أكّد لها قبل أن يختفي.

بعد أن أصبحت وحدي مع فلورا، بقيت صامتًا أيضًا بضع لحظات. ثمّ باشرت بالقول مشيرًا إلى يديها المضمّدتين:

– ربّما لم يكن الأمر يستحقّ الذهاب إلى هذا الحدّ.

– هذا كلّ ما وجدته لأجعلك تعود.

وبينما كانت تحدّق فيّ، جلستُ على الكرسيّ بجانبها.

– أنت أيضًا لا تبدو في أحسن حالاتك.

– عرفت أيّامًا أفضل.

– عندما بدأتَ كتابة قصّتي، كنت تنقل فصلًا من حياتك، أليس كذلك؟

– فصلًا أقلّ مأسوية: سأفقد كلّ اتّصال مع ابني. نجحت زوجتي في انتزاع الوصاية منّي وهي تخطّط الآن لأخذه للعيش مع جماعة مناصرة لحماية البيئة في نيويورك.

– كم عمره؟

– ستّ سنوات.

فتّشت في هاتفي لأريها صورة لثيو في رداء الساحر هوديني وهو يعتمر قبّعة طويلة وشارباه الرفيعان مرسومان بقلم مكياج ويحمل بيده العصا السحرية.

قامت بالمثل وأظهرت لي لقطات من الزمن الجميل: كاري وهي تلعب الحجلة، كاري في مدينة الملاهي في كوني آيلاند، كاري بابتسامة مشاكسة وقد غطّت كريما الشوكولاته فمها ونصف وجهها. مزيج من شوق وحزن لا ينتهي تتخلّله ضحكات صاخبة ودموع.

– فكّرت في ما قلته لي ذلك اليوم، استأنفت فلورا بعد هنيهة. أنا أيضًا، عندما أكتب، أحبّ أن أضع شخصياتي على حافّة الهاوية وأتفرّج عليهم وهم يتخبّطون.

– هذه هي اللعبة، قلت لها. نرتجف معهم آملين بأن يتخطّوا الأمر حتى عندما يكون معقّدًا. نأمل دائمًا بأن يجدوا مخرجًا حتى عندما يكون الوضع يائسًا. ولكنّنا نبقى الأسياد. لا يقبل الكاتب بأن يتنازل عن عرشه أمام شخصياته.

كانت الغرفة مشبّعة بالحرارة والمياه المتدفّقة داخل المشعاع الحديدي تصدر ضوضاء صاخبة. كما لو كان جهاز التدفئة يهضم وليمة دسمة.

– لكن حتى في الرواية، أنت تعلم جيّدًا أنّ حرّيّة المؤلّف ليست مطلقة، اعترضت فلورا.

– بأيّ معنًى؟

– هناك حقيقة خاصّة بالشخصيات. بمجرّد دخولها المشهد، لا يمكنك تجاهل هويّتها وطبيعتها الحقيقية وحياتها السرّية.

رحت أتساءل إلى أين تريد أن توصلني.

– تأتي لحظة، تابعت، ينبغي أن تتبدّد فيها الأوهام وتسقط الأقنعة.

فهمت قصدها بشكل أفضل لكنّني لم أكن متأكّدًا من أنّني أريد أن أتبعها في هذا الطريق.

– هناك شيء يدين به الروائي لشخصياته، رومان. الجزء من الحقيقة الخاصّ بهم. عدني بأن تمنحني الجزء من الحقيقة الخاصّ بي!

نهضت واتّجهت صوب النافذة أتأمّل خيوط الشمس وهي تطلق آخر نيرانها خلف المباني الملوّنة في أستوريا. كان الجوّ حارًّا إلى درجة سمحت لنفسي بفتح النافذة. سمعت حينذاك صراخًا يتصاعد من المدخل. انحنيت قليلًا فرأيت مارك روتيللي يتعارك مع مجموعة الصّحافيين. ها هو يوجّه لكمة للشخص الذي كان يحلم بأن يكون مارتن سكورسيزي. في لحظة، حاول ستّة ثمّ سبعة من زملائه الدفاع عنه بإلقاء أنفسهم على الشرطي. لكنّ روتيللي، على الرغم من وزنه الزائد، صدّ مهاجميه مثل الذباب. وفي الوقت الذي وصل ممرّضون

محاولين إنهاء القتال، رنّ جرس الإنـذار في الغرفة. إنـذار صاخب يخدش الآذان. التقطت فلورا السمّاعة وأنصتت ثمّ سلّمتني السمّاعة.

– إنّه لك.

– حقًّا؟

– نعم، إنّها زوجتك.

4.

– إنّه لك.

– حقًّا؟

– نعم، إنّها زوجتك.

باريس – الساعة الثالثة فجرًا

في الظلام الدامس لغرفة المعيشة، ارتـجّ هاتفي على سطح مكتبي المصنوع من خشب الجوز. شعشع اسم ألمين في الشاشة بضوء حادّ. عودة قاسية إلى الواقع. وضعت رأسي بين يديّ. المزيد من المتاعب يلوح في الأفق. لسبب ما، قد تكون ألمين عادت من لوزان في منتصف الليل ولاحظت غياب ثيو. ثمّ فجأة، ظهر الدليل واضحًا أمامي: إضراب النقل. قرّرت عدم الردّ على المكالمة ودخلت بدل ذلك موقعَ SNCF، الشركة الوطنية للسكك الحديد. استغرقت الاستجابة وقتًا طويلًا وظهر بيان مقتضب ليذكّرني بأنّني مجرّد مستخدم لا عميل. وجـدت أخيرًا في صفحة محطّة ليون-بار-ديو المعلومات التي كنت أبحث عنها. لم يذهب القطار السريع المتّجه إلى لوزان أبعد من ليون. لا بدّ أن ألمين استنفدت طاقتها في الانتظار وقرّرت العودة إلى باريس. عندما خرجت من المتصفّح، رأيت أنّها تركت لي رسالة صوتية طويلة.

شغّلت التسجيل لكنّه لم يكن يحتوي على شيء سوى صوت تنفّس مبهم وجملة مشوّشة لم أفهم منها كلمة واحدة. ربّما قلقت من لاشيء. قد تكون ألمين وجدت وسيلة أخرى للوصول إلى سويسرا وكانت تلك المكالمة مجرّد اتّصال أجرته من دون انتباه أثناء وضع الهاتف في حقيبتها. لكنّني لم أتمكّن من طمأنة نفسي. انتابني القلق فقرّرت أن أتّصل بها مجدّدًا لكنّ الجواب جاء من جهاز الردّ الآلي.

ما العمل؟

لبست سترة وخرجت من الجهة الخلفية للمنزل. كان المطر قد بدأ بالهطول مجدّدًا. كثيفًا وغزيرًا. لديّ سيّارة صغيرة مركونة في موقف عند تقاطع شارعين. ميني كوبّر بالكاد أستخدمها، غير أنّها انطلقت فورًا وفي أحسن ما يكون. سلكت الطريق نفسه الذي سلكته صباحًا. كانت باريس عند الساعة الثالثة فجرًا خالية فعبرت نهر السين في أقلّ من عشر دقائق. عندما وصلت إلى ميناء أرسنال، وجدت بسهولة موقفًا في جادّة بوردون، عند مدخل حوض السفن بالضبط.

حاملًا السترة فوق رأسي، نزلت الدّرج المؤدّي إلى المرفأ. كانت الحجارة البيضاء تتلألأ كلوحة مغطاة بقماش مشمّع. سرعان ما تفاجأت بسياج معدني يعترض سبيلي، عُلّقت عليه لافتة خشبية تذكّر بأنّ المنطقة محظورة وبأنّ ثمّة دوريات يقوم بها حارس مع كلبه ليلًا. لكن لا، لا كلب ولا قطّ ولا حياة لمن تنادي هنا.

لم يكن أحد من الغباء ليخرج من بيته في مثل هذا الطقس. تسلّقت الحاجز ونزلت من الجانب الآخر. لم أستطع أن أتذكّر بالضبط مكان وجود القارب عند الرصيف. في أيّ حال، من المحتمل أنّ موقعه تغيّر منذ آخر مرّة جئت فيها. تحت الضوء الوحيد لأعمدة الإنارة، استغرقت خمس دقائق للوصول إلى العبّارة. بعد مغادرة

المنزل، انتقلت ألمين للإقامة في مركب tjalk هولندي محطّم الصواري كانت طلبته منّي هديّة لذكرى زواجنا الخامسة. لم أشعر قط بالارتياح على متن هذا المركب ونادرًا ما وطأته قدماي.

قفزت على الجسر. كان المركب مُنارًا بشكل خافت لكنّ بصيص الضوء أشار إلى وجود أحد ما.

– ألمين؟

قرعت باب غرفة القيادة من دون أن ألقى جوابًا.

عبرت الغرفة ودخلت الغرفة الرئيسية. صالون مريح إلى حدّ ما مع طاولة منخفضة وأريكة وتلفزيون ودرج صغير يؤدّي إلى السطح الذي حُوِّلَ شرفة. كان القارب يتأرجح. من خلال النوافذ، كان في إمكاني رؤية المياه الموحلة لنهر السين. لقد كنت دائمًا أصاب بدوّار البحر، حتى على متن قارب.

– ألمين، هل أنت هنا؟

أضأت مصباح الهاتف وتوجّهت إلى غرفتَي النوم في جانب من جانبي المركب. بمجرّد دخولي، رأيت زوجتي ممدّدة بشكل منحرف في الرواق الصغير.

جلست القرفصاء عند رأسها. كانت فاقدة الوعي ومزرقّة الشفتين والأظافر، بشرتها رطبة وجليدية.

– ألمين، ألمين!

كان هاتفها الخلوي بجانبها، مع زجاجة فودكا غراي غوس وأنبوب من الأوكسيكودون[1]. تمكّنت عندذاك من استعادة السيناريو الخاصّ بهذه الليلة بسهولة. لقد عادت ألمين بالتأكيد متكدّرة، بآلام موجعة، وفي حالةٍ من السكر طبعًا. قد لا تكون لاحظت حتى غياب

[1] مسكّن آلام ومخدّر من عائلة الموادّ الأفيونية.

ابنها. من المؤكّد أنّها خلطت الفودكا بالأوكسيكودون وربّما بدواء منوّم أيضًا. الطريق الملكي نحو الاكتئاب التنفّسي.

حاولت تحريكها، ثمّ فتحت جفنيها. كانت حدقتا عينيها متقلّصتين إلى درجة أصبحتا أصغر من رأس دبّوس. كان من المستحيل إيقاظها من رقادها العميق. تحقّقت من نبضها. كان بطيئًا جدًّا. كان تنفّسها أيضًا ضعيفًا، ولكن كان سريعًا.

لقد حذّرتها مئات المرّات من أنّ استهلاكها الموادّ الأفيونية يتجاوز في الكثير من الأحيان الجرعات المحدّدة. كانت تمزجها بالكحول، وبالحبوب المنوّمة والمهدّئات. حتى أنّني رأيتها من قبل تسحق الأدوية ظنًّا منها أنّ ذلك يضاعف تأثيرها.

لم تكن الجرعة الزائدة الأولى لها. فقبل عامين، كانت قد فقدت الوعي أيضًا وكنت أنا من أنقذها بواسطة بخّاخ نالوكسون[2]. واحتفظت منذ ذلك الوقت بالبخّاخ في صيدلية المنزل. آمل أن تكون ألمين قد أغمي عليها للسبب نفسه. توجّهت إلى الحمّام وبحثت في كلّ مكان لأجد أخيرًا المادّة الشهيرة.

مزّقت غلاف المنتج. لم يكن النالوكسون دواء معجزة لكن من شأنه إيقاف عمل المورفين إلى حين وصول الإسعاف.

فجأة، ومن دون سابق إنذار، توقّفت عن الحركة وحدثت ظاهرة غريبة. ابتعدت عن الحدث لأصبح مجرّد متفرّج من بعيد.

تباطأ الزمن وبدا الأمر بدهيًّا أمام عينيّ. يمكنني أن أنقذ ألمين، لكن يمكنني أيضًا ألّا أفعل. أن أدعها تموت بكلّ بساطة. وكلّ مشاكلي سوف تختفي معها. سيواصل ثيو دراسته في باريس وأستعيد الوصاية عليه أخيرًا. إنّ موت ألمين بجرعة زائدة سوف

[2] يُستخدَم بشكل شائع لمواجهة نقص التنفّس عند تناول جرعة زائدة من أشباه الأفيونات.

يدحض كلّ الاتهامات التي وجّهتها ضدّي وينقذني من مشاكلي القانونية والمالية. كانت الحياة تقدّم لي على طبق من فضة تحوّلًا غير متوقّع للظروف.

بدأ قلبي يخفق بشدّة. استرجعت القيادة كما في رواياتي. «في النهاية، أنت تستحقّ ما يحدث لك». رأيت أمامي وجه خديجة القاسي وهي تنعتني بالجبان. هذه المرّة لن أتراجع. لقد وضعت ألمين نفسها في هذا الموقف من تلقاء نفسها. كنت سيّد قدري، صانع القرار الوحيد الذي سيغيّر مجرى حياته بطريقة أو بأخرى. سأربّي ابني، أعدّ له كلّ صباح الشوكولاته، أقرأ له قصّة قبل النوم، أمضي معه العطلات. لن أخاف من فقدانه مرّة أخرى. أخيرًا.

5.

خرجت إلى الجسر. كان المطر يهطل بغزارة مضاعفة. الشارع لا يزال مقفرًا. والرؤية محجوبة على بعد عشر أمتار. لم يرني أحد أدخل المكان. قد تكون هناك كاميرات مراقبة في هذه النقطة من المرفأ، لكنّ الأمر ليس أكيدًا. من سيتحقّق من ذلك في أيّ حال؟ كانت الجرعة الزائدة واضحة تمامًا. لست من قتل ألمين. هي قتلت نفسها. بسلوكها، بجنونها، برغبتها في إيذاء الآخرين.

رحت أركض تحت وابل المطر. سأقوم بذلك فعلًا. كنت أعرف أنّني لن أتراجع. فتحت قفل السيّارة من بعيد ودخلت المقصورة. شغّلت المحرّك على الفور متلهّفًا لتطويل المسافة قدر الإمكان بيني وبين ذلك القارب. التفتُّ متحضّرًا للرجوع بالسيّارة إلى الخلف وسرعان ما أطلقت صرخة مدويّة.

– اللعنة! لقد أرعبتني!

كانت فلورا كونواي جالسة في المقعد الخلفي بشعرها القصير الجافّ، بنظرتها الخضراء التي تخترقك وبفستان الصوف المطرّز وسترة من الجينز.

– كيف ركبت هذه السيّارة؟

– لا أحد في هذه السيّارة غيرك يا رومان. كلّ شيء يحدث في رأسك، أنت تعرف ذلك جيّدًا. الشخصيات التي تأتي لتطارد الكاتب الذي أعطاها الحياة: هذا ما تتحدّث عنها طوال الوقت في مقابلاتك.

أغمضت عينيّ بضع ثوان ثمّ أخذت نفسًا عميقًا آملًا أن تكون فلورا كونواي، عندما أفتح جفنيّ، قد اختفت. لكنّ ذلك لم يحصل.

– اغربي عن وجهي فلورا.

– جئت لأمنعك من ارتكاب جريمة قتل.

– لم أقتل أحدًا.

– أنت تفعل ذلك. أنت تقتل زوجتك.

– لا، لا يمكن رؤية الأمور على هذا النحو. هي التي تريدني ميتًا.

– لكن، في هذه اللحظة، هي الغارقة في غيبوبة كحولية.

غطّت ستارة من المطر زجاج السيّارة الأمامي. واحدة تلو الأخرى، مزّقت صاعقتان السماء وسرعان ما أعقبهما دويّ رعد قاصف.

– من فضلك، لا تصعّبي الأمر عليّ. عودي من حيث أتيت. لكلّ منّا مصائبه.

– مصائبك مصائبي ومصائبي مصائبك. أنت تعرف ذلك جيّدًا.

– بالضبط، موت ألمين سيخلّصني من كلّ مصائبي.

– أنت لست كذلك يا رومان.

– كلّ الكائنات البشرية قتلة محتملون. حتى أنّك كتبت عن ذلك: يمكن الطفل أن يقتل، يمكن الجدّة أن تقتل.

– إذا تركت ألمين تموت، فستسقط في الجانب الآخر. ذلك الجانب الذي لا رجوع منه.

– هذا هراء.

– لا، بعد هذه الخطوة لن تعود رومان أوزورسكي نفسه. والحياة لن تكمل في سلام.

– لا خيار آخر أمامي إذا أردت الاحتفاظ بابني. حتى لو أنقذتها، كتلة الغضب تلك لن تشعر يومًا بالامتنان تجاهي. على العكس. سوف تستعجل المغادرة إلى الولايات المتّحدة.

– أو ستصبح قاتلًا وسوف يقضّ ذلك مضجعك إلى الأبد.

اشتدّت العاصفة أكثر. شعرت كأنّ المطر الذي ينقر فتحة السقف سيحطّم السطح الزجاجي. في المقصورة، كان الهواء ينفد إلى درجة قرّرت أن أقلب المعادلة.

– أضع قدري بين يديك، فلورا. إذا تركت ألمين تموت، تستعيدين كاري. وإذا أنقذتها، فلن تري ابنتك مجدّدًا. القرار لكِ.

لم تتوقّع هذا قطّ. تبدّلت تعابيرها واستعادت على الفور الجانب القاسي الذي أعرفه عنها.

– أنت حقًّا حقير.

– الأمر متروك لك لتحمّل المسؤولية.

مليئة بالغضب، لكمت بقوّة زجاج السيّارة.

حاولت الاستمرار في الضغط:

– حسنًا، عليك اتّخاذ القرار! أتذهبين أنتِ إلى الجانب الآخر؟

أخفضت عينيها، فارغة، منهكة.

– أنا فقط أريد الحقيقة.

نظرت إليّ مرّة أخيرة قبل أن تفتح الباب وتترجّل من السيّارة. كنّا نحن الاثنين في المأزق نفسه. في عينيها، قرأت معاناتي. في

وهنها، رأيت شقائي. أسرعت تحت المطر لأردعها، لكنّها كانت قد اختفت. أدركت حينذاك أنّها قد تكون المرّة الأخيرة التي أرى فيها فلورا كونواي.

عدت إلى درج الحجارة البيضاء المؤدّي إلى القارب، وعندما وصلت إلى الميناء، التقطت هاتفي لطلب النجدة.

10

إمبراطورية الألم

الحياة، هذا العبء الثقيل المفروض علينا، تجلب لنا جمًّا من المعاناة، وخيبات الأمل، ومشاكل لا حلّ لها. كي نحتملها، لا يسعنا الاستغناء عن المهدّئات.

سيغموند فرويد

.1

كيب كود، ماساتشوستس

سارعت سيّارة الإسعاف على الطريق الترابي الذي يتلوّى بين الكثبان الرملية مثيرة سحبًا من غبار في أعقابها. بدت ظلال أشجار الصنوبر والشجيرات طويلة بفعل غروب الشمس في الأفق فيما تلوّن الغطاء النباتي بفلتر برتقالي.

متمسّكة بمقود السيّارة بكلتا يديها، وبنظرة كلّها عزم، كانت فلورا تتحمّل الارتجاجات ولا تخفّف سرعتها. كان امتداد الطرف الشمالي من خليج ونشيستر يفضي إلى منارة مثمّنة الأضلاع يبلغ ارتفاعها

عشرة أمتار ومشيّدة على رابية صغيرة. منارة 24 ويندز لايتهاوس. كان المنزل الأبيض الجميل المتّصل بالبرج والمشرف على المحيط مكسوًّا بألواح خشبية ويعلوه سقف منحدر من الأردواز. المسكن الثاني لفانتين.

صعدت فلورا ممرّ الحصى الذي يقود إلى المبنى وأوقفت السيّارة التي كانت قد سرقتها قبل ساعات قليلة بجانب سيّارة محرّرتها. كان المكان مطوّقًا بالأمواج والصخور، يؤجّج مشاعر متناقضة. فعندما تتلألأ أشعّة الشمس حينًا، يظنّ المرء نفسه في مشهد ريفي جدير بأن يكون بطاقة بريدية أو في حقل يبدو في خلفية لوحة بحرية من تلك التي يحبّ سكّان جزيرة مارثا فينيارد أو كيب كود عرضها في أكواخهم. وعندما يغلب السّحاب والريح حينًا آخر، يتّخذ الديكور منحًى أكثر بؤسًا ودراماتيكية، تمامًا كما هي الحال الآن، في هذه الساعة من الأصيل التي توارت فيها الشمس. بغرقها في الظلّ، جمّدت منحدرات الغرانيت المشهد البانورامي وشوّهت المنظر، كما في بعض لوحات إدوارد هوبر المشوبة بالقلق.

كانت فلورا قد زارت المكان مرّتين في السابق قبل أن تباشر فانتين بأعمال ترميم المبنى. ها هي تصعد الآن الدرج المؤدّي إلى مدخل البيت الريفي المسقوف. طرقت الباب ولم تنتظر إلّا بضع ثوان قبل أن تفتح لها فانتين.

– فلورا؟ أنا... لم تخبريني بمجيئك.

– هل أزعجك؟

– على العكس، سررت برؤيتك.

كانت فانتين ترتدي بنطالًا من الجينز ضيّقًا وبلوزة زرقاء بأزرار لؤلؤية وتنتعل حذاء مسطّحًا من الجلد اللامع. مهما كانت الظروف،

فقد كانت فانتين أنيقة على الدوام: في المنزل بمفردها، في بداية عطلة نهاية الأسبوع، في هذا البيت المنعزل عن العالم.

– من أين تأتين؟ سألت وهي تنظر بعين الريبة إلى سيّارة الإسعاف.

– من المنزل. هل تقدّمين لي كأسًا؟

تردّدت المحرّرة ثانية أمام ناظري فلورا، ثمّ قالت.

– طبعًا، ادخلي!

كان المنزل قد خضع لأعمال تجديد كبيرة. بات الصالون، الذي تعبره عوارض خشبية ظاهرة وتعلوه نافذة زجاجية بانورامية، يوفّر إطلالة لا نهاية لها على المحيط. المكان ينضح بذوق رفيع، تمامًا كمالكته: أرضية بألواح ضخمة من خشب السنديان اللامع، أثاث بألوان ناعمة من الخشب المعالج بالإسبيداج، مقعد فلورنسا كنول من القماش الوردي الفاتح. راحت فلورا تتخيّل فانتين وهي مستريحة على الأريكة، ملتفّة ببطّانيّة من الكشمير، تقرأ مخطوطات متكلّفة أثناء ارتشاف شاي الأعشاب العضوي بالفاكهة الذي ابتاعته من متجر حرفي جديد في مرفأ هيانيس.

– ماذا تودّين أن تشربي؟ حضّرت توًّا الشاي المثلّج.

– رائع.

بعدما دخلت فانتين المطبخَ، دنت فلورا من النافذة. بعيدًا، كان زورق شراعي تتلاعب فيه الأمواج على وشك أن يتوارى في الأفق. السّحاب يدور في السماء كالدوّامة. عاودها شعور بأنّ الحقيقة تترنّح وبأنّها مقيّدة داخل سجن على الرغم من انفتاح المحيط. المنحدرات الصخرية الهائلة، الأمواج المتكسّرة، نعيق طيور النورس... كان كلّ شيء يشعرها بدوّار شديد.

انسحبت من أمام النافذة لتجد ملاذًا بجوار المدفأة. كما في سائر الغرفة، كانت المساحة «بالقرب من النار» مريحة وأنيقة: سلّة للحطب، منفاخ جديد تقريبًا، حامل معدني يحوي محراك النار والملقط. على برقع المدخنة، وُضعت تفّاحة برونزية عليها رسم شفتين من توقيع النحّاتة الفرنسية كلود لالان وصفيحة نحاسية كانت فلورا قد لمحتها في السابق مثبّتة على الجدار المحيط بالمنزل. حُفرت في المعدن دوّارة رياح تسرد مختلف أنواع الرياح المعروفة في العصور القديمة. تحتها، نُقشت عبارة باللاتينية: بعد هبوب الرياح الأربع والعشرين، لن يتبقّى شيء. مسرحية متكاملة...

– تفضّلي الشاي.

استدارت فلورا. على بعد متر واحد منها، كانت فانتين تمدّ لها يدها بكوب كبير فيه مكعّبات ثلج. كانت تبدو غير مطمئنّة البتّة.

– هل أنت متأكّدة من أنّ كلّ شيء على ما يرام، فلورا؟

– في أحسن حال. أمّا أنت، فعلى العكس، تبدين قلقة.

– لمَ تحملين محراك النار في يدك؟

– أنت خائفة منّي، فانتين؟

– كلّا، لكن...

– حسنًا، أنت مخطئة.

تراجعت المحرّرة خطوة إلى الوراء وحاولت وضع يديها أمام وجهها لحماية نفسها من الضربة، لكنّها لم تكن سريعة بما يكفي. لقد أسدل الشيطان توًّا ستارة سوداء أمام عينيها. أحسّت بشعور غريب كأنّها سمعت ارتطام جسدها بالأرضية الخشبية، قبل أن يُغمى عليها.

2.

عندما فتحت فانتين عينيها، كان الظلام قد حلّ. منذ وقت طويل على الأرجح، لأنّ الغرفة كانت حالكة السواد. شعرت بحريق يمتدّ حتى أسفل رقبتها، بدءًا من الترقوة وصولًا إلى مؤخّر العنق. لا تستطيع رؤيته، لكنّها تخيّلته: نتوء أو تورّم كبير يشوّه جلدها. كان جفناها ثقيلين كأنّها تحت تأثير مخدّر واستغرق الأمر وقتًا طويلًا كي تتعرّف إلى المكان حيث هي: في أعلى برج المنارة، تحديدًا في المساحة الضيّقة التي كان يُركّب فيها المصباح. كانت مقيّدة بشكل محكم بمعصميها وذراعيها إلى كرسيّ آديروندداك الموجود في العادة على الشرفة. وكانت قدماها مكبّلتين بواسطة شبكة صيد، الأمر الذي منعها من تحريكهما.

متجمّدة من عرَقها البارد، حاولت فانتين أن تدير رأسها لكنّها كانت تعاني ألمًا شديدًا حال دون إكمال حركتها. كانت الرياح تجعل نوافذ القبّة تهتزّ. فجأة انكشف قمر نصفي من وراء السحب العالية وألقى انعكاسه على المحيط.

– فلورا! زعقت بأعلى صوتها.

لكنّها لم تلق جوابًا.

كانت فانتين مرتاعة. كان المكان الضيّق متّسخًا بإفرازات جسمها، تفوح منه رائحة الملح والتعرّق الكريهة. لم تعمد قطّ إلى تجديد هذا الجزء من العقار الذي لم تشعر فيه بالراحة يومًا ولم تدسه قدماها من قبل على الرغم من مطلّه الخاطف للأنفاس.

فجأة، سمعت طقطقة على الأرضية الخشبية وظهرت فلورا أمامها جامدة الوجه، عيناها متوهّجتان بلهب مجنون.

– ماذا تفعلين يا فلورا؟ فكّي وثاقي!

– اخرسي. لا أريد أن أسمعك.

– لكن ماذا تفعلين؟ أنا صديقتك فلورا. لطالما كنت كذلك.

– لا، أنت مجرّد امرأة بلا أطفال لا تستطيع فهمي.

– هذا هراء.

– اخرسي، قلت لك! صرخت وصفعت خدّها صفعة قوية.

صمتت فانتين هذه المرّة وبدأت الدموع تسيل على خدّيها. استندت فلورا إلى الدرابزين الخشبي وراحت تفتّش في حقيبة إسعافات أوّلية كانت قد عثرت عليها في سيّارة الإسعاف. وحين وجدت ما كانت تبحث عنه، دنت من محرّرتها.

– أتعلمين؟ فكّرت مليًّا طوال ستّة أشهر...

كشفت دفقة من ضوء القمر ما تحمله فلورا في يدها: مشرط بمقبض مسطّح يبلغ طوله حوالى عشرين سنتيمترًا.

– فكّرت مليًّا وإليك ما أعتقده: أعتقد أنّ تحت مظهرك المتأنّق تخبّئين امرأة مجنونة. امرأة مجنونة شيطانية.

شعرت فانتين بتسارع دقّات قلبها وبالذعر يجوّف معدتها. كان في إمكانها أن تصرخ لكنّ أحدًا لن يسمعها. فهنا، في هذا المكان، يشعر المرء كأنّه في ثقبٍ خارج إطار الزمن، كما لو أنّ الحدود بين الماضي والحاضر والمستقبل قد تلاشت تمامًا. كما أنّ هزيز الريح كان قويًّا والجار الأقرب يبعد أكثر من كيلومتر واحد ويبلغ من العمر خمسة وثمانين عامًا.

أكملت فلورا وهي في غاية الاضطراب كأنّها ممسوسة:

– منذ أن ولدت كاري وأنت لا تتوقّفين عن تذكيري بأنّني أصبحت أضعف، بأنّني فقدت نشاطي، حسّ المغامرة، والإبداع. إليك إذًا ما أعتقده: أعتقد أنّك أنت من خطفت منّي ابنتي كي تغرقيني في بحر من الكرب.

– بالطبع لا!

– بلى، لطالما كانت تلك عقيدتك. طريقة أنطونيو لوبو أنتونيس: «الإنسان يتألّم والكاتب يتساءل عن كيفية استخدام تلك المعاناة في عمله». كتبك المفضّلة هي تلك المكتوبة بريشة مبلّلة بالدماء والدموع. أردت منّي أن أتغذّى على ألمي لكتابة رواية. رواية عن الألم المطلق. كتاب لم يُكتب من قبل. لأنّك في الأساس، منذ البداية، كنت تبحثين عن ذلك بالضبط: اقتلاع المشاعر منّي كي أصنع كتبًا.

– مستحيل أن تكوني مقتنعة فعلًا بما تقولين، هذا جنون فلورا. ما حصل معك دفعك إلى الجنون.

– طبعًا، كلّ المبدعين الحقيقيين مجانين. أدمغتهم في حالة نشاط مفرط لا يخمد، وهم دائمًا على وشك الانهيار. لذا، اسمعيني جيّدًا، سأطرح عليك سؤالًا واحدًا وأريد إجابة واحدة.

اقتربت من فانتين واضعة المبضع على بعد سنتيمترات قليلة من عينيها.

– إذا كان جوابك لا يناسبني، فهذا من سوء حظّك.

– لا، أبعدي هذا. أتوسّل إليك.

– اصمتي. أجيبي عن السؤال فقط: أين تحتجزين ابنتي؟

– لم أفعل أيّ شيء لكاري، فلورا. أقسم لك.

استحكمت فيها فلورا فجأة بقوّة وأمسكتها برقبتها وهي تخنقها بيد واحدة وتزمجر غاضبة.

– أين تحتجزين ابنتي؟

خفّفت فلورا الضغط بعد بضع ثوانٍ وبينما كانت فانتين تستعيد أنفاسها، غرزت الروائية المشرط وهي تصرخ من الغضب في يد المحرّرة التي انغرست في المسند الخشبي.

ساد صمت. ثمّ عواء رهيب. حدّقت فانتين بهلع في يدها المسمّرة في الكرسيّ، ووجهها ممسوخ ومشوّه من الألم.

– لمَ ترغمينني على فعل هذا؟ سألتها فلورا.

مسحت العرق عن جبهتها وراحت تبحث في مجموعة أدوات الطوارئ الطبّية مرّة أخرى عن مشرط آخر، أقصر ومستدقّ أكثر.

– هذا سوف يمزّق أذنك قبل أن يخرم دماغك، حذّرتها وهي تلوّح بالمشرط أمام عينَي المحرّرة المذعورة.

– تمالكي... تمالكي نفسك، قالت فانتين لاهثة على وشك الإغماء.

– أين تحتجزين ابنتي؟ كرّرت فلورا السؤال.

– حسنًا، سوف... سوف أقول لك الحقيقة.

– لا تقولي أنّك سوف تقولين الحقيقة. بل قوليها! أين هي كاري؟

– في نعـ... نعش.

– ماذا؟

– في نعش، تأوّهت. في مقبرة غرين وود في بروكلين.

– لا، أنت تكذبين.

– كاري ماتت فلورا.

– لا!

– لقد مرّت ستّة أشهر على وفاتها. ستّة أشهر احتُجِزْت خلالها في بلاكويل لأنّك ترفضين الاعتراف بهذه الحقيقة!

3.

تلقّت فلورا الجملة الأخيرة كصفعة وراحت تتراجع إلى الخلف مترنّحة كأنّ رصاصة قد اخترقت بطنها توًّا. وضعت يديها على أذنيها، غير قادرة على سماع بقيّة الحقيقة التي كانت مع ذلك تتوق إليها بشدّة.

تركت فانتين لمصيرها، ونزلت الدرج حتى الطابق الأرضي ثمّ خرجت في الظلام. فور خروجها، خطت بضع خطوات نحو الجرف. كان الليل مذهلًا، واضحًا ومبهرًا. هبّت الريح وتحطّمت الأمواج على الصخور. صور لا تطاق، مكبوتة فترة طويلة، خرجت تلعلع أمام عينيها.

كانت كلّ السدود في عقلها تتلاشى، تبتلع آخر عرين لها، وتغرق معها كلّ جزء من الأرض تمكّنت حتى الآن من الحفاظ عليه بعيدًا عن المناطق المعرّضة للفيضانات. جرفت موجة المدّ كلّ شيء في طريقها وحطّمت الدفاعات العقلية التي نصبتها مدّة ستّة أشهر فتعطّل زر التشغيل الذي أبقى دماغها في مأمن من الحقيقة الأسوأ: مسؤوليّتها عن وفاة طفلتها.

مع وصولها بالقرب من حافّة الساحل الصخري الشديد الانحدار، أدركت فلورا أنّها ستندفع في الفراغ لوضع حدّ للصور الفظيعة التي كانت تتسابق في رأسها. لا شكل من أشكال الحياة يكون ممكنًا عندما يقتل المرء ابنته البالغة من العمر ثلاث سنوات.

ثواني قليلة قبل الخلاص، ظهرت خلفها هالة كهرمانية. خرج الرجل-الأرنب في زيّ خادم الفندق من دائرة الضوء. كان ضوء القمر يتلألأ على الأشرطة والأزرار الذهبية لسترته القرمزية. كان رأسه مشوّهًا حتى أنّه كان مخيفًا أكثر من المرّة السابقة. تخيّلت فلورا أنّه كان سيرعب كاري الصغيرة بأسنانه الضخمة وأذنيه المشعرّتين

المعلّقتين. لكن لا بدّ أنّ كاري كانت مذعورة أكثر عندما شعرت بأنّها تسقط من الطابق السادس.

لم يحاول الأرنب إخفاء ابتسامته المنتصرة.

– قلت لك، مهما فعلت لا يمكنك أبدًا أنّ تغيّري نهاية القصّة.

لم تحاول فلورا الردّ هذه المرّة. خفضت رأسها. أرادت أن ينتهي كلّ شيء. بسرعة. متباهيًا بانتصاره، أخذ الأرنب يواصل غرز المسمار أكثر:

– سوف تثقل الحقيقة كاهلك، إلى الأبد.

ثمّ مدّ إحدى قوائمه الضخمة الكثيفة الشعر لفلورا وأومأ لها برأسه إلى الهوّة التي انفتحت تحت أقدامهم.

– أتريدين القفز معي؟

شعرت فلورا ببعض الارتياح، هزّت رأسها وأمسكت بيده.

في وضح النّهار

كاري حبيبتي.

في الثاني عشر من أبريل 2010، كان الوقت عصرًا وشمس الربيع تغدق شعاعها الصافي على مدينة نيويورك، حين انطلقتُ كعادتي سيرًا على الأقدام لأحضرك من مدرستك.

عندما وصلنا إلى شقّتنا في مبنى لانكستر في شارع بيري 396، خلعت حذاءك الرياضي وانتعلت الخفّين المفضّلين لديك، الزهريين مع كريات من القطن، واللذين أهدتك إيّاهما عرّابتك فانتين. لحقت بي نحو الآلة الصوتية وطلبت منّي تشغيل الموسيقى وأنت تصفّقين بيديك. ساعدتني قليلًا في إفراغ الغسّالة وتعليق الملابس قبل أن تطلبي أن نلعب الغمّيضة.

– لا تغشّي ماما! صرخت كأنّك توبّخينني بينما رافقتني إلى غرفتي.

طبعت قبلة على أنفك الصغير. ثمّ، ويداي تحجبان عينيّ، بدأتُ العدّ بصوت عالٍ وإيقاع لا هو سريع ولا هو بطيء.

– واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...

أتذكّر نور الشمس في ذلك العصر والذي كاد يكون غير حقيقيّ. هالة برتقالية كانت تلوّن الشقّة التي أحببتها كثيرًا والتي كنّا نعيش فيها بسعادة تامّة.

– ستّة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة...

ما زلت أتذكّر جيّدًا وقع قدميك الصغيرتين على الأرضيّة الخشبية. سمعتك وأنت تعبرين الصالون مزحزحة معك كرسيّ إيمز الذي كان يقبع إزاء الجدار الزجاجي العملاق. كانت الأجواء رائعة. كان ذهني مخدّرًا بعض الشيء بحرارة الشقّة وكانت الألحان العذبة تتراقص، هنا وهناك.

– أحد عشر، اثنا عشر، ثلاثة عشر، أربعة عشر، خمسة عشر...

لم أشعر قطّ بسعادة في حياتي كتلك التي أحسستها خلال هذه السنة الأخيرة. أحببت العيش معك، اللعب معك، أحببت التناغم الذي كان يربطنا. في هذا العصر المأسوي الذي كنّا نعيش، أُغرقَت وسائل الإعلام بالريبورتاجات وبشهادات الأزواج الذين أوضحوا بأنّهم اتّخذوا خيارًا «منطقيًّا» بعدم الإنجاب، باسم حالة الطوارئ البيئية والاكتظاظ السكّاني. كان خيارًا احترمته لكنّه لم يكن خياري يومًا.

– ستّة عشر، سبعة عشر، ثمانية عشر، تسعة عشر، عشرون.

فتحتُ عينيّ وهممتُ بمغادرة الغرفة.

– انتبهي! انتبهي! ماما آتية!

لم أحبّ شيئًا في هذه الحياة بقدر ما أحببت اللحظات التي تشاركناها معًا. مجرّد أنّه أتيحت لي فرصة عيش تلك اللحظات يكفي لتبرير كلّ الباقي. لمنح كلّ الباقي معنًى...

– كاري ليست تحت الأغطية... كاري ليست وراء الأريكة...

فجأة اجتاحت هبّة باردة الغرفة، كما لو كان تيّارًا هوائيًّا. تبعت بعينيّ شعاعًا من ضوء الشمس تسلّل إلى الأرضية الخشبية الشقراء.

على مستوى الأرض، كان أحد الألواح الكبيرة للجدار الزجاجي مائلًا، تاركًا مساحة مفتوحة في اتّجاه الفراغ الشاسع.

أحسست بمعدتي تتمزّق وشعرت بذعر شديد كأنّ شيئًا يلتقط عنقي ليخنقني قبل أن أفقد وعيي.

ابنة الروائية فلورا كونواي تلقى حتفها إثر سقوطها من الطابق السادس

أسوشييتد برس، 13 أبريل 2010

توفّيت كاري كونواي البالغة من العمر ثلاث سنوات، وابنة الكاتبة الويلزية فلورا كونواي، بعد سقوطها من الطابق السادس من مبنى لانكستر بعد ظهر أمس. بعد فترة وجيزة من عودتها إلى المنزل من المدرسة، سقطت الفتاة على رصيف شارع بيري، خارج مدخل المبنى السكني في بروكلين حيث كانت تعيش مع والدتها منذ يناير الماضي. متأثّرة بالجروح الخطيرة التي أصيبت بها، توفّيت الفتاة في سيّارة الإسعاف قبل بلوغها المستشفى.

بحسب الاستنتاجات الأوّلية، كانت الفتاة قد سقطت من نافذة الشقّة التي تركت مفتوحة من طريق الخطأ بعد مرور موظّفي شركة التنظيف.

وقال المحقّق مارك روتيللي، أوّل ضابط شرطة تدخّل في مكان الحادث: «في هذه المرحلة من التحقيق، من الواضح أنّ هذه الوفاة حادثة مفجعة».

تحت تأثير الصدمة، نُقلت فلورا كونواي إلى مستشفى بلاكويل في جزيرة روزفلت. يُذكر أنّ والد الفتاة الصغيرة، الراقص روميو فيليبو بيرغومي، لم يكن موجودًا في الولايات المتّحدة وقت وقوع الحادثة.

* * *

فلورا كونواي والقتل نتيجة الإهمال

نيويورك بوست، 15 أبريل 2010

بدأت الأمور تتوضّح اليوم أكثر في ما يتعلّق بظروف وفاة الصغيرة كاري كونواي. [...]

بعد مساء الحادثة مباشرة، أشارت الملازم فرانسيس ريشارد المشرفة على تحقيقات الشرطة إلى أنّ نظراءها في دائرة الصحّة يتولّون مسؤولية الشقّ الإداري للتحقيق. هذا واتُّخِذَت الإجراءات للتحقّق ممّا إذا كان المبنى يخضع لقوانين التخطيط البلدية. كان فندق لانكستر، وهو مبنًى جميل مصفّح بالحديد في شارع بيري، بمثابة مستودع لصناعة الألعاب فيما مضى. وقبل أن يخضع لأعمال تجديد باذخة، بقي مهجورًا قرابة ثلاثة عقود.

ويوم الثلاثاء، حصلت مداهمة لمكاتب الوكيل العقاري الذي سوَّقَ للشقق. كما أظهرت الوثائق التي عُثِرَ عليها في هذا السياق أنّ عقد البيع وُقِّعَ وأنّ المفاتيح سُلِّمَت للسيّدة كونواي قبل إنهاء أعمال إعادة التأهيل، خصوصًا قبل تأمين المنافذ في المنزل. مع ذلك، نُفّذت الصفقة وفقًا للقوانين ووقّعت السيّدة كونواي عقدَ إبراء ذمّة الذي تعهّدت فيه بتصليح المنافذ الزجاجية على نفقتها الخاصّة وبحسب معايير السلامة الموصى بها، لا سيّما من طريق إضافة حواجز حماية داخلية. وفي هذا الخصوص، قالت ريناتا كلاي، رئيسة قسم القانون في مدينة نيويورك، اليوم في مداخلة مقتضبة للصحافة: «وفقًا لخدمات المراقبة لدينا، فإنّ السيّدة كونواي لم تمتثل لبنود العقد بالتالي لم تعمد إلى تأمين المنافذ». لذلك فإنّ هذا الإهمال – وليس في أيّ حال من الأحوال الوكيل العقاري أو شركة التنظيف – هو المسؤول المباشر عن

الوفاة المأسوية لابنتها. وأضافت السيّدة كلاي أنّ «هذا الاستنتاج لا يدعو إلى التشكيك في أنّ وفاة كاري كونواي كانت حادثة عرضية»، مضيفة أنّه لن تُوَجَّه اتّهامات جنائية لأيّ شخص في هذه القضيّة. من المقرّر أن تقام مراسم دفن الفتاة الصغيرة يوم الجمعة 16 أبريل في مقبرة غرين وود في بروكلين، في أقصى درجات الخصوصية.

11

ليتورجيا الساعات

وحده من ينزل إلى الجحيم ينقذ حبيبته.

سورين كيركيغارد

بعد ثلاثة أشهر

14 يناير 2011

لم تحصل أيّ معجزة، بل على العكس تمامًا. ما كادت ألمين تتجاوز مرحلة الخطر حتى سارعت إلى تقديم موعد سفرها إلى نيويورك. وبعد أن كان موعد الانطلاق مقرّرًا في عيد الميلاد، كانت المغادرة في بداية عطلة جميع القدّيسين. منذ ذلك الحين، لم أتلقّ إلّا أخبارًا جزئية عن ابني. كانت تلك القرية البيئية في بنسلفانيا حيث لحقت ألمين بزويه دومون تتباهى بكونها منطقة خالية من الشبكة اللاسلكية وكانت شبكة الهاتف فيها عشوائية، ما جعل عدم الردّ على مكالماتي أمرًا بدهيًّا.

اليوم – يوم عيد ميلاده – أُدخل ثيو مستشفى في مانهاتن فترة وجيزة لإجراء عملية جراحية بسيطة تقتضي وضع أنابيب بلاستيكية في أذنه اليمنى لحمايتها من الالتهابات المتكرّرة التي كانت تصيبها.

وقد تمكّنت من التحدّث معه بضع دقائق عبر الفيديو لطمأنته قبل أن يدخل غرفة العمليات.

بعد إنهاء المكالمة، بقيت بضع دقائق جامدًا في مكاني، أحدّق في الفراغ، دائخًا، أتخيّل ملامح وجه ابني الجميلة ونظرته المشعّة التي تعكس شهيّته للحياة والاستكشاف. هذا الجانب البريء والفضولي الذي لم تقوَ ألمين بعد على تدميره.

كان الثلج يتساقط منذ الصباح. مخدّرًا من الألم والتهاب القصبات المتواصل، قرّرت العودة إلى النوم. لقد فقدت السيطرة على نفسي بالكامل منذ أن انتُزِعَ ثيو منّي. أصبح جهاز المناعة عندي كالمصفاة. أنفلونزا، التهاب الجيوب الأنفية، التهاب الحنجرة، التهاب الأمعاء: لم أسلم من أيّ منها. كانت الهموم قد أضنتني وقد عبرتُ جسر الأعياد وحيدًا متقوقعًا على نفسي. لم يعد لديّ عائلة ولم يكن لديّ أصدقاء حقيقيّين. حاول مدير أعمالي الحفاظ على علاقة ودّية معي لكنّني في النهاية أهنته وصرفته. لم أكن أرغب في شفقة من أحد. أمّا بالنسبة إلى الباقين، فقد تركتني «عائلة عالم النشر الكبيرة» أتخبّط في المجهول. وهو أمر لم يفاجئني ولم يؤثر فيّ البتّة. أعرف منذ زمن بعيد ومن قراءاتي لألبرت كوهن أنّ: «كلّ إنسان وحيد ولا أحد يهتمّ بأحد وآلامنا ليست سوى جزيرة مهجورة». حتى أنّ المسافات الجبانة التي اتّخذها هؤلاء منّي لم تكن سوى التبعية المنطقية للازدراء الذي لطالما أوحى به «عشّ الدبابير» هذا بالنسبة إليّ.

استيقظت قرابة الخامسة بعد الظهر مختنقًا، أشتعل من الحمّى. كنت قد جرعت ربع لتر من شراب السعال منذ الليلة السابقة وما زلت في حالة سيّئة على الرغم من دواء الدوليبران والمضادّات

الحيوية. أجبرت نفسي على الجلوس على السرير وطلبت سيّارة أجرة عبر الهاتف.

ولأنّه لم يكن لديّ طبيب أسرة يومًا، جررت نفسي إلى طبيب الأطفال الذي كان يتابع ثيو منذ ولادته. طبيب أطفال ممتاز من الطراز القديم يمارس عمله في عيادة في الدائرة السابعة عشرة. كان يحبّ كتبي كثيرًا وبدا أنّه أشفق عليّ عندما رأى حالتي المزرية. أخذ الوقت الكافي لفحصي وأرسلني على الفور لتصوير صدري بالأشعّة السينية بعد أن جعلني أعده بأنّني سأزور طبيب رئة زميلًا له نهار الإثنين مؤكّدًا لي أنّه سيتّصل به ليجد لي موعدًا.

بعد ذلك مباشرة، توجّهت إلى معهد باريس للأشعّة حيث انتظرت ساعتين كاملتين قبل الخروج بصورة مقلقة لحالة الحويصلات الهوائية.

مشيت، مشوّش الرأس، بضع خطوات على الرصيف المتجمّد، عند تقاطع جادّة هوش وشارع فوبورج-سانت-أونوريه. لم تعلُ درجة الحرارة فوق الصفر طوال اليوم. كان النهار قد شارف على الانتهاء منذ وقت طويل ولا أعتقد أنّني شعرت بمثل هذا البرد من قبل. كنت أترنّح من الحمّى الشديدة التي عاودتني وأحسست بأنّني سأتجمّد في مكاني. بغبائي وشرودي الدائم، نسيت هاتفي في المنزل فلم أستطع الاتّصال بسيّارة تاكسي. وبالرغم من الرؤية الضبابية، حاولت التربّص بسيّارة شاغرة في الظلام. ما هي إلّا دقيقتان حتى قرّرت أن أزحف إلى ميدان تيرن حيث من المرجّح أن أجد سيّارة أجرة. لم يكن الضباب كثيفًا هنا بيد أنّ استمرار تساقط الثلج أدّى إلى إبطاء حركة المرور. في باريس، لا يتطلّب الأمر الكثير لعرقلة الحياة: بضعة سنتيمترات من الثلج ويتوقّف العالم.

سرت مسافة مئة متر ثمّ استدرت يمينًا للابتعاد عن الازدحام المروري الخانق الذي كان يشلّ الحيّ. وصلت إلى شارع دارو الصغير، وهو شارع لم أطأه من قبل. وبدلًا من أن أعود أدراجي، أبهرتني ندفات الثلج الفضّية فقادتني في اتّجاه وميض ذهبي بدا أنّه يطفو تحت السماء الملطّخة. تقدّمت بضع خطوات إضافية لأكتشف أمامي كنيسة روسية في قلب باريس.

كنت أعلم بوجود كاتدرائية ألكسندر نيفيسكي، مكان العبادة التاريخي للجالية الروسية في العاصمة، لكنّني لم أزرها قطّ. من الخارج، كان المبنى أشبه بجوهرة صغيرة من الطراز البيزنطي ترتفع فوقه خمسة أبراج تعلوها قبب وصلبان ذهبية، وخمسة عواميد من الحجر الأبيض المنحوت تتمايز، بتناغم سماوي، من انعكاسات السواد العميق.

كان البناء ينضح بطاقة مغناطيسية شدّتني إليه. شيء ما جذبني إلى الداخل. فضول، أمل، وعد بالدفء.

ما كدت أدخل الكاتدرائية حتى أسرتني الروائح القوية للشمع الذائب واللبان والمر. شُيّد الصرح وفق تصميم عمراني على شكل صليب يوناني ينفتح على محراب صغير يسمو كالبرج.

رحت أعاين أوّلًا، مثل سائح، عناصر الزخرفة النمطية للكنائس الأرثوذكسية: فيض الأيقونات، القبّة المركزية المهيمنة الشاهقة، ولكن أيضًا هذا المزيج اللامحدود من التقشّف والتذهيب. كان النور خافتًا، رغم الثريا الهائلة التي يتراكم الغبار عليها ورغم وفرة الشموع ولهبها المرتجف. المكان شبه مهجور تتلاعب فيه التيّارات الهوائية. سفينة أشباح مرحّبة ودافئة، راسخة في العبق اللاذع للراتينغ والصمغ.

تقدّمت أمام حامل شموع مهيب يتوّج بهالة من نور لوحة أكاديمية عظيمة: يسوع يبشّر في بحيرة طبريّة. كانت العتمة تسهّل

فكرة الخشوع. لم أكن متأكّدًا من سبب وجودي هنا، لكنّني شعرت فجأة كأنّني أنتمي إلى المكان. غير أنّني لم أكن يومًا مؤمنًا. خلال فترة طويلة، كان الإله الوحيد الذي آمنت به هو أنا. يمكن القول، إلى حدّ ما، أنّني خلف لوحة المفاتيح، وخلال سنوات طويلة، كنت أحسب نفسي الله. أو، لمزيد من الدقّة، كنت أتحدّى إلهًا لم أؤمن به لأبني عالمًا – عالمي – ليس في ستّة أيّام، ولكن في عشرين رواية.

نعم، لقد اعتبرت مرّات عدّة أنّني الديميورغوس[1]. في سلوكي مع الناس، كنت ألعب دور الروائي المتواضع رغم نجاحاته. لكن ليس في كتاباتي. هنا، بقدر ما أتذكّر، كان لديّ دائمًا ذلك الاستعداد لتصوير الشخصيات في مخيّلتي، والتمرّد على الواقع، البصق في وجهه وإعادة تشكيله على هوايَ.

لأنّه، في الأساس، هذا ما هي الكتابة عليه: أن تتحدّى برمجة العالم وترتيبه. أن تواجه عيوبه وعبثيّته بالكتابة.

أن تتحدّى الله.

لكنّني الليلة، في هذه الكنيسة، وأنا أرتجف من الحمّى، تائهًا في هذياني، كنت خائفًا حتى الموت. شعرت بأنّ القبّة السامقة تسحقني. كنت على وشك أن أنحني. مثل الابن الضالّ العائد إلى والده، كنت على استعداد لفعل أيّ شيء لكي يغفر لي. من أجل أن ألتقي ثيو من جديد، كنت على استعداد لأن أتخلّى عن كلّ شيء، لأن أتنازل عن العرش.

فجأة، شعرت ببعض الدوّار واستندت إلى أحد الأعمدة الرخامية السوداء. ما هذا الهذر... لقد أصابتني الحمّى بالهذيان. ارتفعت دفقة حموضة من معدتي. كنت أهوي بكياني. كان

[1] خالق الكون المادّي في الفلسفة الأفلاطونية.

الأوكسجين ينفد منّي. لقد نخر الغمّ قلبي فتارة تتسارع نبضاته وتارة ينبض ببطء شديد. لم أعد أشعر بأيّ طاقة. كان جسدي مستنقعًا مهجورًا، أرضًا محترقة مدفونة في الثلج.

خطوت خطوات قليلة في اتّجاه المخرج. كنت أحلم فقط بمرتبة ألقي بنفسي عليها لأغطّ في نوم أبدي. لقد توقّفت حياتي منذ أن فقدت ثيو. لم يعد المستقبل سوى مجرّد نفق جليدي طويل لن أرى نهايته أبدًا. لا أحتاج حتى إلى مرتبة أو إلى بطّانيّة. أردت فقط أن أستلقي في أيّ مكان على الأرض منتظرًا أن يأتي أحد ما ويخلّصني من هذا العذاب.

وبينما اقتربت من المخرج، استدرت بغتة، تقودني يد خفية، وعدت أدراجي إلى التمثال الخشبي للمسيح تعلو رأسه هالة من نور. كما لو أنّ أحدًا غيري يتكلّم، خرجت من فمي كلمات، بين الوعد والتحدّي، وقلت بصوتٍ عالٍ:

– إذا أعدت لي ابني، فلن أعتبر أنّني أنتَ مرّة أخرى. إذا أعدت لي ابني، فسوف أتوقّف عن الكتابة!

وقفت وحيدًا في صمت الكنيسة. بالقرب من الشمعدانات ومصابيح الزيت، شعرت من جديد بدفء ينتشر عبر عروقي.

في الخارج، كان الثلج يتساقط.

في نيويورك، صبي فرنسي في السابعة من عمره ينجح في ركوب الطائرة بمفرده ومن دون تذكرة!

لو موند، 16 يناير 2010

مساء الجمعة، تمكّن ولد يبلغ من العمر سبع سنوات، كان قد أدخل مستشفًى في مدينة نيويورك، من أن يغيب عن عين والدته ويهرب من الموظّفين في مطار نيوارك للصعود على متن طائرة متّجهة إلى باريس.

هذه القصّة، لم يكن رومان أوزورسكي نفسه ليجرؤ على سردها في واحدة من رواياته. حتى أكثر قرّائه ولاءً كانوا سيجدونها بعيدة الوقوع. ومع ذلك...

في وقت متأخّر من بعد ظهر يوم الجمعة، نجح ثيو، ابن الكاتب الشهير، البالغ من العمر سبعة أعوام والذي يعيش حاليًّا مع والدته في ولاية بنسلفانيا، من الفرار من الطاقم الطبّي في مستشفى لينوكس في ولاية نيويورك حيث كان قد أدخل لإجراء عملية بسيطة.

كان الطفل، بدهائه، قد طلب سيّارة أجرة عبر تطبيق أوبر من هاتف أخذه خلسة من ممرّضة في المستشفى. وبمجرّد وصوله إلى السيّارة، استطاع أن يقنع السائق أنّ والديه ينتظرانه في مطار نيوارك.

عند بلوغه المحطّة الجوّية، نجح الصبي الصغير في اجتياز ما لا يقلّ عن أربع نقاط تفتيش متتالية قبل ركوب إحدى طائرات الخطوط الجوّية نيو سكاي: التحقّق من جوازات السفر، ومراقبة الأمتعة، وجهاز كشف المعادن، ومراقبة البطاقات قبل الصعود إلى الطائرة.

جهاز أمن متخاذل

تُظهر مقاطع فيديو المراقبة أسلوبًا واسع الحيلة للطفل الذي، مع اندفاع المغادرين في عطلة نهاية الأسبوع، تمكّن من الاندماج في الحشد من دون أن يراه أحد والانضمام على نحو متقطّع إلى عائلة كبيرة لكي يظهر كأنّه أحد أفرادها.

بمجرّد وصول الطفل إلى الطائرة، اختبأ مرّتين في الحمّام عند تعداد الركاب قبل العودة للجلوس على مقعد شاغر وإمتاع المسافرين بحيله السحرية. قبل ثلاث ساعات فقط من الهبوط، اكتشفت مضيفة الولد، بينما كانت الطائرة تحلّق فوق المحيط الأطلسي ولم تعد تستطيع الالتفاف في هذه المرحلة.

في هذا العام الذي سيشهد إحياء ذكرى عشر سنوات من هجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001، وبينما يخضع المسافرون نظريًّا لمعاينات أمنية أكثر صرامة، يقع هذا الخبر وقع الصاعقة.

فصل روائي لم يرق على الإطلاق لباتريك رومر، رئيس الأمن في مطار نيوارك: «كانت هذه الحادثة نتيجة مجموعة مؤسفة من الظروف وهي تظهر أنّ نظامنا الأمني لا يزال بحاجة إلى التحسين، وهو ما سنبذل قصارى جهدنا للقيام به في أقرب وقت ممكن». كما وصف راي لاهود، وزير النقل في إدارة أوباما، الحدث بأنّه «مؤسف للغاية» مع التأكيد أنّه لم يُمَسَّ بسلامة الركّاب. من جانبها، سرّحت شركة الخطوط الجوّية نيو سكاي بالفعل الموظّفين المسؤولين عن الصعود إلى الطائرة مع تأكيد أنّ عملية المراقبة والتدقيق التي يخضع لها الركّاب قبل الصعود ليست من مسؤوليّتها، بل من مسؤوليّة المطار.

الحياة أقوى من الخيال

عند وصوله إلى مطار رواسي، سُلِّمَ ثيو أوزورسكي إلى شرطة الحدود الجوّية قبل أن يُعهد به موقّتًا إلى جدّه لأمّه.

برّر ثيو هذا الهروب بحقيقة أنّه لم يعد يريد العيش مع والدته في الولايات المتّحدة. وكرّر للشرطة: «أريد أن أعود للعيش مع أبي وإلى مدرستي في باريس». [...]

وردًّا على سؤال من صحيفتنا، قال رومان أوزورسكي أنّه «معجب وفخور» بخطوة ابنه، وحيّا «شجاعته وحنكته» ورأى فيها أقوى شهادة حبّ تلقّاها على الإطلاق. وأشار إلى أنّه «في مناسبات نادرة، تكون الحياة أكثر إبداعًا من الخيال، وعندما يحدث ذلك، فتلك لحظات تحفر فينا إلى الأبد». [...] وفي العودة إلى نزاعه مع زوجته الذي يعود إلى أشهر عدّة، أشار أوزورسكي إلى أنّ هذه الحلقة الجديدة أعطته سببًا إضافيًّا لتبرئة نفسه وأنّه سيقاتل حتى أنفاسه الأخيرة لاستعادة الوصاية الكاملة على ابنه. من جهتها، لم ترغب ألمين أوزورسكي في الردّ على محاولات التواصل معها.

الوجه الثالث للمرآة





12

ثيو

أيّامنا لا تحلو إلّا بغدِها.

مارسيل بانيول

1.

بعد أحد عشر عامًا

18 يونيو 2022، مطار باستيا، هوت كورس

«أنت الشخص الوحيد الذي لم يخيّب ظنّي قطّ يا ثيو. الوحيد الذي تجاوز توقّعاتي».

يجب أن أعترف بالعاطفة الكبيرة التي لطالما منحني إيّاها أبي، وبكرمه في التعبير عنها وعن امتنانه تجاهي. فقد سمعت هاتين الجملتين مرّات لا تحصى منذ طفولتي. بحسب هاتين الجملتين، لا بدّ لنا من الاعتبار أنّ الجميع قد خيّب آمال رومان أوزورسكي: زوجته، محرّروه، أصدقاؤه. حتى أنّني أعتقد أنّ الشخص الذي خيّب آمال رومان أوزورسكي أكثر من غيره، هو رومان أوزورسكي نفسه.

– هيّا، أسرع يا بنيّ، قال لي وهو يناولني حقيبتي. لا أريد أن تفوّت عليك رحلتك!

كانت نبرة الصوت ذاتها في كلّ مرّة يكلّمني. كانت أسماء الدلع ذاتها، «بنيّ»، «ثيو حبيبي»، «صغيري»، منذ أن كنت في السادسة من عمري. ولطالما أحببت ذلك.

كنت قد جئت لزيارته في كورسيكا حيث استقرّ منذ دخولي كلّية الطبّ للسنة الأولى. أمضينا بضعة أيّام رائعة في غابات Castagniccia حاول خلالها أن يظهر في أحسن حالاته. لكنّني كنت أعرف جيّدًا أنّه يمرّ بفترة عصيبة. كان قد فقد كلبته اللابرادور «ساندي» في مايو ويعيش حالة فظيعة من الملل متنقّلًا بين الماعز وأشجار الكستناء. أدركت ذلك على مرّ السنين: والدي وحيدٌ لا يحبّ الوحدة.

– اتّصل بي عندما تصل، حسنًا؟ قال وهو يضع يده على كتفي.

– لكن لا شبكة لديك.

– اتّصل في أيّ حال، ثيو، أصرّ.

خلع نظّارته الشمسية. كانت عيناه تلمعان ببريق التعب وقد أحاطت بها التجاعيد.

غمزني قبل أن يضيف:

– ولا تقلق عليّ يا صغيري.

داعب شعري بيده. قبّلته ووضعت حقيبتي على كتفي قبل أن أناول المضيفةَ بطاقتي. تلاقت أعيننا مرّة أخيرة قبل أن أتوارى عن نظره. نظرات متواطئة، كالعادة، ولكن مشحونة أيضًا بألم لم ينطفئ من معارك خضناها معًا في يوم من الأيّام.

2.

عندما بلغت صالة المغادرة، شعرت فجأة بأنّني وحيد. وحيد حقًّا. كما أشعر في كلّ مرّة أتركه. كنت عاجزًا مشوّشًا وكان الأمر ينتهي بي أحيانًا بالبكاء.

بحثًا عن بعض المعنويّات، رحت أفتّش عنه. ذلك القارئ الذي يحمل كتابًا لأبي. بمرور الوقت، أصبح هذا الأمر أقلّ شيوعًا من قبل. أتذكّر عندما كنت طفلًا كيف كانت كتبه منتشرة في كلّ مكان. في المكتبات، في المطارات، في المترو، في قاعات انتظار الأطبّاء. في فرنسا، في ألمانيا، في إيطاليا، في كوريا الجنوبية. الشباب، كبار السنّ، النساء، الرجال، الطيّارون، الممرّضات، موظّفو السوبرماركت. جميعهم كانوا يقرأون أوزورسكي. وأنا كنت ساذجًا. فنظرًا إلى أنّني لم أعرف حالةً سواها، كان يبدو لي طبيعيًّا أن يقرأ ملايين الناس قصصًا من نسج خيال والدي، وقد استغرق الأمر سنوات عدّة لأدرك حقًّا كم أنّ تلك الحالة لم تكن عادية قطّ.

وبضربة حظّ، في هذا السبت الواقع في 18 يونيو، في مطار باستيا-بوريتا، وجدت ذلك القارئ! فقد لمحت امرأة شابّة جالسة على الأرض بجانب ماكينة بيع – من ذلك النوع السوّاح الدائم التجوال، بحبائل شعر مجدولة وطبل أفريقي وشروال وحقيبة كبيرة على ظهرها – غارقة في قراءة نسخة جيب قديمة بالية الغلاف من كتاب اختفاء رجل. كانت إحدى روايات والدي المفضّلة. كتبها في العام الذي ولدت فيه، في الفترة التي كان «الكاتب المفضّل لدى الفرنسيين». كنت دائمًا أشعر بنشوةٍ ما عندما أرى قارئًا منغمسًا في إحدى رواياته. والدي يدّعي أنّ ذلك لم يعد يؤثّر فيه منذ وقت طويل، لكنّني أعرف جيّدًا أنّ هذا غير صحيح.

نشر رومان أوزورسكي تسع عشرة رواية حلّت كلّها من بين الكتب الأكثر مبيعًا. كتب كتابه الأوّل، الرّسل، عندما كان في سنّ الحادية والعشرين، طالب طبّ بدوره. وصدر آخر كتاب له في ربيع العام 2010 عندما كان عمري ستّة أعوام. يكفي أن تكتب اسمه في ويكيبيديا لتعرف أنّ كتبه ترجمت إلى أكثر من أربعين لغة وبيعت منها 35 مليون نسخة.

هذا الدفق الإبداعي كلّه توقّف فجأة في شتاء العام 2010، بعد وقت قصير من قرار والدتي هجره واصطحابي للعيش معها في الولايات المتّحدة الأمركية. منذ ذلك اليوم، وضّب أبي أقلامه وأغلق حاسوبه وأصبح يكره كتبه. بحسب ما يقول، كان جزء من المسؤولية يقع على هزيمته الزوجية والتداعيات المؤلمة التي تلت ذلك. كان يتحدّث عن الأمر دائمًا على أنّه قوّة خارجية. أعداء محتملون دخلوا بيتنا وهاجمونا ونهبونا.

لطالما استعصى عليّ فهم السبب الكامن وراء ابتعاده عن الكتابة. «العيش أو الكتابة، عليك أن تختار»، كان يردّد على مسمعي في كلّ مرّة أطرح عليه السؤال. في سنوات طفولتي، لم أستطع أن أقدّر حقًّا الحزن الذي كان متغلغلًا فيه. كنت، بأنانية، أفرح لوجود والدي في المنزل، عندما يحضرني من المدرسة كلّ يوم، لأنّه موجود وجاهز دائمًا، أفرح لذهابنا إلى ملعب بارك دي برنس كلّ أسبوعين وإلى السينما كلّ أربعاء، لسفرنا معًا في كلّ عطلة مدرسية، أفرح للعب تنس الطاولة معه ساعات أو لمبارياتنا المطوّلة في ألعاب الفيديو «فيفا»، و«غيتار هيرو» و«أساسنز كريد».

أذيعَ نداء التوجّه إلى باب الركّاب. انتظرت تزاحم فوج الناس المندفع نحو المضيفتين كما لو أنّهم لن يحصلوا على مقعد في

الطائرة. تحوّل التشوّش في عقلي قلقًا. يؤلمني أن أرى والدي يشيخ رازحًا تحت هذا الإرهاق الشديد. كنت دائمًا أعتقد أنّ العجلة ستدور في النهاية. أنّه سيستعيد حماسته للحياة وأنّ عينيه سوف تلمعان بحبٍّ جديد يومًا ما. لكنّ كلّ ذلك لم يحدث. على العكس تمامًا، فمُذ غادرت باريس لأتابع دراستي في بوردو وجاء هو للعيش في المنفى هنا، اشتدّت هجماته الاكتئابية.

أنت الشخص الوحيد الذي لم يخيّب ظنّي قطّ يا ثيو.

تردّد صدى كلماته في رأسي وقلت لنفسي أنّني لم أفعل شيئًا يُذكر لأستحقّ هذه المكافأة.

أحسست فجأة بشعور سيّئ يستولي عليّ. سلكت على الفور الطريق المعاكس لمغادرة منطقة الصعود إلى الطائرة، على الرغم من احتجاجات الطاقم الأرضي. كان والدي في السابعة والخمسين من عمره. لم يكن كبيرًا في السنّ. على الرغم من أنّه قال لي مرارًا ألّا أقلق بشأنه، إلّا أنّني لم أتمكّن من الامتناع عن ذلك. كان يطلق عليّ في صغري لقب «الساحر» أو «هوديني» لأنّ بحثي الأوّل في المدرسة كان عن هذا الساحر الهنغاري، ولأنّني أمضيت وقتي في تجربة الخدع السحرية التي كان غالبًا المتفرّج الوحيد عليها، ولأنّني تمكّنت من تحدّي جهاز المراقبة في أحد أكثر المطارات أمانًا في الولايات المتّحدة للانضمام إليه في باريس. لكنّ ذلك الوقت قد انقضى. لم أعد ذلك «الساحر» ولم يعد لديّ القدرة حتى على منعه من الغوص في رمال الاكتئاب المتحرّكة.

عبرت راكضًا قاعة المطار واقتحمت موقف السيّارات. كان الهواء جافًّا وساخنًا كهواء آب/أغسطس. لمحت جسمه الطويل من بعيد. كان واقفًا، منحني الظهر، بلا حراك بالقرب من سيّارته.

– بابا؟ صرخت مسرعًا نحوه.

استدار ببطء، رفع لي يده ولمحت ابتسامة ترتسم على شفتيه. ثمّ سقط أرضًا، كأنّ سهمًا خفيًّا قد اخترق قلبه.

الكاتب رومان أوزورسكي يتعرّض لنوبة قلبية

كورس ماتين، 20 يونيو 2022

لا يزال الروائي رومان أوزورسكي يرقد في مستشفى باستيا منذ نهار السبت 18 يونيو بعد إصابته بنوبة قلبية. وكان الكاتب قد شعر بتوعّك شديد وانهار في موقف سيّارات مطار بوريتا حيث كان يرافق ابنه.

لحسن الحظّ، قدّم رجال الإطفاء الذين صودف وجودهم في المكان في مهمّة أخرى الإسعافات الأوّلية باستخدام جهاز تنظيم ضربات القلب أثناء انتظار وصول سيّارة الإسعاف.

شخّص الفريق الطبّي فور دخوله المستشفى أضرارًا بالغة في الشرايين التاجية ما تطلّب جراحة فورية. وقالت البروفيسور كلير جولياني: «بدأنا العملية الجراحية الساعة الرابعة بعد الظهر وأنجزناها بعد الثامنة مساء تقريبًا». وقد أجرت الجرّاحة عمليّة فتح مجرى جانبي للشريان التاجي للمريض.

«عندما استيقظ، كان السيّد أوزورسكي في حالة مُرضية»، تابعت السيّدة جولياني. «في الوقت الراهن، لقد تجاوز مرحلة الخطر»، ولكن لا يزال من السابق لأوانه معرفة ما إذا كان الكاتب سيعاني تلفًا عصبيًّا جرّاء العملية. «أوزورسكي كاتب قرأت له الكثير عندما كنت أصغر سنًّا»، أخبرتنا الجرّاحة التي تعزم طلب توقيع كتاب من مريضها عندما تتحسّن حالته.

بعد أن كان رومان أوزورسكي في السابق غزير الإنتاج، لم ينشر أيّ رواية منذ ثمانية عشر عامًا. كان متزوّجًا بعارضة الأزياء البريطانية ألمين ألكسندر التي توفّيت بجرعة زائدة في أحد المخيّمات العشوائية في إيطاليا في العام 2014. أمّا ابنه، ثيو، فهو لا يزال الآن بجانبه.

13

مجد أبي

لقد سئمت أن أكون نفسي. سئمت صورةَ رومـان غاريالتي ألقوها على عاتقي مرّة واحدة وإلى الأبد منذ ثلاثين عامًا.

رومان غاري

.1

بعد يومين

باريس

دفعت الباب الذي انفتح من دون صرير. لم تطأ قدمي هذه الشقّة منذ اثني عشر عامًا. كأنّ دهرًا قد مرّ.

لقد كذب عليّ والدي. ادّعى كلّ تلك السنوات أنّه باع المكتب حيث كان معتادًا أن يكتب عندما كنت طفلًا. وليس ذلك فحسب، بل اتّضح أنّ ذلك المكان – الذي ينضح برائحة زهر البرتقال والليمون الأسود – لم يكن يومًا مهجورًا. كانت الشقّة العلوية، التي تُستَخدَم مكتبًا، مكوّنة من غرفتين وتقع في ساحة بانتيون حيث عاش مع أمّي

قبل ولادتي. كانت عبارة عن ثلاث غرف خادمة مجتمعة حوّلها لاحقًا مشغلًا يقصده يوميًا تقريبًا حتى بداية العام 2010.

«أريد منك خدمة، ثيو...» كانت تلك الجملة الأولى التي لفظها في المستشفى بعدما استعاد وعيه بعد العملية الجراحية. «أودّ منك أن تذهب إلى مكتبي في البانتيون وتجلب لي شيئًا».

حصلت على المفتاح، كما أخبرني والدي، من الحارس الذي أكّد لي أنّه لم ير السيّد أوزورسكي منذ عشر سنوات في الأقلّ، على الرغم من أنّ هناك من يأتي لتنظيف الشقّة كلّ ثلاثة أسابيع.

فتحت الستارة الكهربائية عند الواجهة الزجاجية. كان الداخل لا يزال كما أتذكّره. أرضية جميلة من خشب البلّوط اللامع، ديكور مينيمالي – مقعد برشلونة، أريكة من الجلد، طاولة منخفضة من الخشب المتحجّر، مكتب من خشب الجوز المشمّع – إضافة إلى أعمال فنّية أحبّها أبي قبل أن يفقد الاهتمام بكلّ شيء، ما عداي: فسيفساء صغيرة من تصميم إنفيدر، تفّاحة برونزية عليها رسم شفتين من توقيع النحّاتة الفرنسية كلود لالان، لوحة مخيفة للرسّام شون لورينز تمثّل رجلًا–أرنبًا ضاحكًا لطالما جعلني أرى الكوابيس في صغري.

في المكتبة، مجموعة من الكتّاب الذين كان يقدّرهم: جورج سينمون، جان جيونو، بات كونروي، جون إيرفنغ، روبرتو بولانيو، فلورا كونواي، رومان غاري، فرانسوا ميرلان. لمحت صورة عائلية لنا على شاطئ في مارسيليا في إطار. كنت أعتلي كتفَي والدي وكانت والدتي تسير بجانبه. كانت جميلة وبدت مغرمة. كانت تفوح منّا رائحة الرمل والملح وأشعّة الشمس تتلألأ على شعورنا. كنّا نبدو سعداء للغاية. فرحت لأنّه لا يزال يحتفظ بهذه الصورة. هي دليل على وجود

شيء جميل وقوي بينهما في وقت من الأوقات، بغضّ النظر عمّا حدث بعد ذلك. وعلى أنّني ثمرة هذا الشيء.

بجانب رسم رسمته له في عيد ميلاده، كان يضع، في إطار، الصفحة الشهيرة من صحيفة لوموند التي تعود إلى تاريخ 16 يناير 2011 وتحمل عنوان: في نيويورك، صبي فرنسي في السابعة من عمره ينجح في ركوب الطائرة بمفرده ومن دون تذكرة!

رحت أتأمّل الصورة التي تحتلّ وسط الصفحة وقد تغيّر لونها قليلًا مع مرور الزمن. محاطًا برجلين من الشرطة، أظهر وأنا أرفع علامة النصر مبتسمًا ابتسامة ساطعة تعرض أسناني اللبنية المتباعدة. كنت أضع نظّارتي المستديرة الملوّنة وأرتدي سترة حمراء وبنطالًا من الجينز عُلّقت في حزامه علّاقة مفاتيح في شكل غرندايزر.

كانت لحظة مجيدة في حياتي. في تلك الفترة، عُرِضَت هذه الصورة مرارًا وتكرارًا في شبكة سي أن أن وتصدّرت عناوين النشرات الإخبارية لمحطّات تلفزيونية كبرى. وكاد وزير في حكومة باراك أوباما يستقيل بسبب تلك الواقعة التي جعلت والدتي تخضع وتقبل أن أدرس في باريس وأعيش مع والـدي. لقد استعدت له اسمه، وغسلت شرفه، حتى أنّني أجبرت تلك الصحيفة، التي لم تتحدّث يومًا بشكل إيجابي عن رواياته التسع عشرة، على نشر أوزورسكي على صفحتها الأولى. أعرف نهاية المقالة جيّدًا لا بل حفظتها عن ظهر قلب، لكنّني لا أزال أقرأها إذ، في كل مرّة أشعر بأنّني أسوأ، تجعلني أشعر بأنّني أفضل:

وردًّا على سؤال من صحيفتنا، قال رومان أوزورسكي أنّه «معجب وفخور» بخطوة ابنه، وحيّا «شجاعته وحنكته» ورأى فيها أقوى شهادة حبّ تلقّاها على الإطلاق.

بينما كنت بالكاد أنطلق في حياتي، كنت ذلك الساحر الرائع، القادر على حشد قلبي وذكائي لتكييف الواقع مع رغباتي. لقد أخضعت الواقع وجعلت المستحيل ممكنًا.

كانت أشعّة الشمس تلمع على الأرضية الخشبية. كنت آتي إلى هنا مرّات عدّة أيّام السبت أو الأربعاء بعد الظهر عندما لم تكن خديجة تستطيع رعايتي. كان والدي قد اشترى طاولة كرة قدم ولعبة آركيد لأملأ أوقات فراغي. ما زالتا موجودتين في زاوية من الغرفة، بالقرب من مجموعة أسطواناته وملصق فيلم Le Magnifique.

«هناك شيئان أودّ أن تجلبهما من الشقّة، ثيو. أوّلًا، مجلّدًا أسود من الورق المقوّى تجده في الدِّرج العلوي من مكتبي».

– هل يمكنني فتحه؟

– افعل ما يحلو لك.

جلست على كرسيّ دوّار مصنوع من الجلد الفاتح، حيث كان يجلس والدي للكتابة. كان أمامي، على المنضدة، وعاء كبير من الفخّار يحتوي على أقلام فاخرة قدّمها له محرّره، لكنّه لم يستخدمها قطّ. في الدِّرج، كان الملفّ الشهير. ففككت الرباط المطّاطي لأرى ما يحويه. رزمة من أوراق ذات حجم عادي مرقّمة طُبع عليها نصّ. لم تترك الفصول وتصميم الصفحات أيّ مكان للشكّ: كان بين يديّ نصّ غير منشور لرومان أوزورسكي! وكان أبي قد خربش تعليقاته على هامش الصفحة وأجرى تصحيحاته.

لم يكن للنسخة المطبوعة أيّ عنوان، لكنّ النصّ كان يتألّف من جزءين مختلفين. سُمّي الجزء الأوّل فتاة المتاهة، بينما الثاني، وهو أطول، كان بعنوان شخصية روائية (رومانية). قرّرت تأجيل قراءته بداية الأمر، لكن عندما قلّبت الصفحات، ظهرت أمام عينيّ أسماء مألوفة، كان أوّلها اسمي! إضافة إلى أسماء أبي، أمّي، جاسبر فان ويك.

هذا غريب. لم يكن والدي يحتفظ بمذكّراته ولم يكتب يومًا سيرة ذاتية خيالية. كانت رواياته، التي تنضح بانفعالات عاطفية رومانسية وتُلهم على الهروب، نقيضًا للنرجسية والاستماع إلى الذات. أمر آخر لفت انتباهي: التاريخ الذي حدثت فيه القصّة. نهاية العام 2010 الصعبة التي كنّا فيها جميعنا تعساء للغاية. شعرت بإغراء كبير. التقطت المخطوطة وجلست على الأريكة لأبدأ قراءتها.

2.

عندما قلبت الصفحة الأخيرة، بعد ساعة ونصف، اغرورقت عيناي بالدموع وكانت يداي ترتجفان. كانت القراءة تارة مؤثّرة وتارة أخرى مرهقة. كنت أحمل ذكريات حيّة ومؤلمة عن هذه الفترة من حياتنا، لكنّني لم أدرك من قبل حجم المعاناة التي تحمّلها والدي في ذلك الوقت. ولم أفهم أيضًا كيف استطاعت أمّي أن تكون مكيافيلية[1] إلى ذلك الحدّ. في السنوات التي أعقبت ذلك، كان حكيمًا بما يكفي لعدم إرباكها أمامي والتوصّل دومًا إلى إيجاد ظروف مخفّفة لها. اكتشفت أيضًا سبب توقُّف والدي عن الكتابة. كان السبب ذلك الوعد الشهير الذي قطعه في أمسية ثلجية في كنيسة أرثوذكسية. شعرت ببلبلة وتكدّر، وبدا لي كلّ شيء فوضى عارمة.

شيء ما حيّرني رغم ذلك: قصّة الكاتبة فلورا كونواي.

تذكّرت أنّ والدي أوصاني بقراءة أحد كتبها قبل بضع سنوات، لكن على حدّ علمي لم يكونا مقرّبين ولم أسمع قطّ بهذه القصّة المأسوية لابنتها الصغيرة التي ماتت وهي تسقط من آخر طابق من مبنى في نيويورك.

[1] في مجال علم نفس الشخصية، تعتبر المكيافيلية سمة نفسية ترتكز على التلاعب بالآخرين، والفتور العاطفي، واللامبالاة بالأخلاق.

التقطت هاتفي وفتحت موقع ويكيبيديا لأبحث عنها. تمامًا كما قرأت في النسخة المطبوعة، كانت سيرة حياة فلورا تقدّمها على أنّها روائية غامضة، محبوبة ومكرّمة، فائزة بجائزة كافكا. عاشت دومًا خارج المشهد الأدبي ولم تنشر أيّ شيء منذ سنوات. كانت الصورة الوحيدة لها هي تلك الرائعة، غير الواضحة تمامًا، والتي تبدو فيها شبيهة فيرونيكا لاك. لم أجد الكثير غير ذلك على موقع دار فيلات للنشر.

مرتبكًا ومشوّشًا، نهضت لأسكب لنفسي كوبًا من الماء. لقد فهمت أنّ والدي لم يسع قطّ إلى نشر هذا النص. لقد تطرّق إلى جانب حميمي للغاية من المشاكل التي مزّقت عائلتنا ومن عذابات الخلق وحياة الكاتب. لكن ماذا كانت تفعل فلورا كونواي في هذه الرواية؟ لمَ لم يكتب أبي عن روائية من نسج خياله؟

«– والشيء الثاني الذي يجب أن أجلبه يا أبي؟

– ثلاثة دفاتر كبيرة.

– من مكتبك أيضًا؟

– كلّا، هي مخبّأة في غطاء المدخنة فوق الموقد».

كنت قد اتّخذت احتياطاتي بأن طلبت من الحارس أن يقرضني بعض أدوات النجارة. مدّة عشر دقائق، تعاركت بكلّ قوّتي مع أحجام مفكّات البراغي كافّة لأتمكّن أخيرًا من فكّ غطاء المدخنة. أدخلت يدي عبر مدخنة الموقد المصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ لأعثر على الدفاتر التي أخبرني عنها والدي. كانت أكبر بكثير ممّا تخيّلتها. مفكّرات كبيرة الحجم مصنوعة من الجلد المبرغل من ماركة لويشتورم الألمانية للقرطاسية. متّصلة ببعضها بعضًا بواسطة دفاتر مخيّطة، كانت تحتوي على ثلاثمئة صفحة مرقّمة كُتب عليها من

الجهتين، حتى في الهوامش، بخطّ يد رومان أوزورسكي الذي يسهل التعرف إليه.

مخطوطات جديدة غير منشورة؟ على الأرجح. كانت كلّها مكتوبة باللغة الإنكليزية وكان كلّ دفتر يحمل العنوان: فتاة المتاهة، توازن ناش، نهاية المشاعر. على الرغم من أنّ كلّ شيء كان واضحًا، لم أفهم في بادئ الأمر معنى هذا كلّه. قرأت الأسطر الأولى من كلّ مخطوطة وبحثت بشكل عشوائي في الصفحات. كانت مكتوبة بخطّ أبي لكن لم يكن أسلوبه في الكتابة ولا نوع الروايات التي يكتبها. غارقًا في التفكير، وضعت الدفاتر الثلاث مع المخطوطة في حقيبة ظهري.

قبل أن أذهب، أعدت غطاء المدخنة إلى مكانه وبينما كنت أهمّ بمغادرة الشقّة، مررت أمام المكتبة وألقيت نظرة خاطفة على الكتب مرّة أخيرة. في هذه اللحظة، اتّضح كلّ شيء. كانت تلك العناوين لروايات فلورا كونواي! وقفت في حالة من الذهول. التقطت الدفاتر من جديد واستغرقت في مقارنة النصوص وقتًا طويلًا. مع بعض الفروق الدقيقة، بفعل الترجمة من الإنكليزية إلى الفرنسية، كانت مطابقة تمامًا.

اتّصلت بوالدي لأستفسر منه لكنّ الردّ جاء من خدمة الرسائل. عاودت الكرّة مرّتين، من دون جدوى. كنت في حالة ذهول قصوى. لماذا أخفى رومان أوزورسكي هذه المخطوطات الأصلية المكتوبة بخطّ يده والمنشورة تحت اسم فلورا كونواي؟ لم يكن هناك ثلاثون جوابًا. كان هناك اثنان فقط: إمّا أنّ والدي كان كاتب الظلّ لفلورا كونواي. إمّا أنّ والدي كان هو فلورا كونواي.

3.

ركبت مترو ساحة مونج. في المقطورة، وبعد أن بحثت في إحدى روايات كونواي، وجدت عنوان دار النشر الخاصّة بها. كنّا قد وصلنا إلى محطّة ساحة إيطاليا، فبدّلت المترو لألتحق بالرقم 6 إلى راسبيل.

كان مبنى دار النشر «فانتين دو فيلات» عبارة عن بناء صغير من طابقين يطلّ على ساحة شارع كومباني بروميير 13، النقطة الرئيسية التي أطلقت فيها الشرطة النار على بلموندو في نهاية فيلم «منقطع الأنفاس»، أمام عينَي صديقته جان سيبرغ.

كانت المساحة الخارجية بمثابة دعوة للحلم اللذيذ: فناء مرصوف بالحصى، ونافورة مغطّاة باللبلاب، ومقعد حجري جميل، ومنحوتات لحيوانات متناثرة بين السراخس والزعرور.

دفعت الباب من دون أن أعرف حقًّا ما كنت أتوقّعه من تصرّفي. يشبه مقرّ دار النشر استوديو فنّان له سقف شاهق وسقف زجاجي يظلّل المكاتب. من النظرة التي رمقتني بها، عرفت أنّ الشابّة عند المدخل - التي بالكاد تكبرني سنًّا - تنطبق عليها كليشّيهات التعجرف كافّة، لاسيّما «المتكبّرة»، «المتشامخة»، «المتغطرسة».

- مرحبًا، أريد رؤية فانتين دو فيلات.

- من دون موعد، مستحيل.

- إذًا، أودّ تحديد موعد.

- في أيّ خصوص؟

- أريد التحدّث معها عن نصّ...

- بالنسبة إلى المخطوطات، يجب إرسالها إمّا عبر البريد الإلكتروني أو عبر مكتب البريد.

- إنّه معي.

– لا تنشر الدار إلّا عددًا قليلًا جدًّا من المخطوطات الجديدة...
– أنا متأكّد من أنّ السيّدة دو فيلات ستكون مهتمّة بهذا.
فتحت حقيبتي وكشفت لها عن الدفاتر السميكة التي كتبها والدي.
– حسنًا، أعطنيها، سوف أسلّمه إيّاها.
– أريدها فقط أن تراها، لا يمكنني التخلّي عنها. من فضلك.
– إذًا مع السلامة! أغلق الباب خلفك.
إحباط. إعياء. عجز. غضب. مشاعر تعتمل في داخلي قد تشكّل ألدّ أعدائي. كان عليّ أن أحاول احتواءها حتى لا تتحكّم فيّ، ولكن أيضًا المحافظة على اتّقادها مثل الجمر لأنّها من نوع المشاعر التي تشكّل أحيانًا الوسيلة الوحيدة لإيجاد الحلّ في موقف معيّن. أحيانًا للأفضل، وأحيانًا للأسوأ. مجازفة الحياة...
خفضت عينيّ. ليس إذعانًا، بل لمعاينة مكتب الشابّة التي تخاطبني. كمبيوتر محمول، رزمات من الأوراق المبعثرة، سمّاعات إيربودز حديثة، بطاقة مترو، علبة طعام فارغة، هاتف مفتوح على موقع إنستغرام، فنجان قهوة موضوع على كتاب مستعمل لجان إشنوز يحمل لاصقًا أصفر لمكتبة «جيبر جون»، وأيضًا ثقّالة ورق ضخمة من الحجر تشبه تمثالًا من تماثيل مواي المصنوعة من حجر البازالت في جزيرة القيامة. التقطت المنحوتة، وبكلّ ما أوتيت من قوّة، قمت برميها على السقف الزجاجي.
هي إحدى وصايا الساحر: الإبقاء على عنصر المفاجأة أطول فترة ممكنة. وهذه المرّة، لم يرَ جمهوري ما سيأتي.
تحطّم أحد ألواح الزجاج إلى ألف قطعة في ضوضاء جهنمية جعلت الفتاة المتغطرسة تصيح. في الوقت الحالي، اختفت عن وجهها كلّ ملامح التعجرف وبانت محلّها علامات الذعر والهلع.

ثواني طويلة، ساد الصمت المكان قبل أن يحضر عدد من الأشخاص إلى القاعة وعيونهم شاخصة إليّ.

كانت فانتين دو فيلات من بين الأشخاص الذين توجّهوا إلى الصالة. كنت قد بحثت، في المترو، عن صورة لها في الإنترنت لكنّني كنت حتمًا سأتعرّف إليها حتى لو لم أفعل. كانت أكبر سنًّا ممّا كانت عليه في رواية والدي، ولكن كانت لديها الهيئة نفسها، تلك الهالة السرّية التي بدورها فتنت وأسخطت شخصية فلورا كونواي.

كانت هي من اقتربت منّي. ببطء. لا بدّ أنّها أحسّت بالخطر، لكنّني شعرت بأنّ حادثة الزجاج المحطّم بدت لها مستبعدة، كأنّها استشعرت غريزيًّا بأنّ هناك حريقًا أكبر ينبغي إخماده.

– أعتقد أنّك مدينة لي بشرح، قلت وأنا أناولها الدفتر الذي أخذته من على مكتب الاستقبال.

أمسكت فانتين الدفتر، مذعنة، كما لو كانت تعرف ما في داخله. من دون كلمة أو إيماءة لفريق عملها، خرجت إلى الفناء وجلست على مقعد بجانب النافورة. مفتونة وشاردة في الوقت نفسه، وعلى وقع خرير مياه البركة، أخذت فانتين تتصفّح الدفتر دقائق طويلة. انتظرَت أن ألحق بها وأجلس جنبها قبل أن ترفع عينيها عن المخطوطة وتعترف لي:

– منذ ما يقرب من عشرين عامًا، أعتقد أنّني صلّيت كلّ صباح لكي لا يأتي هذا اليوم أبدًا.

أومأت برأسي متظاهرًا بأنّني فهمت في انتظار اكتشاف المزيد. حدّقت فانتين فيّ بإصرار. شيء ما أربكها، في مظهري أو في نظرتي.

– من الواضح أنّك أصغر من أن تكتب هذه المخطوطة بنفسك.

– في الواقع، والدي من كتبها.

انتصبت واقفة وهي تضمّ الدفتر إلى صدرها.

– أنت ابن فريدريك أندرسن؟

– كلّا، أنا ابن رومان أوزورسكي.

ترنّحت وتراجعت، كما لو أنّني غرزت سكّينًا في بطنها.

– ماذا؟ رو... رومان؟

تغيّرت ملامح وجهها بالكامل. من الواضح أنّني كشفت لها توًّا عن أمر لم تكن تتوقّعه قطّ. ثمّ جاء دورها لتزعزعني:

– إذًا، أنت... ثيو.

أومأت برأسي «نعم» وسألتها:

– أتعرفينني؟

كان والـدي محقًّا في تحذيري من الروائيين. فهم، حتى لو توقّفوا عن الكتابة، ينشرون الحجارة ويزرعون البذور معدّين لتنظيم التقلّبات والانعطافات في حياتنا الخاصّة وفي السنوات اللاحقة وفي اللحظة الأقلّ توقّعًا.

قد يكون هذا أيضًا ما ردّدته فانتين لنفسها قبل أن تجيبني:

– نعم أعرفك يا ثيو. أنت من تركني والدك من أجله.

دار النشر «فانتين دو فيلات»
تحتفل بعيدها الخامس عشر

لو جورنال دو ديمانش، 7 أبريل 2019

لمناسبة الذكرى السنوية لتأسيسها، مقابلة مع مؤسّسة الدار، فانتين دو فيلات.

استقبلتنا فانتين دو فيلات في مكاتبها في مونبارناس، في ساحة شارع كومباني بروميير 13، في قلب فناء داخلي صغير ينضح سحرًا. كانت فرصة لمؤسِّسة الدار التي تحمل اسمها لتقويم سنوات حضورها الممتدّة على خمسة عشر عامًا في عالم النشر.

محرّرة متحفّظة

منذ اللحظة الأولى، كانت اللهجة واضحة: «لست هنا لأتحدّث عنّي، بل عن الكتب التي أنشرها»، نبّهتنا المحرّرة وهي تضع خصلة شقراء من شعرها القصير وراء أذنها. متألّقة، في الأربعينيات من عمرها، كانت ترتدي في بداية هذا الربيع بنطالًا من الجينز باهتًا وقميصًا أزرق داكنًا بياقة بيتر بان وسترة ضيّقة من التويد.

وإن كانت فانتين دو فيلات لا ترغب في التكلّم عن نفسها، فإنّ كثرًا من زملائها في المهنة لا يتردّدون في الانحناء أمام فضولها وذوقها وحسّها. «هي قارئة رائعة»، كما تعترف محرّرة منافسة، «لكنّها أيضًا شخص يحبّ بيع الكتب ولا يمانع في التعامل مع الجانب التجاري من الوظيفة». في غضون خمسة عشر عامًا، تمكّنت المحرّرة من ترسيخ مكانة مميّزة تليق بها، على رأس هيكلية صغيرة مؤلّفة من أربعة موظّفين، تنشر ما يقارب العشر روايات سنويًّا.

فهي التي، كلّ صباح، تدفع باب دار النشر حتى قبل طلوع الشمس. ساعتين من الوقت، تتصفّح بنفسها المخطوطات المرسلة بالبريد أو عبر البريد الإلكتروني. ومع حلول الليل، هي آخر من يغادر المكتب. تستند هويّة الدار إلى ركيزتين: الكشف عن المواهب الجديدة وإعادة استكشاف النصوص المنسيّة، على سبيل المثال الملاذ للكاتبة الرومانية ماريا جورجيسكو (جائزة ميديسيس للكتب الأجنبية 2007) وآلية سمك الرنغة للكاتب الهنغاري تيبور ميكلوس، الرواية الشاعرية التي كتبت في العام 1953 وبقيت في الدّرج أكثر من نصف قرن.

هذا الشغف بالأدب حملته فانتين دو فيلات في قلبها منذ الطفولة. فخلال عطلاتها الصيفية الطويلة التي أمضتها في بيت جدّتها في سارلات، وقعت فانتين في حبّ كتابات أنطون تشيخوف وصامويل بيكيت وجوليان جراك.

بداية صاخبة

كانت طالبة مجتهدة، تابعت التخصّصات الأدبية khâgne وhypokhâgne (سنتان مكثّفتان من الدراسات التحضيرية) في مدرسة بيرتران دي بورن الثانوية في بيريغو قبل أن تكمل دراستها في نيويورك حيث حصلت على تدريبات كثيرة مع ناشرين مرموقين مثل بيكادور وليتل براون. في العام 2001، عادت إلى فرنسا، وبعد فترة تدريب أخرى في فايارد، أصبحت مساعدة تحرير في دار لي ليكورن للنشر.

كانت فانتين دو فيلات في السابعة والعشرين من عمرها عندما أطلقت دار النشر الخاصّة بها لكنّها تكبّدت ديونًا عشرين عامًا واستثمرت

مدّخراتها كافّة. قبل بضعة أشهر، كانت قد اختبرت لقاء غيّر حياتها. شابّة ويلزية غريبة الأطوار في مثل عمرها تقريبًا: فلورا كونواي، نادلة في حانة في نيويورك وكاتبة في أوقات فراغها. وقعت فانتين فورًا في حبّ مخطوطة رواية كونواي الأولى. وعدتها بأنّها ستحارب بكلّ جوارحها لدعم كتابها. وما لبثت أن وفت بالوعد. وفي تشرين الأوّل/أكتوبر 2004، حصل تنازع على حقوق رواية فتاة المتاهة ونُشِرَت في أكثر من عشرين بلدًا. بداية الشهرة لفلورا كونواي وبداية صاخبة لدار النشر.

لغز فانتين دو فيلات

تتحدّث فانتين دو فيلات دائمًا عن رواياتها التي تنشرها باندفاع وحماسة معدية. «شغف مبالغ فيه»، يهاجمها زميل لها في المهنة قائلًا أنّه «باستثناء فلورا كونواي التي تكتب باللغة الإنكليزية ولم تنشر أيّ رواية منذ أكثر من عشر سنوات»، فإنّ أعمال دار فيلات للنشر هي «باردة كيوم ممطر في توليدو». للمحرّرة أيضًا منتقدون من المؤلّفين السابقين: «هي تبرع في ذلك. تجعلك تعتقد أنّك فريد وأنّها ستفعل أيّ شيء من أجلك، ولكن إذا لم يكن لكتابك صدًى في الصحافة أو لم يجمع جمهورًا له، فستتخلّى عنك من دون أيّ شعور بالندم»، تؤكّد إحدى الروائيات. «تحت مظهرها المتواضع والرقيق جدًّا، هي محاربة لا تقدّم الهدايا»، تخبر موظّفة سابقة ما زالت تشكّل فانتين لغزًا بالنسبة إليها. فـ«لا أحد يعرف حقًّا حياتها العائلية أو كيف تمضي وقتها خارج العمل، لسبب بسيط هو أنّها تعتبر أنّ الحياة لا وجود لها خارج دار النشر. فالدار هي فانتين وفانتين هي الدار».

هو أمر لم تسع صاحبة العلاقة إلى إنكاره. «التحرير مهنة شاقّة ورائعة. نشاط حرفي ومتعدّد الجوانب يتطلّب منك أن تغمس يديك في الوحل طوال الوقت. فتكون أحيانًا ميكانيكيًا وأحيانًا قائد أوركسترا، وأحيانًا راهبًا ناسكًا، وأحيانًا مندوب مبيعات».

وعن سؤال ما إذا كانت الكتب لا تزال قادرة على تغيير الحياة، أجابت فانتين دو فيلات أنّ «الكتاب يمكن على أيّ حال أن يغيّر حياة شخص ما» وهذا هو السبب أيضًا في اختيارها هذه المهنة، مع الرغبة فقط في نشر الكتب التي

ترغب في قراءتها كقارئة. وتقول: «لديّ انطباع بأنّه على مرّ السنين، كانت جميع الروايات التي نشرتها عبارة عن أحجار كثيرة ترسم طريقًا طويلًا». «نحو ماذا؟»، نسأل قبل انتهاء المقابلة، لتجيب بغموض: «طريق طويل للوصول إلى شيء أو إلى شخص ما».

فانتين دو فيلات في 6 تواريخ

– 12 تموز/يوليو 1977: ولادة فانتين دو فيلات في برجراك (دوردونيي).

– 1995-1997: دورات أدبية تحضيرية.

– 2000-2001: العمل في الولايات المتّحدة لداري النشر بيكادور وليتل براون.

– 2004: إنشاء دار فانتين دو فيلات للنشر. إصدار رواية فتاة المتاهة.

– 2007: الفوز بجائزة ميديسيس للكتب الأجنبية عن كتاب الملاذ لماريا جورجيسكو.

– 2009: فوز فلورا كونواي بجائزة فرانز كافكا الأدبية عن مجموعة أعمالها.

14

الحبّ الذي يطاردنا

الحبّ الذي يطاردنا هو أحيانًا مصدر قلقنا
مع ذلك نشكره دومًا لأنّه حبّ.

وليم شكسبير

فانتين

اسمي فانتين دو فيلات.

في العام 2002، حين بلغت الخامسة والعشرين من عمري، عشت علاقة غرامية مع الروائي رومان أوزورسكي. تسعة أشهر صاخبة وسرّية. كان أوزورسكي متزوجًا لذلك، لم أكن أشعر بارتياح. لكنّها كانت أيضًا تسعة أشهر من السعادة والوئام. كان رومان، ولتمضية بعض الوقت معي، يقبل بكلّ العروض التي يتلقّاها لترويج كتبه في الخارج. لم أسافر في حياتي بقدر ما سافرت في تلك الأشهر القليلة: مدريد، لندن، كراكوف، سول، تايبيه، هونغ كونغ.

«بفضلكِ، وأوّل مرّة، أشعر بأنّ حياتي أكثر إثارة من رواياتي»، هذا ما ظلّ يردّده على مسمعي. كان يخبرني بأنّني أضفي «رومانسية

روائية» على حياته. لقد تخيّلت أنّها كلمات يقولها لكلّ النساء، لكن ينبغي أن أعترف بشيء عن رومان أوزورسكي: هو يبرع في كشف ميزات لم يعرفها الأشخاص عن أنفسهم غارسًا فيهم ثقة عالية في النفس.

كانت المرّة الأولى التي تمنحني نظرة رجلٍ ما القوّة وتزيدني جمالًا. المرّة الأولى أيضًا التي فضّلت، وخوفًا من فقدان شخص ما، أن أقنع نفسي بأنّني لم أجده بعد. وفي كلّ مرّة أعيد التفكير في تلك الفترة من حياتي، أرتعش وأصاب بالدوّار. كان عام الحرب في العراق وقتل الصحافي دانيال بيرل والرعب من تنظيم القاعدة. كان عام العبارة الشهيرة لجاك شيراك «بيتنا يحترق، ونحن ننظر في اتّجاه آخر»، عام أزمة رهائن مسرح موسكو.

شيئًا فشيئًا، انتهى بي الأمر بأن خضعت واعترفت بحبّي لرومان. أجل، لقد عشت معه في الحقيقة قصّة من تلك القصص التي تنطبع في النفس إلى الأبد. قصّة أشبه بـ«خلخلة جميع الحواس» التي تحدّث عنها رامبو. وبينما كنت أعيش هذا الشغف، أدركت جيّدًا أنّني لن أعرف في حياتي ثانية مشاعر قوية كهذه. وأنّها كانت ذروة حياتي العاطفية. وكانت مقياسًا لكلّ ما سوف أعيشه بعد ذلك والذي سيُعتبر حتمًا رتيبًا لا طعم له.

هكذا، انتهى بي الأمر بأن آمنت بهذا الحبّ، وأعطيته الحرّيّة الكاملة عندما قبلت أن نضع الخطط معًا. سمحت لنفسي بالتفكير في أنّ قصّتنا يمكن ألّا تنتهي ووافقت طوال أشهر على ما كان يطلبه رومان منّي: أن يعلم زوجته بأنّ زواجهما قد انتهى وبأنّه ينوي الطلاق منها.

ما لم أتوقّعه قطّ كان الخبر المهمّ الذي أعلنته ألمين لزوجها في ذلك المساء. كانت تنتظر مولودًا. طفل صغير. ثيو الصغير.

رومان

من: رومان أوزورسكي

إلى: فانتين دو فيلات

الموضوع: حقيقة فلورا كونواي

21 يونيو 2022

عزيزتي فانتين،

بعد عشرين عامًا من الصمت، قرّرت أن أكتب إليك اليوم من سرير غرفة في المستشفى. وفقًا للأطباء، لن أموت في الأيّام القليلة المقبلة رغم هشاشة صحّتي؛ وإذا حدث ذلك، أودّ أن تعرفي بعض الأشياء.

في أواخر التسعينيات، بعد أن نشرت أكثر من اثنتي عشرة رواية، بدأت التخطيط لنشر نصوص تحت اسم مستعار. نعم، كانت كتبي تُباع بشكل جيّد (جدًّا)، لكنّها ما عادت تُقرأ إلّا من خلال الاسم. لم تعد تشكّل حدثًا، أو في أحسن الأحوال، موعدًا سنويًّا. كنت قد سئمت سماع الأشياء نفسها عنّي، الإجابة عن الأسئلة نفسها في المقابلات، تبرير نجاحي وقرّائي وخيالي.

بحثًا عن حرّيّة فنّية جديدة، قرّرت أن أتحدّى نفسي وأكتب قصصًا عدّة باللغة الإنجكليزية. قرّرت أن أغيّر اللغة والأسلوب والنوع. كان لإمكان أن أخلق نسخة أدبية مزدوجة عنّي جانب مرح – مواصلة لعبتي مع القرّاء من وراء قناع – لكنّها أعادت في الوقت نفسه تنشيط خيال قديم رآه الآخرون قبلي: أن أولد من جديد من خلال شخص آخر.

كان العيش من خلال شرذمات حياة مختلفة يعكس تجربتي اليومية كروائي. وكانت عملية الازدواجية تحصل في بُعد آخر وعلى نطاق أوسع.

هكذا، بين العام 1998 ونهاية العام 2002، كنت قد كتبت ثلاث روايات بالإنكليزية، احتفظت بها في أدراجي في انتظار اللحظة المناسبة لنشرها. فانتين! لم أخبرك عن هذا المشروع عندما كنّا معًا. لمَ؟ لا شكّ لأنّني أدركت جيّدًا أنّ في هذه الخطوة الكثير من الاعتداد بالنفس. عمالقة آخرون في عالم الأدب مثل إميل آجار وفيرنون سوليفان أو سالي مارا كانوا قد خلقوا قبلي بفترة طويلة أسماء مستعارة أدبية. لمَ أقلّدهم؟ للانتقام ربّما. لكن ممّ وممّن؟

فانتين

بعد أن علم رومان أنّ زوجته حامل، أنهى علاقتنا فجأة. كان والداه قد انفصلا بعد ولادته مباشرة. لم يعرف والده قطّ ورافقته تلك الحسرة طوال حياته. من أجل توفير بيئة أسرية مستقرّة لابنه، اتّخذ قرارًا ببذل قصارى جهده لمنح زواجه فرصة ثانية. لا بل أعتقد أنّه كان مرعوبًا خصوصًا من احتمال أنّ ألمين، وفي حال الانفصال، ستمنعه من رؤية ابنه يكبر في ظروف جيّدة.

غياب رومان جعلني تائهة في غابة مظلمة من الاكتئاب. بقيت أشهرًا عدّة أشاهد انهياري أمام عينيّ من دون أن أكون قادرة على فعل شيء لردع نفسي من الانغماس أكثر.

الدور الذي أدّيته رغمًا عنّي في نهاية قصّتنا بتأخير اللحظة التي يتحدّث فيها رومان لزوجته، لم يساهم في التئام هذا الجرح الحميم الذي كان يدمّرني. كان جسدي مطروحًا أرضًا، وقلبي ممزّقًا،

وروحي متلفة. بدا قلب الصفحة مستحيلًا. شعرت بالغربة عن نفسي. تجرّدت حياتي من كلّ معنًى ونور وأفق.

في ذلك الوقت، كنت أعمل مساعدة تحرير في قسم المخطوطات في دار نشر في شارع السين. كان مكتبي عبارة عن علّية صغيرة غير عازلة للصوت في الطابق العلوي من مبنى بواجهة رمادية. مساحة «تناتشتُ» عليها مع طيور الحمام ومئات المخطوطات التي احتلّت الأرضية وتسلّقت مكتبي مشيّدةً سلّمًا صغيرًا نحو الرفوف بلغ السقف أحيانًا.

كانت الدار تستقبل أكثر من ألفي مخطوطة سنويًا. وشملت مهمّتي الفرز الأوّل للنصوص والتخلّص من تلك التي لم يرغب الناشر في نشرها (وثائق، أشعار، مسرحيّات) وإبداء الرأي حول النصوص الخيالية. كنت أنقل بعد ذلك ملاحظاتي لمحرّرين آخرين من ذوي الخبرة. لقد حلمت كثيرًا بهذا المنصب لكنّني، ومنذ أن بدأت هذا العمل قبل عام، تخلّيت عن كلّ أوهامي.

كنّا نعيش في عصر تسوده الغرابة. عصر قلّت فيه نسبة القرّاء وزادت نسبة الكتّاب. في لوس أنجلس، كان كلّ شخص يحمل سيناريو خاصًّا في مفتاح USB، من عامل محطّة الوقود إلى النادلة في مقهًى ليلي. في باريس، كان للجميع مخطوطات يخبّئونها في أدراجهم أو أفكار لروايات يحتفظون بها في أذهانهم. من دون مبالغة، كان نصف النصوص التي تصلني رديئًا: كتابة ركيكة، صوغ ضعيف، أسلوب معدوم، رواية مبلبلة. وكان نصفها الآخر مملّ بلا قيمة، من نساء اعتقدن أنفسهنّ مارغريت دوراس أو رجال ادّعوا أنّهم دان براون (كان كتاب شيفرة دا فنشي قد نُشر حديثًا آنذاك في الولايات المتّحدة ونجمت عنه ولادة مخلوقات خيالية فظيعة)... بخلاف

التحف الفنّية أو النصوص الممتازة، لم أتلقّ فعلًا أيّ رواية يمكن أن أقول أنّها أسرت فؤادي.

ثمّ جاء ذلك اليوم في أواخر شهر سبتمبر. كنت قد وصلت عند الساعة الثامنة والنصف صباحًا إلى مكتبي الصغير المتجلّد. شغّلت جهاز التدفئة (الذي كان ينفث الهواء الفاتر فقط) ووصلت ماكينة القهوة (التي كانت تنفث الماء فقط). وبينما كنت أتحضّر للجلوس خلف المكتب، لمحت على الأرض طرف ظاهر من وراء الخزانة. نهضت لالتقاطه. اعتقدت أنّه وقع من الخزانة الخشبية التي كانت تتداعى بثقل المخطوطات.

كنت على وشك إعادته إلى الكومة المتقلقلة عندما لاحظت أنّه موجّه إليّ شخصيًا. كنت لا أزال، أنا التي ليست بشيء في هذه المهنة، أتأثّر بهذا النوع من الاهتمام وأتخيّل المؤلّف وهو يبحث في منتديات الإنترنت أو في أيّ مكان آخر عن اسم شخص قادر على النظر فعلًا في عمله. فتحت الظرف. كان في داخله نصّ مكتوب باللغة الإنكليزية بالآلة الكاتبة.

بالإنكليزية؟ يا تلك الثقة في النفس...

كنت على وشك رميه في صندوق النصوص المرفوضة عندما أثار العنوان فضولي. فتاة المتاهة. شاردة النظر، قرأت الصفحة الأولى وأنا واقفة أمام الخزانة. ثمّ الصفحتين التاليتين. عدت إلى مكتبي لقراءة الفصل الأوّل. ثمّ الفصلين التاليين، ثـمّ... حان وقت الغداء فتناسيته لمتابعة القراءة وعندما طويت الصفحة الأخيرة، كان النهار قد أسدل ستاره.

بدأ قلبي ينبض بسرعة. كنت في حالة صدمة، مفتونة، ترتسم ابتسامة على شفتيّ كما لو أنّني واقعة في الحبّ. أخيرًا! ها أنا أحصل على مخطوطة تلمس صميم قلبي. كتاب مختلف لا يشبه كلّ ما قرأته

من قبل. كتاب فريد، لا يمكن تصنيفه، أسرني في شباكه. نفحة هواء منعشة تطير بي بعيدًا عن هذه البيئة الصغيرة المتصلّبة.

فتّشت في الظرف فوجدت رسالة مرفقة مقتضبة:

باريس، 2 فبراير 2003. سيّدتي، يرجى الاطّلاع على مخطوطة روايتي المرفقة، فتاة المتاهة، التي قد تثير اهتمام دار لي ليكورن للنشر. مع إمكاناتي المحدودة، لم أبعث بهذا النصّ إلّا إلى داركم وأتمنّى الردّ في فترة زمنية معقولة أو إعادته في الظرف في حال لم يناسبكم. مع خالص التقدير، فريدريك أندرسن.

فاجأني التوقيع – تخيّلت خلال القراءة أنّ الكاتب امرأة – لكنّ رغبتي في مقابلة أندرسن زادت عشرة أضعاف الآن. كان العنوان مذكورًا في الرسالة، شارع لومون، إضافة إلى رقم هاتف. اتّصلت فورًا. لم أرغب في تضييع الوقت. كان تاريخ الرسالة يعود إلى أكثر من ستّة أشهر. على أمل ألّا يكون الكاتب قد ملّ من الانتظار وأرسل نصّه إلى دار نشر أخرى. لكن حتى لو كان كذلك، فقد كنت محظوظة بأنّ أحدًا لم ير النصّ قبلي كونه باللغة الإنكليزية. لم يردّ أحد على المكالمة ولم أتمكّن من ترك رسالة صوتية.

عدت إلى المنزل من دون أن أطلع أحدًا على اكتشافي. لقد تمكّنت، بعد إنهاء القراءة وبالرغم من رغبتي الملحّة في مشاركة حماستي، أن أحافظ على الهدوء والصمت. في لي ليكورن، كنت شبح الطابق السادس. السيّدة سيلوفان، الشفّافة. قلّة من الناس كانت تحترم عملي ومعظمها لم يعرف حتى بوجودي. كنت «فتاة المخطوطات»، «المساعدة». في الحقيقة، كنت أكره هؤلاء الشاذّين الآتين من قرن آخر وتلك النساء المتغطرسات اللائي يلتهم بعضهنّ بعضًا. لمَ أقدّم لهم المخطوطة هديّة؟ لمَ أقدّم لهم فتاة المتاهة

خاصّتي؟ في النهاية، كان الظرف موجّهًا لي شخصيًّا. أعدت الاتّصال بفريدريك أندرسن عند الساعة السابعة مساء ومرّة كلّ ساعة حتى منتصف الليل. ولمّا لم أتلقّ جوابًا، كتبت اسمه في غوغل وقد دمّرني ما وجدته.

فال دو غراس: العثور على جثّة رجل في شقّته بعد أربعة أشهر من وفاته

لو باريزيان، 20 أيلول/سبتمبر 2003

هي مأساة الوحدة، ما يحدث للأسف مرارًا وتكرارًا في العاصمة الباريسية وضواحيها. فقد عُثر يوم الخميس على السيّد فريدريك أندرسن جثّة هامدة في شقّته الصغيرة في الدائرة الخامسة.

كان زوجان شابان من الجيران، عادا حديثًا من رحلة طويلة إلى أميركا الجنوبية، قد اتّصلا بخدمة الطوارئ بعد أن نبّهتهم الرائحة والأظرف المتراكمة في الصندوق البريدي لجارهم إلى أنّ ثمّة شيئًا غير طبيعي. وفي وقت مبكر من المساء، مدّ رجال الإطفاء من المجموعة الثالثة سلّمهم في شارع لومون نحو شرفة الاستوديو وعمدوا إلى كسر النافذة للوصول إلى المسكن حيث اكتشفوا مع رجال الشرطة الجثّة وهي في حالة تحلّل. لم يكن هناك أيّ أثر أو دليل اقتحام وكان الباب الأمامي مقفلًا من الداخل، ما يشير إلى وفاة طبيعية غير أنّه رُفع طلب تشريح الجثّة لاستبعاد المسار الجنائي بشكل رسمي. هذا وسيكون على الطبيب الشرعي تحديد التاريخ الدقيق لوفاة هذا الرجل البالغ

من العمر سبعة وستّين عامًا والتي، وفقًا للعناصر التي جُمِعَت في الموقع، تعود إلى أوائل مايو حيث لم يُجَمَّع البريد منذ ذلك الحين.

كان فريدريك أندرسن عازبًا يعيش وحده وكان يدفع معظم فواتيره بواسطة بطاقة الخصم المباشر. هو مدرّس سابق كان يعاني مشاكل صحّية عدّة، ويعيش متنقّلًا منذ سنوات على كرسيّ متحرّك كما أنّه نادرًا ما كان يغادر المنزل. ولم يفاجئ غيابه في الأشهر الأخيرة جيرانه الذين لم يكن على اتّصال بهم.

يذكره الناس أنّه رجل متحفّظ وبارد، غارق في أغلب الأحيان في أفكاره ويحبّ ملازمة البيت. وقد صرّحت أنطونيا توريس، القائمة بأعمال المبنى قائلة: «لم يكن يلقي التحيّة دائمًا عند مصادفته في المصعد». [...]

فانتين

لم يغمض لي جفن طوال الليل. لقد استحوذت عليّ المخطوطة استحواذًا كاملًا. لم أكن أريدها أن تفلت منّي بأيّ شكل من الأشكال. كانت تلك الرواية ملكًا لي. ولمثل هذا السبب أردت الانخراط في هذه المهنة. لاكتشاف نصّ أو مؤلّف. وجدت صعوبة في تصديق أنّ رجلًا يبلغ من العمر سبعة وستّين عامًا كان قادرًا على كتابة رواية حديثة كهذه، ثمّ تذكّرت دروس الفلسفة ومعلّم المدرسة الإعدادية الذي كان يقتبس دائمًا من هنري بيرغسون: «نحن لا نرى الأشياء نفسها؛ نكتفي فقط، في كثير من الأحيان، بقراءة الملصقات عليها». من أعماق السهاد، بدأت خطّة جنونية تتفتّح في ذهني لكنّها كانت تتطلّب بحثًا حقيقيًّا.

في اليوم التالي، اتّصلت بدار النشر وبلّغت الإدارة بأنّني مريضة وسوف أغيب عن المكتب، ثمّ ذهبت إلى شارع لومون. لم أكن أتيت إلى هنا من قبل. في هذا الصباح الباكر، كان الطريق الرئيسي المؤدّي إلى المحالّ التجارية في شارع موفيتارد بالكاد

ينبض حيوية كأنّه جانب هادئ من مقاطعة فرعية. بدا المشهد كإعادة لحلقة من المسلسل التلفزيوني القديم Maigret في فرانس تلفزيون. كان المبنى الذي أمضى فيه فريدريك أندرسن آخر أيّام حياته من أبشع المباني في الحيّ. بناء «حديث» له واجهة بنّيية خرسانية كتلك التي أورثتنا مثلها الكثير حقبة السبعينيات. اعتقدت بادئ الأمر أنّ لا حارس في البناية، لكنّ الملكية المشتركة كانت تضمّ ثلاثة مبانٍ مختلفة وكانت غرفة الحارس في المبنى المجاور.

طرقت باب حارسة المبنى – أنطونيا توريس الشهيرة التي تحدّثت عنها المقالة – متظاهرة بالبحث عن مسكن في مكان قريب. أخبرتها بأنّني قرأت لو باريزيان الأسبوع الفائت وأردت معرفة ما إذا أُجّرَ استوديو السيّد أندرسن من جديد. كانت أنطونيا مسهبة في حديثها عن الموضوع. أكّدت لي أوّلًا أنّ فريدريك أندرسن لم يعد له أيّ رابط بعائلته وأنّ أحدًا لم يظهر منذ وفاته. كان المالك قد أفرغ الشقّة وخزّن جميع ممتلكاته في غرفة كبيرة في الطابق السفلي الثاني في انتظار أن تأتي شركة لأخذها. أخبرتني أيضًا بأنّ أندرسن كان مدرّسًا في المدرسة الثانوية في الدائرة الثالثة عشرة، لكنّ صحّته السيّئة دفعته إلى ترك العمل منذ فترة طويلة. «هل كان مدرّس للغة الإنكليزية؟ – ربّما»، ردّت أنطونيا.

كنت قد سمعت ما يكفي لأنطلق بالخطّة التي تدور في ذهني. أمضيت بقيّة الفترة الصباحية في مقهى في شارع موفيتارد أدرس كلّ الفرضيات في ذهني. أصبحت مقتنعة بأنّ حياتي على وشك أن تتغيّر. وأنّ اصطفاف الكواكب هذا لن يحدث مرّة أخرى. كانت هناك مجازفة، طبعًا، وكانت نافذة الهدف ضيّقة، لكنّ هذه المغامرة أعطت فجأة معنًى لوجودي.

عند الظهيرة، وقت الغداء، هبّت عاصفة. عدت إلى شارع لومون واغتنمت المطر لأتبع سيّارة نحو الطابق الثاني من موقف السيّارات السفلي الخاصّ بالمبنى. كان عدد من المواقف الفردية مغلقًا. ثلاثة منها فقط كان لكلٍّ منها باب أكبر من غيرها، وتذكّرت أنّ حارسة المبنى قد تحدّثت عن «غرفة كبيرة». من بين المواقف الثلاثة، رأيت واحدًا شاغرًا فيما رُكنت سيّارة في الموقف الثاني. أمّا الثالث فكان موصدًا بقفل كبير شبيه بالأقفال التي توضع لحماية الدرّاجات النارية أو السكوتر. تسمّرت طويلًا أمام الباب أحدّق في القفل. كان كلّ شيء قد انتهى. مستحيل أن أتمكّن من خلع القفل. لم تكن لديّ الأدوات ولا القوّة البدنية لذلك.

راحت الأفكار تتزاحم داخل رأسي. غادرت شارع لومون وسرت تحت المطر إلى شركة هرتز لتأجير السيّارات في جادّة سان-ميشيل. استأجرت أوّل سيّارة متوفّرة وقدتها مسافة مئة كيلومتر بين باريس وشارتر. كان ابن عمّي يعيش هناك – نيكولا جيرفي أو، كما يُنادَى، «نيكو الصغير» أو «الأبله الكبير» – وكان يعمل رجل إطفاء. لم يكن الأكثر دهاء في إقليم أور ولوار وقد مرّ وقت طويل مُذ رأيته آخر مرّة، لكنّه كان خدومًا يسهل التعامل معه. بالرغم من أنّ الجميع كان يعتقد عكس ذلك، لم أكن يومًا لطيفة أو ودودًا. كنت حسودًا، غيورًا، ونادرًا راضية. كانت المسؤوليّة تقع من دون شكّ على وجهي الظريف ورزانتي. يُعتَقَد أنّني هادئة، لكنّني في الحقيقة مضطربة. يُعتَقَد أنّني ناعمة، لكنّني قاسية. وحده رومان أوزورسكي عرفني حقًّا. وتعرّف إلى العقرب المتخفّي في وردة. وأحبّني مع ذلك.

تمكّنت من العثور على نيكو عند والدته. أدّيت دور الفتاة الضائعة وطلبت مساعدته لفتح باب المرأب حيث زعمت أنّ حبيبي السابق أقفل على أغراض تخصّني. ابتلع الطعم وبدا مبتهجًا بأداء

دور الحامي. قبل الساعة السادسة مساء بقليل، أعدت السيّارة إلى جادّة كورتي-شارتر، وعندما انضمّ إليّ نيكو مفتخرًا وراء مقود سيّارته الرباعية الدفع، كان معه ملقط قاطع للمعادن يزيد طوله على ستّين سنتيمترًا ويستعمله رجال الإطفاء لكسر الأقفال في حالات الطوارئ. وحالة شارع لومون كانت واحدة منها. شكرت نيكو على مساعدته وصرفته من دون إعطائه فرصة للتدخّل أو فهم ما حدث توًّا.

أمضيت جزءًا كبيرًا من الليل في غرفة المرأب، أحصي كلّ الأغراض التي وجدتها في استوديو فريدريك أندرسن في ضوء مصباح أخذته خلسة من السيّارة الرباعية الدفع. أثاث قليل في حالة جيّدة، كرسيّ متحرّك، آلة كتابة كهربائية من سميث كورونا، حقيبتان بلاستيكيتان كبيرتان فيهما أسطوانات فينيل وأقراص مدمجة لمغنّين متناقضين مثل تينو روسي ونينا هاغن، أو نانا موسكوري وغنز آن روزز. وجدت أيضًا أعدادًا قديمة من ذا نيويوركر وعثرت داخل ثلاثة صناديق على روايات إنكليزية بالنسخات الأصلية: كلاسيكيات من دار بنغوين للنشر، روايات بوليسية بغلاف ورقي، طبعات مفضّلة من مكتبة أميركا. كان الكاراج مثيرًا للاهتمام خصوصًا بالأشياء التي لا يحتويها: لا صور ولا مراسلات. والأهمّ من ذلك كلّه، وجدت في خزانة معدنية لها أدراج ما لم أجرؤ حتى على تخيّله: نسختين مطبوعتين جديدتان. توازن ناش ونهاية المشاعر. مرتعشة، رحت أستكشف الصفحات الأولى بتوجّس. لم تكن مسوّدات بل روايات مكتملة وكانت الصفحات التي قرأتها بروعة رواية فتاة المتاهة نفسها.

غادرت شارع لومون عند الخامسة فجرًا. لن أنسى ما حييت تلك الأحاسيس التي غمرتني في ذلك الصباح وأنا أسير تحت المطر، مبلّلة بالكامل، مكدودة لكن مستبشرة، أعانق بقوّة المخطوطتين الجديدتين. رواياتي...

رومان

من: رومان أوزورسكي

إلى: فانتين دو فيلات

الموضوع: حقيقة فلورا كونواي

[...] الأشهر التي أعقبت انفصالنا كانت الأجمل والأسوأ في حياتي. الأجمل لأنّها تزامنت مع ولادة ثيو وسعادتي بأنّني أصبحت أبًا. والأسوأ لأنّ عدم رؤيتك كان عذابًا دائمًا. غيابك منع عنّي نوم الليالي وأشعل النار في شياطيني الداخلية. ومن أجل أن أستمرّ في العيش معك، خطرت لي فكرة أن أرسل إليك فتاة المتاهة. كهديّة ولطلب السماح.

ولكي تحلو المغامرة، عليها أن تكون مقنعة. كنت أعرف أنّه لن يكون سهلًا خداعك. دبّرت آلاف السيناريوات، لم يبد لي أيّ منها قابلًا للتطبيق. إلى أن ظهر بصيص الأمل. كان وقت العصر وكنت واقفًا في الطابور في مخبز بالقرب من ساحة كونترسكارب. كانت النساء يتكلّمن عن العثور على جثّة رجل بعد أشهر على وفاته في شقّته في شارع لومون. استفسرت جيّدًا عن الخبر. كان أندرسن رجلًا مريضًا ووحيدًا، لا وريث له ولا علاقات اجتماعية. مدرّس بسيط سابق، مملّ ومنعزل، عاش في العالم لكنّه لم يترك أثرًا. كان الرّجل المثالي لتجسيد كاتب مات مجهول الهويّة.

كما لو كنت أنسج حبكة رواية، ضربت الضربة القاضية. كان المبنى في شارع لومون تحت إدارة مكتب الإسكان العامّ في مدينة باريس (OPAC). لم يعني هذا فقط أنّ الشقّة لن تظلّ شاغرة فترة طويلة، ولكن أيضًا أنّ مقتنيات أندرسن، المخزّنة في غرفة في المرأب، لن تبقى هناك إلى الأبد. نسفت القفل الموضوع

من مكتب الإسكان، ولإضفاء صدقية على الثنائية اللغوية لأندرسن، نشرت بعض الأدلّة الزائفة على شكل مجلّات أميركية وروايات مكتوبة باللغة الإنكليزية. تركت أيضًا الآلة الكاتبة التي كتبت عليها نصوصي والمخطوطتين توازن ناش ونهاية المشاعر. أخيرًا، وضعت قفلًا جديدًا للباب – ضخمًا إلى درجة يصعب عليك فتحه – وانتقلت إلى المرحلة الثانية من خطّتي.

كنت أحيانًا أنتظرك في شارع السين. كنت أعرف مكان عملك. وأعرف المشاعر المختلطة التي تنمو داخلك تجاه عالم النشر. ولكي أدخل المبنى، وافقت على مقابلة رئيس الدار. كان الأمر سهلًا: من الناحية المهنية، كنت أعيش أعظم سنوات في حياتي، وفي ذلك الوقت، كان جميع الناشرين يأملون باختطاف «الكاتب المفضّل لدى الفرنسيين». جعلت اللقاء يطول حتى الساعة الواحدة والربع، وعند مرافقتي إلى المصعد، صعدت إلى الطابق العلوي بدلًا من النزول إلى القاعة. كانت الردهة خالية في ذلك الوقت. كنتِ في استراحة الغداء ولم يكن مكتبك مقفلًا: فنادرًا ما يسرق اللصوص المخطوطات... وضعت الظرف خلف الخزانة المنخفضة بشكل مائل كي يكون نصفه ظاهرًا.

وضعت كلّ عنصر في مكانه. الآن، فانتين، جاء دورك.

فانتين

اقترضت المال من الجميع كي أؤسّس دار النشر الخاصّة بي: من أهلي، من أصدقائي، من نيكو. يورو من هنا، يورو من هناك. أوقفت برنامج ادّخار الإسكان، تخلّصت من تأمين الحياة، تحمّلت القروض. كان الجميع يعتبرونني مجنونة ويؤرّخون فشلي الذي تنبّأوا به. قد لا تغيّر الكتب العالم، لكنّ فتاة المتاهة غيّر حياتي. بفضل تلك

الرواية، أضحيت امرأة أخرى، أكثر ثقة، أكثر عزمًا. وهذه الشعلة الجديدة، كنت أدين بها لنسختي الأخرى: فلورا كونواي. الشخصية التي أنشأتها لتجسّد نصّ فريدريك أندرسن. لقد رسمتها وفقًا لرغباتي. كانت فلورا كونواي الروائية التي لطالما أردت قراءتها. كنت قد اخترعت لها، بعيدًا عن التقسيم الطبقي النتن في سان-جيرمان-دي-بري والعلاقات المحرّمة في أوليغارشية الأدب، طفولة في ويلز وحياة بانك في شبابها في نيويورك وماضٍ كنادلة في حانة لابيرينت وشقّة لوفت في بروكلين مطلّة على هدسون. كانت فلورا تعكس مفهومي للحرّيّة: روح متحرّرة لا تبيع نفسها من أجل بيع كتبها، تتجاهل وسائل الإعلام وفي جوهرها، ترسل الصحافيين إلى الجحيم. امرأة لا تخشى شيئًا، تعاشر من يحلو لها ومتى يحلو لها، لا تلاطف غرائز قرّائها الدنيئة ولكن عقولهم، لا تخبّئ ازدراءها للجوائز الأدبية لكنّها تحصل عليها مع ذلك. هكذا وُلدت فلورا، شيئًا فشيئًا، بلمسات صغيرة بينما كنت أترجم نصوصها إلى الفرنسية ولاحقًا، على مدى الفترة التي شهدت نجاحاتها الأدبية، فيما كنت بدوري أجلس أمام شاشتي أردّ على طلبات المقابلات عبر الرسائل الإلكترونية. وعندما حان الوقت لتحديد ملامح فلورا، اخترت صورة لجدّتي في شبابها. صورة فاتنة تشبهني فيها. كانت فلورا كونواي في داخلي، في جيناتي. فلورا كونواي، هي أنا.

أنا لكن في نسخة أفضل.

رومان

من: رومان أوزورسكي

إلى: فانتين دو فيلات

الموضوع: حقيقة فلورا كونواي

[...] يجب أن أعترف بأنّك أذهلتني. حقًّا. كنت قد كتبت تلك النصوص بفرح وببعض النشوة أحيانًا، وهو أمر لم يحدث معي منذ فترة طويلة. عندما لبست نسختي الثانية، عاد سحر الكتابة ليعمل عمله من جديد.

كنت قد سمعت أوّل مرّة بفلورا كونواي مع انجذاب المحرّرين حول العالم لروايتها خلال معرض فرانكفورت. كان عالم النشر يضجّ بحقيقة أنّك أنشأت دار نشر خاصّة بك لتلك الكاتبة الجديدة. لقد أعجبت بدهائك التجاري الذي جعلك تحوّلين المدرّس المملّ نوعًا ما الذي فرضته عليك روائيةً غامضة مرّت في حانة في نيويورك.

عشت ابتهاجًا حقيقيًّا بداية الأمر وانطلقت فجأة بمسيرة مهنية جديدة. لقد تخلّصَت رواياتي أخيرًا من الاسم الملصق عليها.

عشت هذه التجربة كولادة جديدة، شرارة جديدة في حياتي كمبدع. كان الأمر مثل الوقوع في الحبّ مرّة أخرى! لقد ذقت الاختلافات في مواقف معيّنة. في إحدى الحلقات الأدبية، أكثر ناقد من انتقاد كتابي الأخير فيما راح يشيد بكتاب فلورا. بعد بضعة أسابيع، طلبت منّي صحيفة أن أكتب عمودًا عن فتاة المتاهة. وعلى عكس كلّ ما كتبته، أعطيت رأيًا سلبيًّا فاتّهمني الجميع بالغيرة طبعًا! في البداية، كنت سعيدًا بهذه الخطوة الجيّدة، لكنّ المتعة لم تدم. أوّلًا، لأنّه لم يكن عندي من أشاركه إيّاها. ثمّ، وإذا كانت كلمات فلورا كونواي هي كلماتي، فإنّ شخصيتها كانت من صنعك. لم أكن الوحيد الذي يحرّك خيوط اللعبة. ولكي أكون صادقًا، لم أعد أحرّكها على الإطلاق.

على مرّ السنين، أفلتت منّي فلورا كونواي وبدأت تزعجني. في كلّ مرّة يتكلّم أحد ما عنها أمامي، في كل مرّة أقرأ مقالة عنها أو

أسمع أناسًا يشيدون بها في حضرتي، كنت أشعر بإحباط شديد تحوّل مع الوقت غضبًا. كم مرّة أردت الكشف عن سرّي والصراخ للعالم كله: «أيّها الحمقى، فلورا كونواي هي أنا!».

لكنّني صمدت جيّدًا في وجه هذا النزاع اليومي مع الغرور والاعتداد بالنفس.

وفي أحد أكثر الأوقات إيلامًا في حياتي، خلال خريف وشتاء العام 2010، عندما حاولت زوجتي السابقة انتزاع حضانة ابني منّي وشعرت بالعزلة وتخلّيت عن الجميع، أردت أن أكشف نهاية القصّة لكِ. لكِ فقط. وفيما لم أكن متأكّدًا من كيفية إعادة الاتّصال بك، قمت بالشيء الوحيد الذي أتقنه: حاولت أن أخبرك بالحقيقة من خلال رواية. رواية من شأنها أن تصوّر فلورا كونواي ورومان أوزورسكي. المخلوق وخالقه، الشخصية المتمرّدة على كاتب «ها». رواية تكونين أنتِ قارءتها الوحيدة. تلك الرواية، بدأت كتابتها بالفعل، في هذا الشتاء، لكنّني لم أتمكّن قطّ من إنهائها.

لأنّ فلورا لم تكن شخصية سهلة.

لأنّني قطعت وعدًا ولم أكتب سطرًا واحدًا بعد ذلك.

وربّما أيضًا لأنّ هذه القصّة لا يمكن أن تعرف خاتمة لها إلّا في الواقع. لأنّه، كما تقول عبارة ميلر التي كنت تحبّين اقتباسها: «ما فائدة الكتب ما لم تُعِدْنا إلى الحياة، ما لم تستطع جعلنا نلتهمها التهامًا؟».

مركز باستيا الاستشفائي
قسم أمراض القلب - الغرفة الرقم 308
22 يونيو 2022

البروفيسور كلير جولياني (وهي تدخل الغرفة): إلى أين تعتقد نفسك ذاهبًا؟

رومان أوزورسكي (وهو يغلق حقيبته): حيث أراه مناسبًا.

كلير جولياني: هذا ليس معقولًا، عد إلى الفراش فورًا!

رومان أوزورسكي: كلّا، سأخرج من هنا.

كلير جولياني: أوقف هذه الدراما، تتصرّف مثل ابني الذي في الثامنة من عمره.

رومان أوزورسكي: لا أريد البقاء هنا ولو ثانية واحدة. تفوح من هذا المكان رائحة الموت.

كلير جولياني: لم تكن متفاخرًا هكذا عندما كنت محمّلًا على نقّالة وشرايينك مسدودة.

رومان أوزورسكي: لم أطلب من أحد إنعاشي.

كلير جولياني (واقفة أمام الخزانة لمنعه من جلب سترته): عندما أراك هكذا، أقول لنفسي أنّه ربّما كان عليّ أن أطرح مزيدًا من الأسئلة، حقًّا.

رومان أوزورسكي: ابتعدي!

كلير جولياني: أفعل ما يحلو لي. أنا في بيتي!

رومان أوزورسكي: كلّا، أنت في بيتي أنا. من ضرائبي تقبضين راتبك ومنها أيضًا شُيّد هذا المستشفى!

كلير جولياني (وهي تبتعد): تبدو لطيفًا عندما نقرأ كتبك، لكنّك في الحقيقة أحمق عجوز متعجرف.

رومان أوزورسكي (وهو يلبس سترته): إذا أنهَيت كلماتك اللطيفة، فسأنسحب.

كلير جولياني (محاولة استمالته): ليس قبل أن توقّع لي كتابك. في الأقلّ كي لا أكون أنقذت حياتك من دون مقابل.

رومان أوزورسكي (مخربشًا على صفحة من الرواية التي بسطتها الطبيبة أمامه): تفضّلي، هل أنت مسرورة؟

كلير جولياني: أنا جادّة الآن، إلى أين تنوي الذهاب؟

رومان أوزورسكي: إلى حيث لا أحد ينغّص عليّ حياتي.

كلير جولياني: رائع. أنت تعلم أنّه من دون متابعة طبّية سوف تموت.

رومان أوزورسكي: في الأقلّ سأكون حرًّا.

كلير جولياني (وهي تهزّ كتفيها): ما فائدة أن تكون حرًّا إذا كنت ميتًا؟

رومان أوزورسكي: ما فائدة أن أعيش إذا كنت مسجونًا؟

كلير جولياني: تعريف السجن يختلف بحسب كلّ منّا.

رومان أوزورسكي: وداعًا يا دكتورة.

كلير جولياني: انتظر خمس دقائق أخرى. على الرغم من أنّه ليس وقت الزيارة، إلّا أنّ هناك شخصًا يرغب في رؤيتك.

رومان أوزورسكي: زيارة؟ باستثناء ابني، لا أريد أن أرى أحدًا.

كلير جولياني: ابنك، ابنك، ليس على شفتيك سوى هذه الكلمة. دعه يعِش قليلًا!

رومان أوزورسكي (معجّلًا في المغادرة): من يريد رؤيتي؟

كلير جولياني: امرأة تدعى فانتين. تقول أنّها تعرفك جيّدًا. حسنًا، أتريدني أن أحضرها أم لا؟

جديد بدف

آخر مرّة رأيت فيها فلورا
بتوقيع رومان أوزورسكي

1.

بعد عام

بحيرة كومو، إيطاليا

تترك غرفة الطعام في الفندق انطباعًا بالغوص مباشرة في البحيرة. بين القبّة الحجرية القديمة والأثاث الخشبي الفاتح والنوافذ الزجاجية الكبيرة، تتناقض بساطة المكان مع المباني الكلاسيكية الحديثة الضخمة في الضواحي.

كانت الساعة السابعة صباحًا ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد. رُتّبت الطاولات بانتظار الضيوف في مشهدٍ يشي بهدوء ما قبل العاصفة.

صعدت على مقعد التابوريه العالي واستقررت إلى البار. فركت عينيّ لتبديد التعب بينما كانت الانعكاسات الزرقاء لسطح البحيرة تتراقص على البلاطات الكبيرة الرمادية المصنوعة من حجر ceppo di gre الإيطالي. طلبت القهوة من نادل كان يرتدي بدلة

توكسيدو بيضاء فقدّم لي فنجانًا صغيرًا بنكهة مخدّرة مخملية تغطّيها رغوة ناعمة.

كنت أراقب المكان حولي كأنّني واقف على مقدّمة سفينة. الموقع المثالي لمشاهدة العالم يستفيق. كان وقت التعديلات الأخيرة: عامل المسبح الذي ينهي تنظيف حوض السباحة، البستاني الذي يسقي أحواض الزهور، القبطان الذي ينكبّ على تلميع قارب ريفا الخاصّ بالشركة والراسي فوق الجسر العائم.

– Signore, vuole un altro ristretto?[1]

– Volentieri, grazie[2].

على طاولة البار من خشب الجوز، وُضع جهاز آي–باد لتصفّح الجريدة الرقمية اليومية، لكنّني منذ زمن بعيد لم أعد متعاطفًا مع بؤس العالم.

منذ عام، انتصرت الحياة. في بعض الأحيان كان لديّ انطباع بأنّني أعدت التقاط طرف الخيط بعد وقفة بسيطة خالية من أيّ حضور وأيّ قلق إلّا من سعادة ثيو. الوجود يستعيد ألوانه أحيانًا عندما نشاركه. لقد عادت فانتين إلى جانبي وعدت أنا إلى جانبها. كنت قد تركت كورسيكا من دون ندم وأعدنا استثمار المنزل بالقرب من حدائق لوكسمبورغ الذي بات أخيرًا يشبه بيت أحلامي. كان ثيو، وهو الآن في سنته الثانية في كلّية الطبّ، ينضمّ إلينا أحيانًا كثيرة. كان شتاء العام 2010 قد أصبح بعيدًا جدًّا. بعد ما يقرب من ثمانية عشر عامًا، جمعتنا أخيرًا فلورا كونواي التي كنت قد خلقتها – خلقناها معًا، كما قد تقول فانتين معترضةً.

1 سيّدي، هل تريد قهوة أخرى؟

2 بكلّ سرور، شكرًا لك.

على الرغم من جمال المكان والمناظر الطبيعية الخلّابة، إلّا أنّ عطلة نهاية الأسبوع الرومانسية عند سفح جبال الألب الإيطالية لم تبدأ بشكل جيّد. كنت قد استيقظت وأنا أتصبّب عرقًا في الثانية فجرًا، ذراعي متصلّبة، أشعر بضغط على قلبي. بلّلت وجهي بالماء وتناولت حبّة دواء ليعود نبضي إلى طبيعته تدرّجًا، لكنّني لم أتمكّن من العودة إلى النوم. كانت حالات القلق تلك قد باتت تتكرّر أكثر فأكثر. لم تكن كوابيس حقًّا، بل كانت أسئلة مضنية عادت لتقضّ مضجعي بقوّة. ومن بينها: ماذا أضحت فلورا؟

تركتها ميتة سنوات، لكن هل كانت فعلًا كذلك؟ هل أمسكت بيد الرجل-الأرنب الممدودة واندفعت معه في الفراغ؟ أم إنّها تخلّصت من قبضته في الثانية الأخيرة؟

لقد كنت أنا فلورا كونواي...

وكنت أصرّ دائمًا على ذلك. لكن ما الذي كنت سأفعله بالضبط لو كنت مكانها؟ فلورا وأنا نسختان وهميّتان ضعيفتان. أي نسختين حقيقيّتين قويّتين. نعم، فأفضل ما نبرع به هو التحمّل. عندما يُعتقد أنّنا غرقنا، نبحث في دواخلنا عن قوّة تعيدنا إلى السطح. حتى عندما نُسحق في ساحة المعركة، فإنّنا نضع بيادقنا ليأتي شخص ما دائمًا في اللحظة الأخيرة ويرفعنا. يقبع هذا في دواخلنا، نحن الروائيين. لأنّ كتابة الروايات تعني التمرّد على حتمية الواقع.

أهو تبجّح؟ أهو كلام فارغ؟ لقد مرّ حقًّا وقت طويل منذ أن توقّفت عن الكتابة، لكنّ التوقّف عن الكتابة لا يعني أنّني لم أعد كاتبًا. وعندما أفكّر مليًّا في الأمر، فإنّني أرى طريقة واحدة فقط لمعرفة ما حدث لفلورا، ألا وهي الكتابة.

فتحت الجهاز اللوحي أمامي وتحقّقت من أنّه مزوّد بمعالج نصوص. لم تكن وسيلة الكتابة المفضّلة لديّ، لكنّها ستفي بالغرض.

سأكون كاذبًا لو قلت أنّني لم أكن خائفًا. أكثر من عشر سنوات، كنت قد وفيت بوعدي بأمانة بعدم الكتابة مرّة أخرى، ذلك الوعد الذي قطعته في ليلة شديدة البرودة من شهر يناير في كنيسة روسية، والآلهة لا تحبّ أن ننكث بوعودنا. لكن ما كان يدور في ذهني كان بمثابة طعنة خفيفة بالعقد. بالكاد نزوة. أردت فقط أن أطمئنّ على شخصية من شخصياتي. طلبت فنجانًا ثالثًا من القهوة وشغّلت البرنامج. كان من الجيّد أن أشعر مرّة أخرى بتلك الرعشة التي تندفع في دواخلنا قبل القفز إلى المجهول.

Hai voluto la bicicletta ? E adesso pedala![3]

تلك الروائح، أوّلًا وقبل كلّ شيء، التي تلد الصور. روائح حالمة يفوح منها أريج الطفولة والعطلات. روائح تحاكي نفحة الكريمات الواقية من الشمس المعطّرة برائحة...

.2

تلك الروائح، أوّلًا وقبل كلّ شيء. التي تلد الصور. روائح حالمة يفوح منها أريج الطفولة والعطلات. روائح تحاكي نفحة الكريمات الواقية من الشمس المعطّرة برائحة زيت المونوي، تلك التي تذكّرنا بغزل البنات والفطائر وحلوى التفّاح. روائح الأطعمة الدهنية لكن المسبّبة للإدمان لحلقات البصل المقلية وبيتزا السجق. لكلّ واحد قطعة من حلوى مادلين، عودة إلى كومبراي، إلى العمّة «ليوني»[4]. ثمّ نعيق

[3] أردتَ درّاجة؟ هيّا، قدها!

[4] في «لحظة مادلين»، يصف مارسيل بروست الكعكة المغموسة في الشاي التي أرجعته إلى تفاصيل ولحظات من طفولته، والطعم الذي ذكّره بعمّته التي كان يمضي عندها الفرص والعطلات الصيفية في كومبراي.

طيور النورس، هتافات الأطفال، الأمواج، الزبد، الموسيقى الشعبية في الحفلات الخيرية.

مشيت على الممرّ الخشبي لمنتجع صغير على شاطئ البحر يمتدّ على طول المحيط. جسر عائم، شاطئ رملي أبيض. من بعيد، تلوح أشكال دولاب هوائي وترتفع من الكرنفال رنّات مُسكرة. اللوحات الإشهارية على طول الممرّ الخشبي لم تترك مجالًا للشكّ: لقد هبطت في... سيسايد هايتس في نيو جيرسي.

كان الجوّ لطيفًا وكانت الشمس على وشك المغيب مودّعة الأفق الجميل. لكنّ الناس لا يزالون متراخين على الرمال. نزلت نحو الشاطئ. لمحت طفلًا ذكّرني بثيو في صغره. طفلة صغيرة تمرح معه استحضرت في ذهني الابنة التي تمنّيت لو أنجبتها والتي لن أنجبها أبدًا. كانت الأجواء ودودًا، أزلية بعض الشيء. هنا من يلعب الكرة الطائرة أو كرة المضرب، هناك من يتناول الهوت دوغ أو يتشمّس أثناء الاستماع إلى سبرينغستين أو بيلي جويل.

كانت الأجسام تندلق من ملابس السباحة، متأوّهة، مذنبة، لامبالية. أجسام أخرى كانت تجذب الأنظار. رحت أدقّق في الوجوه، آملًا بأن أرى فلورا، لكنّني بحثت كثيرًا ولم أجدها. كان هناك بعض القرّاء بين الحشود.

في صورة ميكانيكية، رحت أتفحّص الأسماء الموجودة على أغلفة الكتب: ستيفن كينغ، جون غريشام، ج. ك. رولينغ... الكتّاب أنفسهم الذين يتصدّرون المبيعات منذ عقود. من دون أن أعرف السبب حقًّا، لفت غلاف ملوّن انتباهي. خطوت بضع خطوات على الرمال لأقترب من المرتبة الهوائية التي وُضع عليها الكتاب.

الحياة بعد الحياة لفلورا كونواي.

– هل يمكنني استعارة كتابك لحظات؟

– نعم، بالطبع! أجابتني القارئة وهي أمّ كانت منهمكة في إلباس طفلها. يمكنك أخذه، لقد أنهيت قراءته. كان جميلًا لكنّني لست متأكّدة من فهمي للنهاية جيّدًا.

نظرت إلى الرسم التوضيحي. في مدينة نيويورك العصرية والخريفية، كانت فتاة شابّة ذات شعر أحمر، تتشبّث، وساقاها متدليّتان، بطرف كتاب عملاق. قلبت الكتاب لأقرأ الملخّص:

أحيانًا، الأفضل ألّا نعرف...

«خبطت شاشة جهاز الكمبيوتر وأنا مصاب بالذعر. كنت جالسًا على الكرسيّ، أرتعش وأشعر بجبيني يحترق. أحسست بوخز في عينيّ وبألم حادّ يشلّ كتفي ورقبتي. اللعنة! هي المرّة الأولى التي تخاطبني إحدى شخصياتي أثناء كتابتي الرواية!».

هكذا تبدأ قصّة الروائي الباريسي رومان أوزورسكي. في خضمّ عاصفة عاطفية وعائلية وبينما كان يكتب الفصول الأولى من روايته الجديدة، تقتحم إحدى بطلات الرواية حياته. فلورا كونواي. كانت قد فقدت ابنتها قبل ستّة أشهر. أدركت فلورا أنّ هناك من يتلاعب بخيوط وجودها، وأنّها فريسة متلاعب، كاتب يسحق قلبها وحياتها بلا رحمة.

لهذا السبب، تتمرّد فلورا. وتبدأ بينهما مواجهة خطرة.

ولكن من منهما الكاتب ومن الشخصية؟

روائية مشهورة حائزة جائزة كافكا عن مجموعة أعمالها، فقدت فلورا كونواي ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات في حادث مأسوي. في هذه الرواية المؤثّرة، تقدّم لنا شهادة لا مثيل لها عن الحداد وأنشودة عن القدرات التعويضية للكتابة.

وقفت هنيهة مصعوقًا. إذا كانت فلورا، في واقعي، شخصية من روايتي، ففي روايتها، كنت أنا من يؤدّي هذا الدور وكنت دمية بين يديها.

الحقيقة... الخيال... طوال حياتي كنت أجد الخطّ الفاصل بينهما غامضًا جدًّا. ليس هناك ما هو أقرب إلى الحقيقة من الزائف. ولا أحد يخطئ أكثر من أولئك الذين يتخيّلون أنّهم يعيشون في الواقع فقط، لأنّه في اللحظة التي يعتبر الناس مواقف معيّنة أنّها حقيقية، فهي تصبح حقيقية في عواقبها.

.3

صعدت الدرج لأعود إلى الممرّ الخشبي المحاذي للشاطئ. كان الكرنفال يشدّني كالمغناطيس. وكانت الروائح المنبعثة من أكشاك البطاطس المقلية تعذّبني، هو شعور الجوع الرهيب نفسه الذي يصاحب دومًا زياراتي لفلورا. سرت في محاذاة أكشاك بيع التذكارات وبائعي الآيس كريم أبحث عن مكان لشراء الهوت دوغ، وفي لحظة لم أتوقّعها البتّة، رأيت مارك روتيللي. كان جالسًا على شرفة أحد المطاعم على الشاطئ يرتشف الإسبريسو وعيناه ترنوان إلى البحر. لم يكن من السهل التعرّف إلى الشرطي السابق، كما لو أنّ الزمن عاد إلى الوراء: قامة ممشوقة، وجه محلوق بالكامل، نظرة هادئة، لباس رياضي.

وبينما كنت أهمّ بالانضمام إليه، سمعت صوت طفل يناديه:

– انظر ماذا ربحت يا بابا!

استدرت برأسي تجاه مصدر الصوت. رأيت طفلة شقراء تبلغ من العمر سبع سنوات أو ثمانيًا تحمل دمية دبًّا عملاقة وتعدو عائدة من لعبة الرماية. انقبض قلبي عندما شاهدت فلورا كونواي تسير خلفها.

– أحسنت يا سارة! قال روتيللي، وهو يمسك بابنته قبل أن يرفعها ليضعها على كتفيه.

طبعًا، هي ليست كاري. طبعًا، لن يحلّ أحد محلّ كاري. ولكن، عند رؤيتي إيّاهم وهم يغادرون الشرفة، انتابني فرح عميق. مثلي تمامًا، لقد عوّضت الحياة لهذين الاثنين اللذين، مثلي تمامًا، ذاقا عذاباتها، إلى درجة أنّها أعطتهما طفلًا.

وبينما كانت تتقدّم على الممشى الخشبي والشمس تطلق أشعّتها الأخيرة، استدارت فلورا نحوي. التقت أعيننا برهة واندفقت من خلالنا دفعة من الامتنان.

ثمّ صفّقت بإصبعيّ واختفيت مع نسيم المساء.

مثل ساحر.

السبت 10 يونيو، التاسعة والنصف صباحًا

انتهت الرواية.

ها أنا أعود إلى الحياة.

جورج سيمنون،
يوم كنت عجوزًا

المحتويات

فتاة المتاهة **11**
مختبئة 15
سلسلة أكاذيب 31
الطابق السادس والثلاثون تحت الأرض 43
بندقيّة تشيكوف 59

شخصية روائية (رومانية) **71**
توافق الأزمنة 75
فخّ منصوب للبطل 89
شخصية تبحث عن مؤلّف 103
ألمين 117
خيط الحبكة 135
إمبراطورية الألم 153
ليتورجيا الساعات 171

الوجه الثالث للمرآة **181**
ثيو 185
مجد أبي 193
الحبّ الذي يطاردنا 209
آخر مرّة رأيت فيها فلورا 231

الحياة رواية — بالنسبة إليها، كلّ شيء مكتوب،

بالنسبة إليه كلّ شيء ما زال في طور الكتابة.

«ذات يوم من شهر نيسان/ أبريل، اختفت ابنتي كاري البالغة من العمر ثلاث سنوات بينما كنّا نلعب الغمّيضة في شقّتي في بروكلين».

هكذا تبدأ قصّة فلورا كونواي، الروائية الشهيرة ذات الشخصية المتحفّظة. لا تفسير لاختفاء الطفلة. باب الشقّة مُوصد ونوافذها مغلقة، لم تسجّل الكاميرات في المبنى السكني القديم في نيويورك أيّ حركة غريبة. ولم يُظهر تحقيق الشرطة أيّ شيء.

في هذه الأثناء، عبر المحيط الأطلسي، يخفي كاتب مفطور القلب نفسه في منزل مهدّم.

هو وحده يحمل مفتاح اللغز. مصيراهما سيلتقيان.

«قصّة مكيافيلية مبهجة. يوقّع غيوم ميسو هنا واحدة من رواياته الأكثر شخصية. واحدة من الأفضل لديه.»

— ساندرين باجوس، صحيفة Le Parisien



غيوم ميسو — كاتب وروائي فرنسي برتبة عالميّة (مواليد أنتيب، 1974) يعشق الأدب والمسرح منذ نعومة أظافره. تحتلّ كتاباته قوائم أكثر الكتب مبيعًا في فرنسا والعالم، وقد بلغ ذروة نجاحاته برواية «وبعد»، فاكتسب شُهرة كبيرة، لا سيّما أنّها حُوّلت فيلمًا حقّق نجاحا كبيرًا في دور السينما.

في رصيده أكثر من عشر روايات، تُرجم معظمها إلى أربعين لغة. «الحياة رواية» هي الرواية الثالثة له التي تصدر عن نوفل من بعد «الصبيّة واللّيل» و«حياة الكاتب السريّة».

ISBN 978-614-469-905-8


9 786144 699058

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان